مِن لطائف التعبير القرآني
حول
سِيَر الأنبياءِ والمرسلين

آدم ونوح وإبراهيم
عليهم الصلاة والسلام

للأستاذ الدكتور
فؤاد بن محمود بن محمد سندي

مكة المكرمة

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

المحور الثالث

سيدنا إبراهيم عليه السلام
خليل الرحمن وأبو الأنبياء

- اسم إبراهيم بين اللغة والقرآن
- صفات إبراهيم في القرآن الكريم
- دعوة إبراهيم أباه آزر إلى توحيد الله
- دعوة إبراهيم قومه عبدة الأصنام
- تحطيم إبراهيم الأصنام
- محاكمة القوم إبراهيم عليه السلام
- نجاة إبراهم من نار قومه الوثنيين
- مناظرة إبراهيم مع الذي حاجه في ربه
- مناظرة إبراهيم لعبدة الكواكب
- رب أرني كيف تحيي الموتى
- إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام
- إسكان إسماعيل وأمه بوادي مكة القفر
- نبع زمزم وحادثة الذبح والفداء
- بناء بيت الله الحرام
- مقام إبراهيم عليه السلام
- تطهير بيت الله الحرام
- وأذن في الناس بالحج
- حديث ضيف إبراهيم المكرمين
- البشارة بمولد إسحاق عليه السلام
- الفرق بين المرأة والزوجة
- خاتمة المطاف

الجانب الأول: اسم إبراهيم بين اللغة والقرآن :

في (لسان العرب) [٤٨/١٢] :

إبراهيم: اسم أعجمي، وفيه لغات: إبراهام، وإبراهَم، وإبراهِم.. بحذف الياء.

وزاد الفيروز آبادي في (بصائر ذوي التمييز) (٣٢/٦) :

إبراهوم، وإبراهُم، وإبرَهُم وأبْرَهَم.

وقال: أكثر المحققين على أن إبراهيم اسم جامد غير مشتق، وقال بعضهم: (إب) باللغة السريانية معناه: الأب، و(راهيم) معناه: الرحيم، فإبراهيم معناه: أب رحيم.

هذا والرحمة كانت غالبة على سيدنا إبراهيم عليه السلام.

ولفظ إبراهيم مكوّن من سبعة أحرف. وهو الذي ورَد في القرآن الكريم تسعاً وستين مرة في خمس وعشرين سورة.

أولها سورة البقرة، وآخرها سورة الأعلى.

وفي سورة البقرة وحدها تكرر اسم إبراهيم خمس عشر مرة. وفي القرآن الكريم من هذه السور سورة باسم إبراهيم عليه السلام.

وهي مكية وهي الرابعة عشرة في ترتيب المصحف الشريف في آخر الجزء الثالث عشر وعدد آياتها اثنتان وخمسون منها سبع آيات فقط عن سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وفي هذه الآيات السبع قص علينا القرآن الكريم دعوات إبراهيم المباركات السبع: لبلد الله الحرام ، ولنفسه، ولبنيه، ولأهله الذين أسكنهم بوادي مكة القفر، ولذريته.

وفيها دعا ربه جلَّ جلاله أن يتقبل دعاءه وأن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

وفيها رد عليه السلام أمر الخلق كلهم المؤمن والعاصي لله تعالى والمشيئة فإنه غفور رحيم وإنه خبير عليم مع توجهه عليه السلام بالحمد لله

الذي وهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق عليهما السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم:].

أحبتي المسلمين في بداية هذه الآيات من سورة إبراهيم عليه السلام جاء التعبير القرآني (رب اجعل هذا البلد آمناً) بتعريف كلمة (البلد) وفي سورة البقرة [١٢٦] قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾ بتنكير كلمة (بلد).

وتعددت أقوال العلماء والمفسرين في سبب هذا الاختلاف بين الكلمتين وأرجحها عندي أن هذا الدعاء قد صدر مرتين من سيدنا إبراهيم عليه السلام **الأولى**: قبل بنائه الكعبة فجاء في سورة البقرة المدنية: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾ فإعراب (هذا) مفعول به أول في محل نصب و (بلداً) مفعول به ثان منصوب و (آمناً) صفة (بلداً).

والمرة الثانية صدر فيها دعاء إبراهيم بعد بناية الكعبة فجاء التعبير في سورة إبراهيم المكية ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾.

فمكة بعد بناء الكعبة فيها أصبحت بلداً معرّفاً مشهوراً وقد استقر أهل إبراهيم فيها. وإعراب (هذا) في سورة إبراهيم: مفعول أول أيضاً.

لكن إعراب (البلد) بدل، أو عطف بيان، أو صفة لاسم الإشارة (هذا) وأما (آمناً) هنا فهو المفعول الثاني.

والمعنى هنا: رب اجعل هذا المكان الذي مصّرته وصيّرته معرّفاً كما

سألتك من قبل اجعله (آمناً).

قال الإمام ابن كثير في تفسيره [٢/٥٤٠] : (وقد استجاب الله تعالى لإبراهيم أي: جعل البلد الحرام آمناً ممنّعاً لايحل انتهاكه، وجعل أهله وداخليه في أمن من إغارة الناس عليهم فقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال تعالى:﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال ابن كثير فيه وفي [١/١٧٤]:

فعرَّف البلد في آية سورة إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ لأنه دعا به بعد بناء الكعبة ولهذا قال في هذه السورة (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق).

ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكة فإنه دعا أيضاً فقال كما في سورة البقرة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ بتنكير (بلداً) أي اجعل هذه البقعة بلداً آمناً وناسب لأنه قبل بناء الكعبة في هذه السورة أي البقرة

أخي المسلم... وإذا تساءلت كيف جاءت (بلداً) النكرة في سورة مدنية؟ وجاءت (البلد) المعرفة في سورة مكية؟ وكان المتوقع أن يكون العكس؟ فالجواب كما يقاس على ماجاء في التسهيل لعلوم التنزيل[١/٩٨]:

(لأن ذلك الكلام حكاية عن إبراهيم عليه السلام فلا فرق بين نزوله بمكة أو بالمدينة) .

وأعود بك أخي الكريم إلى آيات سورة إبراهيم فأقول: في قوله تعالى: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) جاء في التسهيل [١/٤١٢]:

(يعني: بني من صلبي وفيهم أجيبت دعوته عليه السلام وأما أعقاب بني إبراهيم فمنهم من عبد الأصنام).

ثم ذكر إبراهيم عليه السلام أن الأصنام أضلّت كثيراً من الناس عن الإيمان، وقال عليه السلام: فمن تبعني ياربي على التوحيد فإنه مني وعلى

ديني، ومن عصاني وخالف أمري فأمره يرد إليك جلَّ شأنك، وإلى مشيئتك سبحانك إنك غفور رحيم.

قال ابن كثير رحمه الله [٢/٥٤٠]: (وقول الخليل كقول عيسى ابن مريم عليه السلام في المائدة ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لاتجويز وقوع ذلك).

هذا وفي قوله تعالى ﴿إني أسكنت من ذريتي﴾ أي: بعض أهلي وهم إسماعيل وأمه هاجر، وقد غارت منها زوجته الأولى سارة والتي لم تكن قد ولدت، فأمر الله سبحانه وتعالى خليله إبراهيم أن يحمل ولده إسماعيل الرضيع مع أمه من الشام إلى مكة فوضعهما عند دوحة مكان زمزم بواد غير ذي زرع عند بيته المحرم ليقيموا الصلاة ويعمُروا البيت بعبادة الله.

وفي قوله تعالى: ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: لو قال: (أفئدة الناس) لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم ولكنه قال: (من الناس) بالتبعيض، فاختص بهذا البيت الحرام المسلمون من الناس (تهوى إليهم) قال الإمام النسفي [٢/١٧٦].

أي: تسرع إليهم من البلاد الشاسعة وتطير نحوهم شوقاً.

وفي قوله تعالى (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق). جاء في زاد المسير [٤/٣٦٨]: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولد لإبراهيم إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة.

وجاء في الكشاف [٢/٥٦١]: (وإنما ذكَر حال الكبر؛ لأن المنّة بهبة الولد فيها أعظم؛ من حيث أنها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجلِّ النعم وأحلاها ولأن الولادة في تلك السِّنِّ العالية كانت آية لإبراهيم عليه السلام).

(إن ربي لسميع الدعاء) أي: مجيب الدعاء من دعاه.

وكان إبراهيم عليه السلام قد دعا ربه جلَّ جلاله وسأله الولد فقال كما

في سورة الصافات: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] وذلك بعد أن أنجاه الله من نار قومه عبدة الأصنام وهنا في سورة إبراهيم شكر الخليل لله عزّ وجلّ ماأكرمه به من إجابته وإقرار عينه بولديه الصالحين إسماعيل وإسحاق.

وفي قوله تعالى: (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) فهذه خير دعوة يدعوها المؤمن لنفسه ولأولاده وإنما بعّض عليه السلام في دعائه فقال: (من ذريتي) ولم يقل (وذريتي) لأنه عليه السلام علم بإعلام الله تعالى أنه يكون في ذريته كفار وعاصون.

وختم الخليل عليه السلام دعاءه الضارع الخاشع بقوله: ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) أي يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين فيحاسبهم على أعمالهم إنْ خيراً فخير وإن شراً فشر.

الجانب الثاني: صفات إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم:

إنْ كان اسم إبراهيم قد ورد صريحاً في كتاب الله العزيز تسعاً وستين مرة فإن صفات إبراهيم قد وردت في القرآن الكريم بالعشرات، وكلّها حسنة وحميدة، وفي آيات عديدة.

وسأحاول - بعون الله تعالى - إيراد وتوضيح بعض هذه الصفات لنرى عناية الله تعالى العظيم بهذا النبي الكريم على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ولنلمس حرص القرآن الكريم على تصوير جوانب العظمة والكمال في شخصية إبراهيم عليه السلام ليكون قدوة لرسولنا العظيم صلى الله عليه وسلم، وليصبح إماماً للناس في سعيهم نحو الإيمان، و في بحثهم عن الأسوة الحسنة، فأقول وبالله التوفيق:

الصفة الأولى: (الرُّشد):

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

الرشد معناه: الاهتداء لوجوه الصلاح، ومعرفة آفاق الخير والرشاد في

الدين والدنيا، وهذه موهبة عقلية كاملة، وهي هبة ربانية آتاها الله لإبراهيم من صغره حيث وفّقه للنظر والتفكر والاستدلال إلى الحق، ووحدانية الله عزّ وجلّ، والتطلع إلى درجات الخير والكمال.

وكان الله تعالى بإبراهيم عالماً أنه أهل لما آتاه من الفضل والنبوة.

الصفة الثانية: (سلامة القلب)..

قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤].

أي.. أن إبراهيم عليه السلام من شيعة نوح عليه السلام فهو على منهاجه وسنته.

قال البيضاوي [١٤١/٢]: (وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة وكان بينهما نبيّان (هود وصالح) صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين.

﴿إذ جاء ربه بقلب سليم﴾ أي قلب نقي طاهر مخلص من الشك والشرك، بريئ من نوازع الشر والإثم.

هذا وقد كان لرشاد العقل وسلامة القلب أثر واضح قوي في حياة إبراهيم الخليل ومواقفه من أبيه وقومه وبنيه كما سأوضحه إن شاء الله.

(الصفات.. الثالثة والرابعة والخامسة: (الحلم والتأوّه والإنابة).)

قال تعالى في سورة هود: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود:]

وقال الراغب في المفردات ١٣٦: (الحلم - بكسر الحاء وسكون اللام - هو: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب، يقال: حلُم يحلُم من باب شرف فهو حليم.

وقال رحمه الله:

الأوّاه.. الذي يكثر التأوّه وهو أنْ يقول أوّه أوّه وكلٌّ كلام يدل على تحزن وتوجع فهو تأوه وكثير التأوه يقال له أوّاه.

وقال [٥٠٩] والإنابة الى الله تعالى: هي الرجوع إليه سبحانه بالتوبة وإخلاص العمل، والفعل منه أناب، والوصف: منيب.

وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان صافي النفس، رقيق القلب حليماً غير عجول، صفوحاً عمن عصاه، كاظماً غيظه حتى مع الأعداء، وفي مواقف الشدة والبلاء، وكان كثير التأوه من خشية الله وكثير التوجع على حال الناس وضلالهم عن الحق، كما كان منيباً تواباً أواباً رجاعاً إلى الله تعالى، كثير التذلل بين يديه.

وهذه الصفات دالة على رقة القلب، وعلى الرأفة والرحمة، وعلى الخشية والخشوع وكان إبراهيم الخليل عليه السلام على حظ عظيم منها جميعاً.

الصفات.. السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة هي:

(الحنيفية والإسلام والإيمان والإحسان).

فكان سيدنا إبراهيم عليه السلام (حنيفاً مسلماً مؤمناً محسناً).

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات].

جاء في المفردات في غريب القرآن [١٤٠]: الحنف - بالحاء - هو مَيْل عن الضلال إلى الاستقامة أما (الجنف) بالجيم: فهو ميل عن الاستقامة إلى الضلال.

وفي معجم مقاييس اللغة [٣٢٢/١] (الحنيف) هو المائل إلى الدين المستقيم، والحنيف: هو الناسك، وجمعه: حنفاء.

وفي المفردات تحنّف فلان: أي: تحرّى طريق الاستقامة وفيه: سمّت العرب كل من حج أو اختتن: حنيفاً؛ تنبيهاً إلى أنه على دين إبراهيم عليه السلام.

و(المؤمن): من آمن بالله، ودخل في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم وقد جعل رسول الله عليه الصلاة والسلام في خبر جبريل عليه السلام أصل الإيمان وأركانه ستة أشياء حيث سأله فقال: وما الإيمان؟ قال صلى الله

عليه وسلم: هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى.

فالإيمان أعلى درجة من الإسلام؛ لأن الإسلام ظاهر في القول والفعل، أما الإيمان فغيبيٌّ وتصديق بالقلب بالمغيبات عن الحواس، جعلنا الله وإياكم مسلمين بصدق، مؤمنين بحق.

هذا وقال الراغب [٣٦]: (ويستعمل الإيمان على سبيل المدح ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق وذلك باجتماع ثلاثة أشياء هي: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح).

وقال ابن فارس في المقاييس [٧٣/١]: (وقال بعض أهل العلم: «المؤمن» من صفات الله تعالى هو أنْ يَصْدُق ماوعد عبده من الثواب.

وقال آخرون: هو مؤمن لأوليائه أي: يؤمِّنهم عذابه.

هذا... وأما: الإحسان.. فجاء في المقاييس [٢٩٢/١]: (الحاء والسين والنون أصل واحد، فالحُسن ضد القبح، يقال: رجل حسن وامرأة حسناء).

وفي المصباح: (أحسن : أي فعل الحسن، كما قيل: أجاد.. إذا فعل الجيد).

وفي المفردات [١٢٥]: (وأكثر ماجاء في القرآن الكريم من الحُسْن: فللمستحسن من جهة البصيرة، وقال أيضاً: الإحسان: يقال على وجهين..

أحدهما: الإنعام على الغير، والوجه الآخر: إحسان في فعله وذلك إذا علم الإنسان علماً حسناً، أو عمل عملاً حسناً.

وعلى هذا قول أمير المؤمنين رضي الله عنه: الناس أبناء مايُحسنون أي: منسوبون إلى مايعلمون ومايعملون من الأفعال الحسنة.

فالإحسان أعمُّ من الإنعام وهو فوق العدل، وذلك:

أن (العدل) هو أن يعطي الإنسان ماعليه، ويأخذ ما له، أما (الإحسان) فهو أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقلّ ممّا له..

فالإحسان زائد على العدل وعلى هذا قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ وَمَنْ

أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

ومن أجل ذلك عظّم الله تعالى ثواب المحسنين فقال في سورة البقرة:

﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال في الأعراف:

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]

وقال في التوبة:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠]

وقال في العنكبوت:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

هذا والإحسان في حديث خبر جبريل عليه السلام أعلى درجة من الإسلام ومن الإيمان قال صلى الله عليه وسلم: (الإحسان أنْ تعبد الله كأنك تراه فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك).

وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان بحق كما وصفه الله جل جلاله في كتابه العزيز: (حنيفاً مسلماً، مؤمناً محسناً).

فهذه تسع صفات:

(الرشد، وسلامة القلب، والحلم ،والتأوه، والإنابة، والحنيفية، والإسلام، والإيمان، والإحسان، اجتمعت كلها في سيدنا إبراهيم عليه السلام وبقيت في القرآن الكريم له صفات حسنة أخرى سأقدمها فيما يلي إنْ شاء الله تعالى).

الصفتان: العاشرة والحادية عشرة.. (الصِّدِّيقية والنُّبوة):

قال الله تعالى في سورة مريم:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٤١].

[الصِّدِّيق].. بكسر الصاد وتشديد الدال هو: الملازم للصدق، المبالغ فيه وفي (معجم مقاييس اللغة ٢/٣٥):

(الصاد والدال والقاف.. أصل يدل على قوة الشيء، قولاً وغير قول.. من ذلك: الصدق خلاف الكذب، سُمي لقوته في نفسه)..

وفي (المفردات في غريب القرآن ص ٢٨٠):

والصدّيق: من كثر منه الصدق، ويقال: لمن لا يكذب قط،.. وقيل: بل لمن صدق بقوله واعتقاده، وحقق صدقه بفعله).

وفي (تفسير النسفي ٢/٣٣١):

الصادق: هو المستقيم في الأفعال. والصّديق: هو المستقيم في الأحوال.

هذا وفي القرآن الكريم وردت كلمة [الصّديق] ثلاث مرات: مرتين.. في سورة مريم.. إخبار من الله تعالى لاثنين من أنبيائه.. هما.. إبراهيم وإدريس عليهما السلام.. قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

والمرة الثالثة جاءت وصفاً ليوسف عليه السلام من الذي نجا من السجن وجاء يسأله تأويل الرؤيا.. قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف: ٤٦].

هذا ومؤنث الصِّدِّيق: الصِّدِّيقة.. وهذه الصفة وردت في القرآن الكريم مرةً واحدة في السيدة مريم أم المسيح عيسى عليهما السلام.. قال تعالى في سورة المائدة: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]. أي: مُصدِّقةٌ للأنبياء، مؤمنة بهم.. قال تعالى في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ [التحريم: ١٢].

أما جمع الصِّدِّيق فهو: الصِّدِّيقون.. وهذه جاءت مرتين في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

وفي قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩].

وسيدنا إبراهيم عليه السلام لفرط صدقه في الأقوال والأفعال

والأحوال، ولكمال تصديقه لغيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله وأنبيائه بلغ درجة الصِّدِّيقِيَّة. وهو عليه السلام نبيٌّ في نفسه قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾. قال صاحب التسهيل لعلوم التنزيل ١/٤٨١.

(وصفه بأنه صديقٌ قبل الوحي، ونُبِّئ بعده، ويحتمل أنه جمع الوصفين).

قال عفيف طبارة: [في كتابه اليهود في القرآن ص١٣١].

(وتأمل كيف وصف الله إبراهيم بالصدق قبل أن يصفه بالنبوة ليرينا قيمة الصدق، وأنه من الدعائم التي تقوم عليها النبوة).

قلتُ: كلُّ نبي صِدِّيق، وليس كُل صديق نبياً.. فالصِّديق دُوِين النبي وبُعيده في الدرجة، والصدِّيق قُبيل الشهيد وفُويقه في الدرجة.. حشرني الله وإياكم أيها الإخوة المسلمون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

الصفات الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة هي: الإبتلاء والإتمام والإمامة:

قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤].

القراءة المشهورة [بنَصْب (إبراهيم) على أنه مفعول به مقدم، والمعنى: اذكر يامحمد لقومك] (إذ ابتلى) أي: امتحن واختبر الله إبراهيم عليه السلام (بكلمات) أي: بشرائع وأوامر ونواه.. [والاختبار من الإنسان لظهور مالم يعلم، والاختبار من الله لإظهار ما قد علم].

(فأتمهن) أي: قام إبراهيم بهن كلهن حق القيام، وأدّاهن أحسن التأدية..

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ابتلي بهذا الدين أحدٌ فقام به كُله إلا إبراهيم عليه السلام. كما قال تعالى في سورة النجم: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ [النجم: ٣٧].

أي: تمم ما أُمِر به من طاعة الله ومن تبليغ رسالته على وجه الكمال والتمام..

قال الحسن رحمه الله: ما أمره الله بشيء إلا وفّي به.

قال أبو حيان (في البحر المحيط ١/٣٧٦):

(ويظهر أنَّ الضمير في (فأتمَّهنَّ) يعود إلى الله تعالى على طريق الفاعلية أي: الله أكملهن لإبراهيم من غير نقص، أو بيَّنَهنّ له، أو يسّر له العمل بهن وقوّاه على إتمامهن، أو أتم له أجورهن، أو أدامهن سُنةً فيه وفي عَقِبه إلي يوم الدين.

قلت: ويجوز الجمع بين التأويلين.. فأتمها الله لإبراهيم وأتمها إبراهيم لله.. فقال له ربُّه جلّ جلاله: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾.

أي: قدوةً لهم يتبعونك ويقتدون بك في الأقوال والأفعال.

ففي الآية ثلاث صفات وهي من فضائل سيدنا إبراهيم عليه السلام وهي: الابتلاء من الله بكلمات، والإتمام والوفاء لهذه الكلمات، والإمامة والقدوة لمن بعده من الناس.

هذا وللمفسرين في تعيين [الكلمات] عدّة أقوال.. وممن ذكرها الأئمة الطبري وأبو حيان وابن كثير رحمهم الله.

ورغبة في الإيضاح والفائدة أورد هنا بعض أقوالهم فيها باختصار فأقول والله المستعان:

القول الأول: (الكلمات) ابتلاء إبراهيم بالطهارة، وهي العشرة التي من الفطرة.. خَمْسٌ في الرأس، وخَمْسٌ في الجسد..

في الرأس.. قَصُّ الشارب، والمضمضة، والاستنشاق والسواك، وفَرْق الرأس.

وفي الجسد.. تقليم الأظافر، وحلْق العانة، ونتْف الإبط، والختان، والاستنجاء.. وهو غسل أثر الغائط والبول بالماء.

القول الثاني: (الكلمات) عشرٌ.. ستٌّ في الإنسان وهي: حلق العانة، ونتف الإبط، والختان، وتقليم الأظافر، وقص الشارب، وغُسل يوم الجمعة..

وأربعٌ في المشاعر وهي: الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة.

القول الثالث: (الكلمات) هي: ثلاثون سهماً في الإسلام.. عشرٌ في [براءة] وعشرٌ في [الأحزاب]، وعشرٌ في [قد أفلح والمعارج].

ويعنون بذلك: الصفات العشرة في آية سورة براءة ١١٢ وهي التوبة ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

والصفات العشرة في الآية الخامسة والثلاثين من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ..﴾ الآية.

والصِّفات العشرة الواردة في أوائل سورة المؤمنون ١-١١: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ..﴾ الآيات.. وفي أواسط سورة المعارج ٢٢-٣٥: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾.

القول الرابع: (الكلمات) ما ابتلاه به ربُّه في ماله وولده ونفسه.. فسلَّم عليه السلام ماله للضيفان، وولده للقُربان، ونفسه للنيران، وقلبه للرحمن.

القول الخامس: (الكلمات): عَشْرٌ: (الملة) وهي: شهادة أن لا إله إلا الله، و(الفطرة) وهي: الصلاة، (والطهرة) وهي: الزكاة، (والجُنة) وهي: الصوم، (والشعيرة) وهي: الحج، (والنُّصرة) وهي: الغزو، (والعصمة) وهي: الطاعة، (والأُلفة) وهي: الجماعة، (والوفاء) وهو: الأمر بالمعروف، (والحُجة) وهي: النهي عن المنكر.

القول السادس: (الكلمات) هي ابتلاء الله إبراهيم [بالكوكب والشمس والقمر].. فأحسن في ذلك وعرَف أنَّ ربه دائم لا يزول فوجَّه وجهه للذي

فطر السموات والأرض. وابتلاه [بالهجرة] فخرج من بلاده بابل بين دجلة والفرات، وهجر قومه الكلدانيين حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله تعالى:

وابتلاه [بالنار] فصبر على ذلك، وابتلاه [بذبح ابنه وبالختان] فصبر على ذلك.

أيها الإخوة المسلمون هذه بعض الأقوال والتفسيرات في تحديد المقصود (بالكلمات) التي ابتلى الله بها إبراهيم عليه السلام.. وقال أبو حيان [البحر ٣٧٥/١]: وهذه الأقوال ينبغي أنْ تُحمل على أنَّ كل قائل منها ذكر طائفة مما ابتلى به إبراهيم إذ كلها ابتلاه بها، ولا يُحمل ذلك على الحصر في العدد ولا التعيين لئلا يؤدي ذلك إلى التناقض..

وقال رحمه الله: وهذه الأشياء التي فسر بها [الكلمات] إنْ كانت أقوالاً فذلك ظاهر في تسميتها كلمات، وإنْ كانت أفعالاً فيكون إطلاق (الكلمات) عليها مجازاً لأنَّ التكاليف الفعلية صدرت عن الأوامر والأوامر كلمات.

في الصفحات السابقة قدَّمتُ بتوفيق الله تعالى [أربع عشرة صفة] من صفات سيدنا إبراهيم عليه السلام وهي:

[الرشد، وسلامة القلب، والحلم، والتأوه، والإنابة، والحنيفية، والإسلام، والإيمان، والإحسان، والصِّديقية، والنبوّة، والابتلاء، والإتمام، والإمامة].

وبقيت لسيدنا إبراهيم في القرآن الكريم صفات أخرى كثيرة وكلها حسنة وحميدة.. أذكر هنا منها [سبع صفات] ذُكرت في قوله تعالى في (سورة النحل ١٢٠-١٢٢):

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل]..

فالوصف الأول: [أُمَّة].. بضم الهمزة وتشديد الميم وبتاء مربوطة..

قال صاحب التسهيل [٤٣٨/١]: وفي أمة وجهان:

أحدهما: أنَّ إبراهيم عليه السلام كان وحده أمة من الأمم؛ بكماله

وجمعه لصفات الخير، كقول الشاعر:

فليس على الله بمستنكر ❖ أن يجمع العالم في واحد

والوجه الآخر: أن تكون أمة بمعنى إمام..

وإمام - كما سبق - معناه: القدوة للناس يقصدونه ويتبعونه ويقتدون به.

وفي تفسير النسفي [٢/٢٤٠] عن مجاهد رحمه الله: كان إبراهيم عليه السلام مؤمناً وحده، والناس كلهم كفار، فهو منفرد.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الأمة الذي يعلِّم الخير. هذا وكلمة [الأمة] من الألفاظ المشتركة ذات المعاني المتعددة. واتفق اللغويون على أنَّ المعنى الأصلي لكلمة الأمة هو: [الجماعة]..

وفي (المفردات ص ٣٣):

(الأمة: كل جماعة يجمعهم أمرٌ ما، إما دِين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً، وجمع أمة: [أُمم].

وقال الإمام الرَّازي في [كتاب الزِّينة]: [عن كتاب الأمة للدكتور أحمد حسن فرحات ١٦]. (الأمة.. أصلها الجماعة من الناس والدَّوابِّ والطَّير).

وقال ابن منظور في اللسان [١٤/٢٧]:

(الأمة.. كل مَن كان على دين الحق مخالفاً لسائر الأديان، فهو أمة وحده.. وكان إبراهيم الخليل قائماً مقام جماعة في عبادة الله تعالى).

وقال ابن فارس [في المقاييس ١/٢٢]:

(الأمة.. الدِّين، والدين ملة يؤمها الناس، ويجتمعون عليها.. ومن معاني الأمة أيضاً.. الحين والمدة من الزمن؛ كأنما أقيمت الأمة مقام الحين).

هذا وقد وردتْ كلمة [أمة] في كتاب الله العزيز مفردة مجرَّدة من الإضافة تسعاً وأربعين مرة [كما جاء في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم].. ومعنى الكلمة يُفهَم في كل مرة مِن السياق الذي وردتْ فيه..

ومِن المعاني التي أُطلقت عليها كلمة [أمة] في القرآن الكريم ما يأتي:

(أ) أمة.. بمعنى [المدة من الزمن] قال تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ .. ﴾ [يوسف : ٤٥].

(ب) أمة.. بمعنى [الدين والملة] قال تعالى:

﴿ ... إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٢].

(ج) أمة.. بمعنى [الجنس من كل كائن حي] قال تعالى:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام : ٣٨].

(د) أمة.. بمعنى [الناس كلهم على دين واحد] قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ... ﴾ [يونس : ١٩].

(هـ) أمة.. بمعنى [الجيل من الناس لهم رسول وشريعة وأجلٌ] قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ... ﴾ [النحل : ٣٦].

(و) أمة بمعنى.. [الفرقة من القوم بلا عدد نُسبوا إلى شئ] قال تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ... ﴾ [آل عمران : ١٠٤].

(ز) أمة.. بمعنى [الرجال ليس بينهم نساء] قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ [القصص : ٢٣].

(ح) أمة.. بمعنى [الرجل الواحد الجامع لصفات الخيرات كلها] قال تعالى:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ... ﴾ [النحل : ١٢٠].

[فأمة] هو الوصف الأول لسيدنا إبراهيم عليه السلام في آيات سورة النحل:

الوصف الثاني.. فقد كان [قانتاً] أي: خاشعاً مطيعاً لله تعالى.

جاء في (مقاييس اللغة ٣٧٣/٢):

قنت.. القاف والنون والتاء.. أصل صحيح يدل على طاعة وخير في

دين.. والأصل فيه الطاعة.

يقال: قنت يقنُت قُنوتاً.. ثم سُمِّي كل استقامة في طريق الدين قُنوتاً، وقيل لطول القيام في الصلاة: قُنوت، وسُمي السكوت في الصلاة والإقبال عليها: قُنوتاً قال الله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

هذا وأما [حنيفاً].. فقد سبق أن ذكرت معناه وهو: المائل عن الشرك والضلال إلى الاستقامة والدين القويم.

الوصف الثالث: [شاكراً لأنعم الله تعالى].. قال الإمام ابن كثير:

أي: كان إبراهيم عليه السلام قائماً بشكر نعم الله عليه.

وفي [الكشاف ٢/٦٤٣]: (روي أنَّ إبراهيم عليه السلام كان لا يتغدّى إلاَّ مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً، فأخّر غداءه، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة بَشر، فدعاهم إلى الطعام، فخُيِّلوا إليه أنَّ بهم جذاماً! فقال إبراهيم: الآن وجبت مؤاكلتكم شكراً لله على أنه عافاني وابتلاكم).

هذا وكلمة [أنعُم] جمع [نِعمة] وهو جمع قِلة لأنه على وزن [أفعل] قال ابن مالك في الخلاصة [الألفية]:

أَفْعِلَةٌ أفْعُلٌ ثُمَّ فِعلَهْ ❖ ثُمَّتَ أفْعَالٌ جموعُ قِلَّهْ

وما عدا هذه الأوزان الأربعة من جموع التكسير فهو جمع كثرة ومنها: [نِعَمٌ] على وزن [فِعل] كما في قوله تعالى:

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

والسِّر اللطيف في استخدام التعبير القرآني مع إبراهيم عليه السلام جمع القلة (شاكراً لأنعمه) دون جمع الكثرة (نعمه) هو - والله أعلم - أنَّ نعم الله تعالى كثيرة لا تُحصى، وأنَّ الإنسان مهما كان فإنه غير قادر على شكر نعم الله جميعاً حتى ولو كان هذا الإنسان أمة وحده كإبراهيم عليه السلام..

وإنما المستطاع - وبتوفيق الله تعالى - أنْ يشكر الإنسان قِسماً من نعم الله وياليته يوفيها حقها!!

من أجل هذا جاء التعبير القرآني مع إبراهيم [شاكراً لأنعمه] بجمع القلة.

أما في آية سورة لقمان فالمقام هناك مقام تعداد نعم الله تعالى، وذكر مننه سبحانه على الناس؛ فناسب أن يجئ التعبير فيها: [نعمه] بجمع الكثرة قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

واختيار اللفظ المناسب للمقام المناسب هو عين البلاغة، ومقصد البلغاء.. والتعبير القرآني له - بلا ريب - القِدحُ المعلَّي في ذلك.

٨-١٧ **والصفتان الرابعة والخامسة في آيات سورة النحل هما: [الاجتباء والهداية]**.. قال تعالى: ﴿اجتباه وهداه إلى طريق مستقيم﴾

أي: اختص الله تعالى إبراهيم عليه السلام واختاره واصطفاه للنبوة، وهداه إلى ملة الإسلام، وإلى عبادة الواحد الأحد، وفّقه لسلوك طريق الحق المستقيم.

وفي [المفردات ص٩٥]: (اجتباء الله العبد: تخصيصه إياه بفيض إلهي يتحصَّل له منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد.. وذلك للأنبياء وبعض مَن يقاربهم من الصديقين والشهداء).

والصفتان السادسة والسابعة هما: [الثناء في الدنيا، والصلاح في الآخرة]..

قال تعالى: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾.

أي: جعل الله لإبراهيم عليه السلام الذكر الجميل في الدنيا، وهو لسان الصدق.. فجميع الأمم متفقون عليه، وقيل: هو قول المصلِّي منَّا: كما صليتَ على إبراهيم)، وقيل: المال والأولاد.

قال تعالى: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾،

أي: وسيكون إبراهيم عليه السلام في الآخرة من أهل الجنة الفائزين بأعلى الدرجات، فهو من زمرة الصالحين المنعمين برضوان الله تعالى.

أيها الإخوة الأكارم فهذه سبع صفات ومن قبلها أربع عشرة صفة وأختم حديثي عن صفات سيدنا إبراهيم عليه السلام الواردة في القرآن الكريم بصفة [الخُلة]..

قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء : ١٢٥].

أي: اتخذه صفياً اصطفاه لمحبته وخلته.

و[الخلة] هي المودة وهي أرقى مقامات المحبة، وما ذلك إلاَّ لكثرة طاعة إبراهيم عليه السلام لربه جلَّ جلاله.

وفي ذلك تشريف لإبراهيم الخليل، وترغيب في اتباعه..

فمن بلغ من الزلفى عند الله تبارك وتعالى أن اتخذه خليلاً كان جديراً بأنْ يكون قدوة حسنة لمن بعده، وكان خليقاً بأنْ تُتَّبع ملته وطريقته..

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء : ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٥].

وقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ.. ﴾ [الممتحنة : ٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة : ١٣٠].

صدق الله العظيم، وصدق رسوله الكريم، ونحن على ما قال ربنا من الشاهدين، والحمد لله رب العالمين، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد.

❖❖❖

الجانب الثالث: دعوة إبراهيم أباه آزر لعبادة الله وحده:

كان سيدنا إبراهيم عليه السلام يعيش في عالم لا يعرف الله تعالى ولا يعبده، بل كان عالماً كافراً تتوزعه.. عبادة الأصنام وعبادة الكواكب، وعبادة البشر.

فقام عليه السلام بمفرده يدعو إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، ويناظر قومه ويجادلهم في معبوداتهم الباطلة في قوة وإيمان ووضوح وصراحة.. ولقي في سبيل ذلك شتى الأذى وأصناف التعذيب وصبر وصابر ورابط وقلبه مطمئن بالإيمان ومتيقن بوعد الله له بالنصر له ولرسالته.. والقرآن الكريم ذكر لنا أربعة مواقف لسيدنا إبراهيم عليه السلام في الدعوة..

وهي: موقفه مع أبيه آزر، وموقفه مع قومه عبدة الأصنام، ومناظرته مع الملك الذي حاجه في ربه، ومناظرته مع عبدة الكواكب.

وسأعرض بعون الله تعالى كل موقف على حده موضحاً ما في آياته القرآنية من لمحات لغوية ولطائف تعبيرية فأقول والله المستعان:

دعوته لأبيه:

[أب].. لفظ محذوف اللام - أي الحرف الثالث - وهو [واو] عند اللغويين لأن مثناه: [أبوان].. ومصغره [أُبَيّ] برد الواو المحذوفة وإدغامها في ياء التصغير..

هذا وفي دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

(آزر) بالفتح في قراءة الجمهور على أنه بدلٌ أو عطفٌ بيان من (أبيه) فهو تابعٌ له في الإعراب أي مجرور.. إلا أن علامة الجر في (لأبيه) هي الياء لأنه من الأسماء الستة وفي (آزر) هي الفتحة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة..

وقرأ الحسن البصري (آزرُ) بالضم على أنه منادى والتقدير: (ياآزر).

(وآزر) هذا كان مشركاً، وكان يَنحتُ الأصنام والتماثيل ويبيعها للقوم يعبدونها من دون الله.

فعز على إبراهيم عليه السلام فعل أبيه آزر وهو أقرب الناس إليه فرأى أن يخصه بالنصيحة، ويحذره عاقبة الكفر، فوجه إليه كما جاء في الآية الكريمة سؤالاً: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾؟ وهو استفهامُ توبيخٍ أي: كيف تتخذ الأصنام آلهةً وهي جماد لا تستحق الإلهية؟!.

ثم حكم إبراهيم عليه وعلى قومه بالضلال: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي فأنت وقومك عبدة الأصنام السالكون مسلكك في ضلال بيِّن واضح لكلِّ ذي عقل سليم.

ولأن إبراهيم عليه السلام كان كما وصفه الله تعالى حليماً أواهاً منيباً عاد فحاور أباه آزر بلطف ورفق وفي أدب جمٍّ وأخذ يدعوه إلى الإيمان بالحكمة والموعظة الحسنة ويخاطبه ويجادله بألطف عبارة وأحسن إشارة..

اسمعه أخي المسلم كيف قال له كما جاء في سورة مريم..

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم].

فسيدنا إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات ينادي آباه آزر أربع مرات بقوله [ياأبت] وتاء التأنيث في [أبت] يُؤتَى بها للتعظيم والتبجيل في النداء وكذلك في أمي قال ابن مالك:

وفي النِّدا (أبتِ، أُمَّتِ) عَرَضْ ❖ واكْسِر أوِ افتح، ومِن اليا التّا عوض

فيجوز في هذه التاء الكسر والفتح: ياأبتِ وياأبتَ، ويمنع النحاة في سعة الكلام: ياأبتي لأن التاء عوض عن ياء المتكلم.. فلا يجمع بين العِوض والمعوَّض منه.

هذا وقد استهل إبراهيم عليه السلام في كل مرة بندائه: [ياأبت] نصيحة إيمانية قدمها لهذا الأب الآزر.. بدأ هذه النصائح بتقديم البرهان العقلي لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾؟ أي: هذه الأوثان جمادٌ لا تسمع دعاء عابدها، ولا تبصر مكانه، ولا تجلب له نفعاً ولا تدفع عنه ضراً! فلم ياأبت تعبدها والعقل يرفضها؟!.

ثم ثنَّى إبراهيم عليه السلام بالنصيحة الثانية:

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾.

وانظر أخي المسلم في هذا الأدب الإبراهيمي فهو عليه السلام لم يصف أباه بالجهل المطلق، ولم يصف نفسه بالعلم الفائق.. بل ترفق وتلطف في كلامه.. نبَّه أباه إلى أن الله جل جلاله قد اختصه بعلم رباني نافع لا يعلمه أبوه، وتفضل سبحانه عليه بوحي إلهي لم يُؤت أباه مثله.

وكأن سيدنا إبراهيم يقول لأبيه آزر: فأنا بحمد الله عرفت الله، وعندي معرفة بالهداية دونك.. (فاتبعني) ياأبت وأطعني واقبل نصيحتي (أهدك) وأرشدك إلى الصراط المستقيم والدين القويم.

ثم ثلَّث عليه السلام بنهي الأب عن عبادة الشيطان:

﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ فالشيطان اللعين كان للرحمن عصياً، ومستكبراً على عبادته وطاعته وهو الذي أوقعك في عبادة الأصنام، وزين لك هذه الضلالة، وأنت أطعته فأنت في الحقيقة عابده.

قال الإمام القرطبي رحمه الله [١١/١١١]: (وإنما عبر بالعبادة عن الطاعة لأن من أطاع شيئاً في معصية الله فقد عبده).

وأخيراً ربَّع إبراهيم عليه السلام بخاتمة نصائحه لأبيه آزر وهي: تخويفه سوء العاقبة: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾. أي إني أخاف أن تموت ياأبت على كفرك فيحل بك عذاب الله الأليم فتكون للشيطان قريناً في النار..

قال صاحب الكشاف [٣/٢٠]: (ولم يخل تخويف إبراهيم من حُسن

الأدب.. حيث لم يصرح بأنَّ العقاب لاحقٌ لأبيه آزر، وأنَّ العذاب لاصق به.. ولكنه قال: إني أخاف أنْ يمسك عذاب..

فذكر الخوف والمسَّ، ونكّر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه أكبر من العذاب نفسه.. وذلك لأن ولاية الشيطان مُعارضة لرضوان الله.. وإذا كان رضوان الله أكبر من الثواب نفسه، فكذلك ولاية الشيطان أكبر من العذاب نفسه.

قلتُ: ومن رحمة إبراهيم بأبيه آزر قال: (عذابٌ من الرحمن) ولم يقل من الجبار المنتقم مثلاً؟!

وقال الإمام الفخر الرازي [في التفسير الكبير ٢٢٦/٢١]:

(وإيراد الكلام بلفظ [ياأبت] في كل خطاب دليل على شدة الحب والرغبة في صون أبيه من العقاب، وإرشاده إلى الصواب)..

وقد رتَّب إبراهيم الكلام في غاية الحُسن؛ لأنه نبهه أولاً إلى بُطلان عبادة الأصنام، ثم أمره باتباعه في الاستدلال، وترْك التقليد الأعمى، ثم ذكَّره بأن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام.. مع رعاية الأدب والرِّفق.

وقوله: [إني أخاف] دليلٌ على شدة تعلق قلبه عليه السلام بمصالحه قضاءً لحقِّ الأبوة].

أيها الإخوة الأكارم.. هذا هو موقف إبراهيم في دعوة أبيه آزر للإيمان وتوحيد الله.. وكان كما رأينا موقفاً نبيلاً كريماً مؤدباً.

فكيف كان ردُّ الأب الآزر على هذا الناصح الشفوق والنبي الكريم على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم؟؟

لقد أشار القرآن الكريم في سورة مريم وعقب هذه النصائح الإيمانية إلى أنَّ آزر لم يقبل النصيحة، وأنه قابل استعطاف إبراهيم وتلطفه بالغلظة والفظاظة بل وثار على إبراهيم وهدده وتوعده.. قال تعالى:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

نعم هكذا كان رد آزر على إبراهيم الناصح الأمين.. وبتأمل هذه الآية تلاحظ أخي الكريم مدى قساوة الأب ومقدار فظاظة الرد..

قال آزر: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾..

فأخّر الأب القاسي نداءه لإبراهيم عما يريد قوله له.. فقال: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾.

ولم يقل: أأنت راغب؟

وناداه باسمه مجرداً (ياإبراهيم) ولم يقل: يابني..

بينما إبراهيم عليه السلام قدم نداءه لأبيه آزر على القول والنصيحة وناداه بألطف الصفات: [ياأبت] لا باسمه المجرد..

ومن باب تكريم إبراهيم لأبيه آزر كرر هذا النداء [ياأبت] أربع مرات!

هذا وفي تقديم آزر الخبر (راغب) على المبتدأ (أنت) إشارة إلى أهمية الخبر عنده من المبتدأ، ودلالة على أن الحدث في نظره أكبر ممن أحدثه!!

وصدّر الخبر بالهمزة [أراغب] وذلك كما قال الإمام البيضاوي (تفسيره ١٧/٢): (لإنكار نفس الرغبة، كأنها مما لا يرغب عنها عاقل)!

إذاً كيف يرغب إبراهيم عن دين أبيه، وكيف يسفّه رأيه؟!

إنَّ هذا في نظر آزر لمعصية كبيرة يستحق إبراهيم عليها الإيذاء والعنف.. من أجل ذلك هدده آزر وتوعده بقوله:

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾..

المعنى: ياإبراهيم لئن لم تكُف عن النهي عن عبادة الأصنام، وترجع عن عيب وسب آلهتنا لأرجمنك بالفعل أو بالقول..

أي: لأقتصن منك، أو لأشتمنك وأعيبك.

قال الإمام النسفي [تفسيره ٣٣٩/٢]: (المعنى: لأرجمنك بالرِّجام أي: لأقتلنك بالحجارة، أو لأضربنك بها حتى تتباعد، أو لأشتمنك).

(واهجرني ملياً) أي: ابعدْ عني ياإبراهيم زماناً طويلاً، وذلك من الملاوة،

وهي: المدة الطويلة من الدهر.

و[الملوان] هما الليل والنهار، وحقيقة ذلك تكررهما وامتدادهما، وقيل: (ملياً) أي: أبداً، وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما [ملياً] أي سوياً سالماً قبل أن تصيبك منِّي عقوبة..

فكأن المعنى: فاحذرني ياإبراهيم، **واغْرب** عن وجهي، وصُنْ حياتك عن غضبي ورجمي..

أيها الإخوة المسلمون.. بهذه الجهالة تلقَّى آزر دعوة إبراهيم الحليم الرشيد وبهذه القسوة قابل القول المؤدَّب..

وهذا هو شأن الكفر مع الإيمان، وهذه دائماً حال القلب الأسود الذي أفسده الطغيان..

أمَّا القلب السليم.. الذي هذبه الإيمان، قلب إبراهيم عليه السلام.. فلم يقابل تهديد الأب الكافر وطرده إلا بقوله: [سلامٌ عليك].. أي: أما أنا ياأبت فلا ينالك مني مكروهٌ ولا أذًى؛ وذلك لحُرمة الأبوة، وأقول: [سلامٌ عليك] أي: سلام توديع ومتاركة وذلك كقوله تعالى في وصف عباده في سورة الفرقان ٦٣:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ أو سلام تقريب وملاطفة؛ وذلك استمالةً لآزر، وطمعاً في إيمانه ومن أجل ذلك وعد سيدنا إبراهيم أباه آزر بالاستغفار له بقوله: ﴿ سأستغفر لك ربي ﴾.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله (١٣٣/٣): أي: سأسأل الله أن يهديك ويغفر ذنبك.

﴿ إنه كان بي حفياً ﴾ أي: لطيفاً رحيماً رؤوفاً مكرماً، وقد عودني سبحانه الإجابة ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾..

أي ومادام وجودي ياأبت بجوارك يُغضبك، ودعوتي لك تُؤذيك.. فسأعتزلك أنت وقومك، وأهاجر من أرضكم..

﴿ وأدعو ربي ﴾.. أي: أعبده وحده مخلصاً له العبادة..

﴿عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً﴾.. أي راجياً ألا يجعلني ربي شقياً بعبادته، كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام! وأرجوه سبحانه وتعالى ألا أكون خائباً ضائع السعي مثلكم!!

هذا (والسِّين) في [سأستغفر] حرف تنفيس يختص بالمضارع، ويخلصه للاستقبال.. قال ابن هشام (في مغنى اللبيب ١/١٢٢):

حرف تنفيس معناه: حرف توسيع، وذلك أنَّ السين تقلب المضارع من الزمن الضيق - وهو الحال - إلى الزمن الواسع وهو الاستقبال.

وذهب البصريون إلى أنَّ مدة الاستقبال مع السين أضيق منها مع [سوف] وذكر بعضهم أنَّ السين قد تأتي للاستمرار..

هذا وقد استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر كما وعده.. جاء ذلك في آية واحدة من سورة الشعراء.. قال تعالى على لسان إبراهيم:

﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

أي: يارب اصفح عن أبي آزر واهده إلى الإيمان، فإنه قد ضل عن سبيل الهدى فكان من الكافرين.

قال الإمام الصاوي [على الجلالين ٣/١٧٥]:

وقد أجاب الله تعالى جميع دعواته سوى الدعاء بالغفران لأبيه آزر.

وقال الإمام القرطبي [١٣/١١٤]:

كان أبوه قد وعده أنْ يؤمن به، فلذلك استغفر له، فلما بان له أنه لا يفي تبرأ منه.. كما جاء في سورة التوبة:

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وجاء في تفسير ابن كثير ٢/٣٩٤:

(قال ابن عباس رضي الله عنهما: مازال إبراهيم عليه السلام، يستغفر لأبيه آزر حتى مات، فلما تبين له أنه عدوٌ لله تبرأ منه).

هذا وقد أمر الله تعالى نبينا محمداً ﷺ والمؤمنين بأنْ يقتدوا بخليله

إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه في عداوة المشركين والتبرُّؤ منهم حتى ولو كانوا أقرباءهم لأنهم أعداء الله، والإيمان يقتضي مقاطعتهم وبغضهم..

قال تعالى في سورة الممتحنة:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

إخوتي هذه دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر وهذا أمر الله تعالى للمؤمنين في كيفية التعامل مع الكافرين حتى ولو كانوا آباءهم.

ويلاحظ أن كلمة [أب] مجرورة باللام ومضافة إلى ضمير الغائب هكذا: [لأبيه] قد وردت في القرآن الكريم تسع مرات.. قُصِد بها في مرة واحدة منها أبو يوسف عليهما السلام وذلك في قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

ولم تصرِّح هذه الآية باسم أبي يوسف، وأجمع المفسرون على أنَّ المقصود بـ(لأبيه) هو والده الذي نسله وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام.

والمرات الثماني الأخرى [لأبيه] الواردة في القرآن الكريم المقصود فيها هو أبو إبراهيم وأُولى هذه المرات في ترتيب المصحف جاءت في سورة الأنعام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً..﴾ [الأنعام: ٧٤].

وفي هذه الآية صُرِّح باسم آزر أبي إبراهيم..

وفي المرات السبعة الباقية لم يذكر هذا الإسم بل اقتصر فيها على كلمة [لأبيه] فعُلم أنَّ المقصود بأبيه فيها هو آزر.

وفي تفسير ابن كثير رحمه الله (١٤٩/٢): (قال الضحاك عن ابن

عباس رضي الله عنهما: إنَّ أبا إبراهيم لم يكن إسمه آزر، وإنما كان اسمه تارَخ.. وهكذا قال غير واحد من علماء النسب.. وقال ابن جرير وقال آخرون: هو سبٌّ وعيبٌ بكلامهم، ومعناه: مُعْوَجٌّ.. وقال ابن جرير: قد يكون له اسمان، أو يكون أحدهما لقباً.. قال ابن كثير: وهذا الذي قاله جيدٌ قويٌّ والله أعلم).

هذا وفي معاجم اللغة العربية كلمة (الأب) تُطلق على الوالد وعلى العَمِّ وعلى الجَدِّ.

وكلمة (الوالد) على الأب الذي نسل، و(الوالدة) على الأم التي ولدت وهما والدان.. وفي كتاب الله العزيز وردت هذه المعاني في أكثر من موضع، منها:

قوله تعالى في سورة يوسف ٤: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ﴾ وهذا والده يعقوب عليه السلام.

وقوله تعالى فيها أيضا ٦ على لسان يعقوب لابنه يوسف: ﴿.. كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف: ٦]. وهذان الجدان الأول والثاني ليوسف عليهم السلام.

وقوله تعالى في سورة البقرة ١٣٣: على لسان بني يعقوب لأبيهم:

﴿.. قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ..﴾ فهؤلاء الآباء هم جَد وعمٌّ ووالد.

ومنها قوله تعالى في سورة البقرة ٢٣٣: ﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾وفي سورة لقمان ٣٣: ﴿.. وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ..﴾وفي سورة الإسراء ٢٣: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ..﴾ صدق الله العظيم. قال المفسرون: قرن الله تعالى بعبادته بر الوالدين لبيان حقهما العظيم على الولد، لأنهما السبب الظاهر لوجوده وعيشه... أعانني الله وإياكم أيها الإخوة المسلمون على ذكره وحُسن عبادته، ورزقنا جميعاً برَّ الوالدين، وسعادة الدارين..

الجانب الرابع: دعوة إبراهيم لقومه عبدة الأصنام:

وُلد سيدنا إبراهيم عليه السلام في (بابل) من أرض الكلدانيين في [العراق] بين (دجلة والفرات) كما في تاريخ الطبري (١/١٦٢).

وكان أهل بابل مشركين وثنيين لهم آلهة كثيرة، لكل مدينة عندهم ربٌ كبير يحميها، ولقراهم آلهة صغرى، وجميع آلهتهم تخضع لإله أكبر.

فكان القوم يتخبطون في ظلام دامس من الشرك والوثنية، وكانوا ينحتون الأصنام بأيديهم ثم يعبدونها، ويجعلونها أرباباً من دون الله.

وسط هذه البيئة الفاسدة المشركة نشأ إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام فآتاه الله الرُّشد صغيراً، وهداه إلى الحق.. فعرف بصائب رأيه وبوحي ربه أنَّ الله واحد أحد، وأنه وحده خالق هذا الكون والمهيمن عليه، وهو المستحق للعبادة،

فقام إبراهيم عليه السلام يدعو أباه آزر، وقومه إلى توحيد الله تعالى، وإلى ترْك عبادة الأصنام والأوثان.

هذا و(الأصنام) جمعٌ مفرده (صنم) وهو تمثال مِن حجر أو خشب أو نحاس ونحوه يُصنع فيُعبد، ويسمى (وثناً) وجمعُه (أوثان).

و[التماثيل] جمعٌ مفرده (تمثال)، وهو صورة مصنوعة يحاكَى به خلق مِن الطبيعة، أو يُمثَّل به معنًى يكون رمزاً له.

هذا وقد استخدم إبراهيم عليه السلام في دعوته لقومه عبدة الأصنام والأوثان أسلوب المناظرة والاستدلال العقلي والحجة الدامغة..

وقد صوَّر القرآن الكريم ما دار بين إبراهيم عليه السلام وقومه في مشاهد متعددة وردتْ في أربع سور هي: [الأنبياء، والشعراء، والعنكبوت، والصافات]..

قال الله تعالى في سورة الأنبياء:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنبياء].

فإنكار إبراهيم عليه السلام على قومه عبادة الأوثان، وتنقصه لها، وتحقيره لشأنها إنما هو من الرشد الذي آتاه الله إياه من قبل.

هذا والفعل [عكف] يتعدى (بعلى) كقوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ . ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. قال أبو حيان في البحر (٦/٣٢٠): قول إبراهيم عليه السلام ﴿ .. التي أنتم لها عاكفون ﴾ بمعنى: أنتم عليها.. وذلك كما قيل في قوله تعالى في سورة الإسراء٧: ﴿ ... وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا .. ﴾ أي: فعليها.. وقيل (عاكفون) ضُمِّن معنى (عابدين) فعدَّاه باللام فجاء: أنتم لها عاكفون والظاهر أنَّ اللام في (لها) في الآية لام التعليل أي: بسبب تعظيمها، والتقدير: [.. ما هذه التماثيل التي أنتم لتعظيمها عاكفون على عبادتها؟؟].

هذا وقد بدأ سيدنا إبراهيم دعوته لقومه بسؤالهم عما يعبدون.. قال تعالى في سورة الشعراء:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الشعراء]. مع أنه عليه السلام كان يعرف ما يعبدونه، ولكنه أراد أنْ يوقظ فيهم التفكير، وأنْ يحكموا بأنفسهم على آلهتهم ليقيم عليهم الحجة.. فكان جوابهم: الشعراء ٧١:

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ [الشعراء: ٧١]. هكذا أجابوه (نعبد أصناما) فآلهتهم إنما هي أصنام، ولم يدَّعوا لها صفة من صفات الربوبية وأنَّى لهم ذلك وهم الذين صنعوها؟! ومن جهالتهم وسفههم لم يكتفوا في جوابهم عما يعبدون بقول: (أصناماً) بل زادوا كلمة (نعبد) وذلك افتخاراً منهم بأصنامهم، ومباهاة بعبادتها.. ثم عطفوا على قولهم: (نعبد) قولهم: ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ أي: نقيم على عبادتها ولا نتركها.

قال النسفي [٢/٥٦٧]: (وإنما قالوا (فنظل) لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل أو معناه: الدوام على دعائها وعبادتها)..

وعندما أجاب القوم بهذا وجَّه إبراهيم عليه السلام لهم هذا السؤال

المحرج المفحم على سبيل التبكيت والتوبيخ: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء].

أي: ياقوم هل هذه الأصنام تسمع دعاءكم حين تدعونها؟ وهل تنفعكم إنْ عبدتموها؟ أو تضركم إنْ تركتم عبادتها؟!!

فاعترف القوم بأن آلهتهم لا تملك شيئًا مما ذكره إبراهيم إذ ﴿قَالُوا بَلْ﴾ [الشعراء: ٧٤]. و(بل) معناها هنا: الإضراب الإبطالي أي: إبطال المعنى الذي قبلها، والإضراب عنه، والرد عليه بما بعدها، والمعنى: ياإبراهيم هذه الأصنام لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ونحن لا نعبدها لشئ من ذلك ولكن: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]. ففعلنا نحن مثلهم وقلدناهم.

قال أبو السعود (١٠٩/٤): [اعترف القوم بأن آلهتهم الأصنام لا تنفع ولا تضر بالمرة واضطروا إلى إظهار الحقيقة وهي أنه لا سند لهم سوى التقليد. والتقليد الأعمى وهذا من علامات انقطاع الحجة].

وبهذا الجواب القاصر كان جوابهم في سورة الأنبياء أيضاً عندما سألهم إبراهيم عليه السلام ﴿.. مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء]. قال ابن كثير (١٨٢/٣): لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضُّلاَّل؛ ولهذا قال لهم عليه السلام: ﴿..لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

وفي سورة الشعراء أعلن إبراهيم عليه السلام لقومه عداوته لهذه الأصنام: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء]. كلمة (عدو) في اللغة تطلق على الواحد وعلى الجمع.. قال الفراء: (فإنهم عدو لي) هذا من المقلوب، أي: فإنِّي عدوٌّ لهم.. وجاء في تفسير الكشاف [٣١٨/٣]: [وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له. وإنما قال: (عدوٌّ لي) دون: (لكم) زيادة نصح ليكون أدعى لهم إلى القبول؛ لينظروا فيقولوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه.

وقول إبراهيم: (إلا رب العالمين) استثناء منقطع لأن رب العالمين لا يدخل تحت الأعداء. هذا وفي سورة الصافات وصف سيدنا إبراهيم عليه السلام قومه الوثنيين بالإفك..

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الصافات].

الإفك: معناه الكذب بل هو أسوأ الكذب إذ هو - كما جاء في المقاييس [٦٥/١] وفي المفردات [٢٨] - قلب الشئ بصرفه عن وجهه الذي يحق أنْ يكون عليه ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب: مؤتفكة ومؤتفكات.

وفي إعراب [إفكاً] أكثر من وجه، أوضحها عندي أنه: مفعولٌ له.. والمعنى: أتريدون آلهة دون الله من أجل الإفك والزور؟!

هذا وقدم المفعول لأجله [إفكاً] على المفعول به [آلهة] زيادة في التقبيح عليهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم وعبادتهم الأصنام.

ثم هددهم عليه السلام بقوله: ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾؟

أي: أي شئ ظنكم برب العالمين أيها القوم؟ هل تظنون أنه يترككم بلا عقاب وقد عبدتم غيره؟، وأنتم تعلمون أنه رب العالمين؟

فهو سبحانه المنعم في الحقيقة.. فكان حقيقاً بالعبادة!!

وفي سورة الأنبياء بعد أنْ سفَّه إبراهيم عليه السلام أحلام قومه، ورماهم وآباءهم بالضلال المبين.. استعظم القوم إنكاره عليهم، واستبعدوا أنْ يكون ما هم عليه ضَلالاً، وجوَّزوا أنْ يكون إبراهيم مازحاً في قوله غير جاد.. فسألوه قائلين: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٥]. أي: يا إبراهيم أجادٌّ أنت ومحقٌّ فيما تقول؟ أم أنت لاعب مازح؟!

فأجابهم بقوله: ﴿ .. بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٦].

والمعنى: بل أقول لكم ذلك جادًّا غير لاعب.. وأقول: إنَّ ربكم الحق هو

رب السماوات والأرض الذي خلقهن وأبدعهن فهو الجدير بالعبادة لا هذه التماثيل المزعومة.

وأنا شاهدٌ لله بالوحدانية فلا إله غيره ولا رب سواه كائناً من كان جماداً أو حيواناً أو إنساناً..

وفي سورة الشعراء وجَّه إبراهيم عليه السلام قومه إلى معرفة الله تعالى فهو سبحانه صاحب النعم التي تحيط به وبكل إنسان من منشئه ومرباه إلى أن يبلغ الأجل مداه..

فلا خالق ولا هادي ولا رازق ولا شافي ولا محيي ولا مميت إلا إياه وإليه سبحانه المآب، وبيده العقاب والثواب، ولا غافر للذنب والخطيئة إلا الله..

استمع أخي المسلم لقول إبراهيم الخليل عليه السلام عن رب العالمين:

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء].

أحبتي المسلمين.. في هذه الآيات الكريمات عدد من اللمحات اللغوية واللطائف التعبيرية أختار لكم منها ما يلي:

اللمحة الأولى:

في الضمير [هو] الذي نجده مذكوراً قبل الأفعال الثلاثة: [يهدين، يطعمني، يشفين] وهو ضمير مؤكد لما بعده.

ولم يذكر هذا الضمير المؤكد مع الأفعال الثلاثة الأخرى وهي: [خلقني، يميتني، يحيين]..

والسر اللطيف في هذا الذكر وهذا الحذف هو - والله أدرى وأعلم - أنَّ أفعال الخلق، والإحياء، والإماتة لا يمكن أنْ يدعيها أحدٌ لنفسه، بل هي خاصة بالله تعالى دون منازع، وقد أخطأ ووهم وكذب ذلك الذي حاج إبراهيم في ربه فقال: إنه يحيي ويميت، إذ هو لم يحي ولم يُمت، وإنما ترك واحداً على حياته كما هو فذاك حي بذاته، ثم هو هدم حياة الآخر فقتله ولم يُمته..

وشتان أيها الإخوان ما بين الاستحياء والإحياء وما بين القتل والموت!!

ومن أجل ذلك لم يذكر الضمير [هو] قبل الأفعال: [خلق، ويحيي، ويميت].. فالتأكيد معها غير لازم وذلك لمقتضى الحال ولاختصاصها بالخالق عزَّ وجل.

أما أفعال: الهداية والإطعام والشفاء.. فهي لاشك في أنها من صفات الله سبحانه وتعالى.. ولكن قد يدَّعي المخلوق أنه يفعلها فيقال: المفكر يرشد ويهدي، والغني يطعم ويسقي، والطبيب يداوي ويشفي..

ولهذا الادعاء أتي التعبير القرآني بالضمير المؤكد مع هذه الأفعال فقال: [هو يهدين، هو يطعمني ويسقين، هو يشفين] ليؤكد أنَّ الهدى إلى الطريق المستقيم هو من الله وحده، وأنَّ الرِّزق هو بيد الرزاق سبحانه، وأنَّ الشفاء هو بإرادة الله جل شأنه.

فسبحان الله العظيم جلت حكمته، ودقت بلاغة كلماته..

قال الإمام الكرَماني في [البرهان في متشابه القرآن ١٥٥]: [فالإطعام والشفاء لأنهما مما يدَّعي الإنسان أنْ يفعله فأكَّدهما (بهو) إعلاماً أنَّ ذلك منه سبحانه لا مِن غيره، وأما الخلق والموت والحياة.. فلا يدَّعيها مُدَّعٍ فأطلق].

وقال الشيخ الشعراوي في [معجزة القرآن ٥١/١]:

(... ولو أنَّ الله سبحانه وتعالى استخدم كلمة [هو] مع كل الأفعال المذكورة في الآيات، أو حذف كلمة [هو] مِن كل الأفعال المذكورة.. لما تنبَّه لذلك معظم الناس ولمضى الحديث على أنه كلام بشَر، ولكنه كلام الله سبحانه وتعالى).

هذا وإنْ كان الله ليس كمثله شيء، فإنَّ كلام الله ليس كمثله كلام!؟!

اللمحة الثانية..

(النون) في الأفعال السبعة في هذه الآيات:

[خلقني، يهدين، يطعمني، يسقين، يشفين، يميتني، يحيين] تسمى: نون

الوقاية.. وهي لازمة في كل فعل اتصلت به ياء المتكلم..

وأكثركم أيها الإخوة المسلمون يعلم أنَّ ياء المتكلم تتطلب كسر ما قبلها..

كما يعلم أكثركم أنَّ الاسم يقبل الكسر، والفعل لا يقبله فيقال في (قلم): قلمِي بكسر الميم في جميع حالات الإعراب وتُقدَّر الحركة الإعرابية لاشتغال المحل بالكسرة المناسبة للياء. ولا يقال في الفعل (رزق): رَزَقِي.. بكسر آخر الفعل بل يظلُّ آخر الفعل محتفظاً بحركته محفوظاً من الكسر.. ولتحقيق هذا الحفظ للفعل المتصل به ياء المتكلم يأتي العرب بين الفعل والياء بنون مكسورة فيقولون: [رَزَقَنِي، يَرزُقنِي، ارْزُقْنِي]..

وهذه النون اسمها نون الوقاية لأنها تقي وتحفظ الفعل من الكسر ولا محل لها من الإعراب، وياء المتكلم المتصل بالفعل هو مفعول به في محل نصب، والمتصل بالاسم هو مضاف إليه في محل جر..

وإذا أعدتَ أخي الكريم النظر في هذه الآيات ستجد أنَّ ياء المتكلم ذُكرت فيها مع ثلاثة أفعال هي: (خلقني، يطعمني، يميتني) وستجد أنَّ الياء حُذفت مع الأفعال الأربعة الباقية وهي: [يهدين، يسقين، يشفين، يحيين] والمحذوف في العربية مقدَّر فكأنه مذكور وإنْ بحثتَ عن سبب حذف الياء مع هذه الأفعال فستجده إنما حدث مراعاة للفواصل أي: لتتفق نهايات هذه الآيات مع ما قبلها وما بعدها في هذه السجعة المنغومة، الجميلة الواقع، العظيمة التأثير في النفوس المتذوقة، والآذان المرهفة التي تتذوق المحسنات البديعية، والأساليب الرفيعة.. واقرأ معي أو اسمع هذه الآيات: ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الشعراء].

هذا والتعبير القرآني يُعنى بهذه اللطيفة البديعية عناية فائقة واضحة

لا بين الآيات المتجاورة فحسب بل في السورة كلها.. كما هو الحال في هذه السورة على طولها وهي الشعراء وقد تجاوز عدد آياتها المائتين من أولها: ﴿طسم ﴿١﴾ تلك آيات الكتاب المبين ﴿٢﴾﴾.. وإلى آخرها: ﴿... وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون﴾.

اللمحة الثالثة:

حرف العطف الذي جاء بين كل فعلين متجاورين في هذه الآيات..

ففي قوله تعالى: ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ وكذلك في قوله تعالى: ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ بالفاء عُطف يهدي على خلق، وعُطف يشفي على مرض.. والفاء هو المناسب بل الأنسب في الموضعين لأنَّ الفاء العاطفة تدل على الترتيب والتعقيب، والهداية لما ينفع النفس والبدن إنما تأتي بعد الخلق، والشفاء إنما يعقب المرض، وتعظم المنة بالعافية إنْ جاء الشفاء من غير تراخٍ ولا تأخير.

أما في قوله تعالى: ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾.. فقد عطف بالواو الإسقاء على الإطعام.. لأنَّ الواو لا تدل على الترتيب بل هي لمطلق الجمع ولا ترتيب في الإطعام والإسقاء فقد يتقدم هذا وقد يتقدم ذاك، وقد يجتمعان؟! لهذا كان الواو هو الأنسب للعطف بينهما.

أما في قوله تعالى: ﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾ فقد عطف بين الفعلين بثُمَّ.. وثُم تدل على الترتيب مع التراخي..

والإحياء يكون كذلك إذ يأتي بعد الموت بزمان ومهلة وتراخ.

وهكذا جاء في الآيات كل حرف عطف في موضعه الملائم، ومكانه الدقيق.. وكما قال الإمام ابن الأثير [في المثل السائر ٤٦/٢]: (كل شيء من الأفعال المذكورة قد عطف بما يناسبه ويقع موقع السَّداد منه.. وهذا موضع لطيف المأخذ، دقيق المغزى) قلتُ: وعلى المسلم أنْ يتأمَّل ذلك ويتدبَّر فيه عند تلاوة كتاب الله العزيز وعند الاستماع لآياته..

ثُم اعلمْ - أفادك الله وإياي - أنَّ [ثُمَّ] قد وردتْ في القرآن الكريم

[٣٣٨] ثلاثمائة وثماني وثلاثين مرة أولها في سورة البقرة ٢٨: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وآخرها في سورة التكاثر ٨/٧: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾. أما (الفاء) فقد وردت في القرآن الكريم [٢٩٨٧] ألفين وتسعمائة وسبعاً وثمانين مرة أولها في سورة البقرة ١٠: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ وآخرها في سورة النصر ٣: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ..﴾.

أما [الواو] فقد جاءت في القرآن الكريم [٩٤٦٤] تسعة آلاف وأربعمائة وأربعاً وستين مرة، أولها في سورة الفاتحة ٥: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وآخرها في سورة الناس ٦: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [انظر: معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم]. فلا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ.

اللمحة الرابعة والأخيرة..

في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ نجد أنه عليه السلام نسب المرض إلى نفسه، ونسب الشفاء إلى الله تعالى وقال: (وإذا مرضت) ولم يَقُل: (وإذا أمرضني) مع أنَّ الأفعال كلها من الله تعالى.. إلا أنَّ المرض مكروه، والشفاء محبوب.. لهذا أضاف إلى الله أشرف قسمي أفعاله؛ وذلك إجلالاً لله عزَّ وجلَّ، وتأدبًا معه سبحانه.. ولو تتبعنا القرآن الكريم بتأنٍ وتفهم لوجدنا أنَّ التعبير القرآني يسير على هذا النمط من الأدب الرفيع، وعلى هذه اللطافة من التعبير الدقيق..

ففي مقام التشريف والتكريم وأفعال النعمة والرحمة والإحسان تأتي الإضافة إلى الله العزيز الحكيم ويُسنَد الفعل إليه سبحانه. وفي مقام السوء والعيب وأفعال النقمة والعقوبة والإضلال يُسنَد الفعل إلى غير الله تعالى أو يؤتي بصيغة المبني للمجهول.. والشواهد على ذلك كثيرة جداً جداً.. وحسبي أنْ أذكر هنا بعضًا منها:

ففي سورة الفاتحة قال تعالى ٧: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهُم المسلمون المؤمنون وقال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ بالبناء للمفعول

وهم اليهود، وقال ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾ وهم النصارى. وفي سورة المائدة قال تعالى ٣: ﴿.. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا..﴾ وفي الإسراء قال تعالى ٨٣: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾.

وفي سورة الكهف قال تعالى ٧٩: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا..﴾ وفيها أيضًا قال تعالى ٨٢: ﴿.. فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾..

هذا وإذا جاء في القرآن الكريم ما ظاهره إهلاك أو عقوبة وأسند إلى الله عز وجل من مثل قوله تعالى في سورة التين ٥: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.. فاعلم أخي الكريم أن الإسناد قد جاء في موضعه المناسب بل الأنسب. إذ قال الله تعالى في هذه السورة ٤/٥: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾﴾ فالآيتان معاً تشهدان على أنّ البداية والنهاية، إنما هي بيد الله وحده، لا يشاركه فيها غيره.

ولو جاء التعبير بالبناء للمجهول: [ثم رُد أسفل سافلين] لتوهم بعضهم أن هناك أحداً غير الله، يرد إرادة الله، ويهدم ما بناه الله، ويفسد ما خلقه الله.. وحاشا أنّ يكون ذلك، ومعاذ الله أنّ يقع ذلك، فالله وحده هو القادر على ذلك في البدء والختام فمن أجل ذلك جاء الإسناد في الموضعين إلى الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾﴾. فسبحان الله العظيم منزل هذا القرآن الحكيم على قلب نبيه الكريم بلسان عربي مبين، ولم يجعل له عِوجاً ولن يجد أحد في تعبيره اعوجاجاً.

الجانب الخامس: تحطيم إبراهيم الأصنام:

لما لم يجد سيدنا إبراهيم عليه السلام جدوى مع عبدة الأصنام في استخدام أسلوب الحجة القولية وذلك عن طريق المناظرة والجدل العقلي.. أراد عليه السلام أن يقيم على قومه الوثنيين الحجة الفعلية، وذلك بتحطيم الأصنام ليريهم أنها لا تضر ولا تنفع، وأنها عاجزة عن أن تدفع عن نفسها

فضلاً عن غيرها شيئاً، وبهذا يقيم عليهم الدليل الحسي على بطلان عبادتهم، وتحيَّن إبراهيم الخليل الفرصة ليخلو بالأصنام فيكسّرها تكسيراً.. وواتت له المناسبة حين همَّ قومه بالخروج إلى عيدهم السنوي ظاهر المدينة يقضون عدة أيام في التسلية والترويح، وطلبوا من إبراهيم أنْ يرافقهم، وقال له آزر: لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا! فاعتذر إبراهيم لهم عن الخروج، وتظاهر بالسقم..

قال الله تعالى في سورة الصافات: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصافات].

وقوم إبراهيم كانوا يشتغلون بالتنجم، وينظرون في النجوم لتعينهم على التنبؤ بالمستقبل والمصير.. فجاءهم سيدنا إبراهيم بعذر من حيث يعتقدون..

قال الحسن البصري رحمه الله: فاضطجع إبراهيم على ظهره، وجعل ينظر في السماء وأوهم قومه بأنه رأى في طالعها بأنه مشرف على مرض مُعْدٍ وهو الطاعون.. وكان أغلب الأسقام عليهم.

وفي الحقيقة لم تكن بإبراهيم علة، ولكنه عليه السلام كان سقيم النفس من ضلالات قومه، وليس أيها الإخوة كسقم النفس سقم!!

وقول إبراهيم عليه السلام: (إني سقيم) ليس بكذب، وإنما هو من معاريض الكلام أي: إخراجه في معرضٍ غير لفظه وهو جائزٌ لمقصد شرعي وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: [إنَّ في المعاريض لمندوحةً عن الكذب].

فخاف القوم من أنْ تصيبهم العدوى، فتفرقوا عن إبراهيم (وتولوا مدبرين) أي: أعرضوا عنه موليِّن الأدبار، وتركوه وحيداً وخرجوا إلى عيدهم ولهوهم..

فرجع عليه السلام أدراجه نحو المكان الذي فيه أصنامهم، وهو عازمٌ على تحقيق ما نواه من تحطيم الأصنام وأخذ يُقْسم على ذلك.

قال تعالى في سورة الأنبياء ٥٧: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ أي: لأمكرنَّ بآلهتكم الأصنام ولأحتالنَّ في الإساءة إليها بعد

ذهابكم إلى عيدكم..

قيل: إنه عليه السلام قال ذلك خُفيةً في نفسه، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: [سمعه بعض القوم وهو يقول ذلك].

وفي تفسير الخازن ٣٣/٢٤١: [فسمعها رجلٌ فحفظها].

قال تعالى في سورة الصافات ٩١/٩٢: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾؟!

المعنى: فذهب إبراهيم إلى الأصنام مسرعاً مُستخفياً. وفي تفسير ابن كثير ٤/١٣: [أي: ذهب إلى آلهتهم في سرعةٍ واختفاءٍ بعدما خرج القوم].

وفي تفسير النسفي ٣/١٢٩. [مال إليهم سراً].

هذا وفي المفردات للراغب ص ٢١٣: [الروغ معناه: الميل على سبيل الاحتيال.. ومنه: راغ الثعلب يروغ روغاناً.. ومنه راغ فلانٌ إلى فلان بمعنى: مال نحوه لأمرٍ يريده منه بالاحتيال.

قال ابن كثير ٤/١٣: [قال السُّدِّي: دخل إبراهيم عليه السلام إلى بيت الآلهة - وقد أقفر حتى من كهنته وسدنته - فإذا هُم في بهوٍ عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنمٌ عظيم إلى جنبه أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو، وإذا القوم قد وضعوا بين أيدي الآلهة وتحت أقدامهم أنواعاً من الأطعمة قرباناً للآلهة - ولتُبرِّكه لهم فيأكلوه إذا رجعوا من عيدهم].

فلما نظر إبراهيم عليه السلام إلي ما بين أيدي الآلهة من طعام قال: (ألا تأكلون)؟

إخوتي الكرام: (ألا) بفتح الهمزة وتخفيف اللام قال عنها ابن يعيش [في شرح المفصل ٨/١١٥]: هي أداة تنبيه مركبة في الأصل من همزة الاستفهام ولا الثانية لإفادة توكيد مضمون الجملة، وقال أبو حيان [في البحر المحيط ١/٦٢]: ألا حرفٌ بسيط لأنَّ دعوى التركيب خلاف الأصل.

وقال ابن هشام [في مغنى اللبيب ١/٦٥]: ألا تأتي على خمسة أوجه،

وجاء في الإتقان ١/ ٤٨٠: ورد منها في القرآن الكريم ثلاثة أوجه هي:

الأول: التنبيه.. فتدل على تحقق ما بعدها ويسميها المعربون: حرف استفتاح وتدخل على الجملتين الاسمية والفعلية من ذلك قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿... أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩]. وقوله تعالى: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

الوجه الثاني: العرض.. وهو الطلب برفق ولين.. وهذه مُختصة بالجملة الفعلية التي فعلها مضارع كقوله تعالى: ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

الوجه الثالث: التحضيض وهو الطلب بحث وبشدة، وهذه مختصة بالمضارع أيضا كقوله تعالى: ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ..﴾ [التوبة: ١٣].

هذا وقد وردت (ألا) في كتاب الله العزيز - كما جاء في [معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم ص ٢٧] أربعاً وخمسين مرة.

الأولى منها في سورة البقرة قال تعالى ١٢: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ..﴾. والمرة الأخيرة منها في سورة المطففين قال تعالى ٤: ﴿أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾.

هذا وفي قول إبراهيم عليه السلام للأصنام التي يزعم قومه أنها آلهة: (ألا تأكلون) قال الشيخ عضيمة في [دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الأول ١/ ١٢٩]: [ألا هنا تحتمل أنْ تكون أداة عرض وتحضيض، وأنْ تكون الهمزة للإنكار ولا نافية). هذا ولما لم يجبه أحد منها قال عليه السلام: (ما لكم لا تنطقون)؟ وأنَّى للحجارة أنْ تنطق؟ وللخُشب المُسندة أنْ تعقل؟! جاء [في البحر ٧/ ٣٦٦]: وعرض إبراهيم الأكل عليها، واستفهامها عن النطق هو على سبيل الهزء لكونها منحطة عن رتبة عابديها إذ هم يأكلون وينطقون بخلافها.

[وفي تفسير النسفي ٣/ ١٢٩]:

وجمع بالواو والنون في (ألا تأكلون، لا تنطقون) لأنه خاطب الأصنام خطاب من يعقل.

أيها الإخوة الكرام وهذا السؤال التهكمي يكشف عن ضيق إبراهيم بجهالة قومه، وعن سخريته باعتقادهم الباطل إذ اتخذوا الجمادات آلهة من دون الله تعالى. واشتد انفعال إبراهيم وازداد غضبه: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]. أي: انهال على الأصنام ضرباً ولطماً بيده اليمنى.. قال البيضاوي ١٤٢/٢:

(وتقييده باليمين للدلالة على قوته، وقوة الآلة تستدعي قوة الفعل). وقال القرطبي ٩٤/١٥: (خُص الضرب باليمين لأنها أقوى والضرب بها أشد) وفي تفسير النسفي ١٢٩/٣: (ضرباً باليمين) أي ضارباً ضرباً شديداً قوياً لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما).

قال تعالى في الأنبياء ٥٨: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

فهذه الآية تُشير إلى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يكتف بضرب الأصنام بيده بل أخذ يحطمها وقد تناول فأساً وهوى به عليها يُكسِّرها ويحطم حجارتها حتى جعلها جذاذاً أي: فتاتاً.

وجذاذاً من جذ الشيء يجُذه جذاً بمعنى: كسَّره وفتَّته وقطَّعه.

قال ابن فارس [في المقاييس ٢٠٩/١]: الجيم والذال أصلٌ واحد إما كسَّر وإما قطّع يقال: جذذت الشيء: كسَّرته قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾. أي كسرهم، ويقال: جذذته أي: قطعته ومنه قوله تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] أي: غير مقطوع..

هذا وليس في القرآن الكريم من مادة (جذ) إلا هاتان الكلمتان [جُذاذاً ومجذوذ] في هاتين السورتين الأنبياء وهود.

وفي [المصباح المنير ص ٩٤]: ويقال لحجارة الذهب وغيره التي تكسر جُذاذاً وجِذاذاً بضم الجيم وكسرها..

وسيدنا إبراهيم أبقى على الصنم الكبير واسمه عند أهل بابل [مردك] كما جاء [في كتاب قصة الحضارة ٢/٢١١] وهو كبير آلهتهم.. فلم يحطمه بل تركه سليماً وعلق الفأس في عنقه لعل القوم إليه يرجعون فيسألون عمن كسر الأصنام فيقيم عليهم الحجة. [وفي تفسير القرطبي ١١/٢٩٨]: قال مجاهد رحمه الله: ترك الصنم الأكبر وعلق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ليحتج به عليهم.

ولما عاد القوم من عيدهم أسرعوا إلى معبدهم فذُهلوا من هول ما رأوا فقالوا على جهة البحث والإنكار والتشنيع والتوبيخ:

﴿ ... مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩].. أي: إنه لشديد الظلم عظيم الجرم لجراءته على الآلهة المستحقة للتعظيم والتوقير؟

قال تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

أي: قال بعض القوم إنا سمعنا فتًى شاباً يذكر الآلهة بالذم والعيب والسوء يسمى إبراهيم فلعله هو الذي حطم الأصنام!!

فقرر القوم الظالمون محاكمة هذا الفتى وعقابه والقصاص منه بمقدار ما ارتكب من وزر وجرم.. واستقر رأيهم على محاكمته على رؤوس الأشهاد حتى يثأروا للأصنام المهشمة، ويستردوا لها في نفوس الناس الهيبة والقداسة.. قال تعالى: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١].

أي قال حكام القوم وأشرافهم لجندهم وأعوانهم: ائتوا بهذا الفتى إبراهيم على مرأى ومسمع من الناس ليشهدوا عليه بمقالته وبما فعله، وليشاهدوا ما يصنع به من عقاب فتكون عقوبته عبرة لمن يعتبر..

الجانب السادس: محاكمة القوم إبراهيم عليه السلام:

جئ بإبراهيم إلى ساحة المحاكمة، وتقاطر الناس من كل صوب..

وكان اجتماعهم هذا أمنية إبراهيم التي جاشت في نفسه، وذلك ليناقشهم في قدرة الأصنام وحقيقتها، ويقيم لهم جميعاً الحجة على بطلان

ما يعتقدون، ويريهم البرهان على فساد ما هم عليه عاكفون..

وبدأت المحاكمة علناً.. قال الله تعالى في سورة الأنبياء ٦٢/٦٣:

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء].

هكذا بادره الحكام بالسؤال: أأنت فعلت هذا التحطيم والإساءة بآلهتنا يا إبراهيم؟

وكأنهم أرادوا منه الاعتراف ليوقعوا العقاب فوراً ومباشرة!!

غير أن إبراهيم عليه السلام وهو الحكيم الرشيد أجابهم بأسلوب حكيم لم يخطر على بالهم: (قال: بل فعله كبيرهم هذا)!!

جاء في [التسهيل لعلوم التنزيل ٢٤/٢]: (قصد إبراهيم بهذا القول تبكيت القوم وإقامة الحجة عليهم، كأنه يقول: إن كان هذا إلهاً فهو قادر أن يفعل، وإن لم يقدر فليس هو بإله، ولم يقصد إبراهيم الإخبار المحض).

وبهذا الجواب الذكي أفحم إبراهيم القوم، فهذا كبير الأصنام الماثل في مكانه سليماً هو الذي حطم بقية الأصنام، وكأنه غضب أن تعبدوا معه هذه الصغار فكسرها، ثم هذه الأصنام المحطمة شاهدٌ على فعله: (فاسألوهم إن كانوا ينطقون)!!

قال الإمام القرطبي ٢٩٨/١١:

[الكلام هنا خرج مخرج التعريض.. وذلك أنَّ القوم كانوا يعبدون الأصنام ويتخذونهم آلهة من دون الله، فقال لهم إبراهيم [بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم] ليقولوا: إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرون!! فيقول لهم: فلمَ تعبدونهم؟ فتقوم عليهم الحجة منهم].

وبهذا التعبير الدقيق وبهذه الحجة الدامغة صفع إبراهيم قومه صفعة نبهتهم من غفلتهم وأيقظتهم من غفوتهم وأثارت تفكيرهم: (فرجعوا إلى أنفسهم)..

أي: رجعوا إلى عقولهم التي عطلوها، وتفكروا بقلوبهم التي طمسوها..

وهنا أدركتهم الحيرة، وسُقط في أيديهم أمام حجة إبراهيم عليه السلام.. وأخذوا يتساءلون.. لماذا لم يسألوا المجني عليه عن الجاني؟ ولماذا بقي هذا الصنم الكبير سليماً لم يُمس؟ ولماذا لا يكون هو الفاعل وهو أكبر الأصنام؟ وأحس القوم في أنفسهم كأنهم ظلموا إبراهيم حين قالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فرجعوا إلى أنفسهم بالملامة: ﴿فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ أي على الحقيقة فقد ظلمتم أنفسكم في عبادة ما لا ينطق ولا يقدر على شيء..

وإنَّ من لا يدفع عن رأسه الفأس كيف يدفع عن عابده البأس؟!!

وهكذا أجرى الله تعالى الحق على لسانهم ولكنهم سرعان ما أدركتهم الشقاوة ورُدوا إلى الكفر بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم.. ورجعوا إلى ما استقر في عقائدهم الفاسدة.. قال تعالى:

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

وهذه الآية من اللطائف واللمحات الدقيقة في التعبير القرآني فالفعل [نكس] من باب نصر قال صاحب المقاييس [٥٨٢/٢]: النونُ والكافُ والسِّينُ أصلٌ يدل على قلب الشيء.

وجاء في اللسان [٢٤١/٦]: النكس: قلب الشيء على رأسه. نكسه ينكسه نكساً فانتكس وهو ناكس.. ونكس رأسه أي: أماله، ونكَّسه تنكيساً ونكس فلانٌ رأسه: إذا طأطأه من ذُل.

قال شمر: النكس في الأشياء معنًى يرجع إلى قلب الشيء وردِّه، وجعْل أعلاه أسفله، ومُقدَّمه مؤخَّره..

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: [تَعِسَ عَبْد الدينار وانتكس..] أي انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة؟ لأن من انتكس أمره فقد خاب وخسر والوِلاد المنكوس: أن تخرج رجلا المولود قبل رأسه لأنه مقلوب مخالف للعادة.

وقراءة القرآن منكوساً: أن يبدأ بالمعوذتين ثم يرتفع إلى البقرة.. قال ابن

مسعود رضي الله عنه: ذلك منكوس القلب، والسُّنة خلاف ذلك.

[وفي أساس البلاغة ٤٧٣]: ومن المجاز: نُكس مرضه.. قلتُ أي: عاوده المرض بعد مثالته للشفاء فكأنه قُلب إلى المرض.

ومادة نكس وردت في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع بثلاث صيغ هي:

الأولى على صيغة اسم الفاعل.[ناكس] وذلك في السجدة قال تعالى:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [السجدة: ١٢].

والثانية على صيغة المضارع المضعَّف [يُنكِّس] وذلك في سورة يس قال تعالى:

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٨].

والثالثة على صيغة الماضي المبنيِّ للمفعول نُكِس وذلك في سورة الأنبياء قال تعالى:

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

مع ملاحظة الفرق بين الواو في [ناكِسو] والواو في [نُكِسوا].. وذلك تبعاً للفرق بين الكلمتين [ناكس] وهي اسمٌ و[نكس] وهي فعلٌ..

فالواو مع الفعل واو جماعة وهي ضمير: متصل في محل رفع نائب فاعل [نُكِسُوا] ونرسم ألفاً بعدها، بينما الواو مع الاسم [ناكسو] هي علامة رفع لأنه جمع مذكر سالماً وأصله ناكسون حُذفت نونه للإضافة [ناكسو رُؤوسهم] والإضافة هنا لفظية للتخفيف ويجوز فيها ترك الإضافة فتُرَدُّ النون وينصب المفعول بعده [ناكِسون رؤُوسَهم].

ولو كانت الكلمة منصوبة نُصبت بالياء: نحو ترى المجرمين ناكسي رؤوسِهم أو ناكسين رؤوسَهم.

قال الفراء في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي: رجعوا عما عرفوا من الحُجة لإبراهيم عليه السلام.

وقال الغرناطيُّ [في التسهيل ٢/٢٥]: [ثم نكسوا على رؤوسهم] استعارةٌ لانقلابهم برجوعهم عن الاعتراف بالحق إلى الباطل والمعاندة، ويحتمل أنْ

يكون بمعنى رجُوعهم من المجادلة إلى الانقطاع، ويحتمل أن يكون على حقيقته أي: أطرقوا من الخجل لما قامت عليهم الحجة. قلت: وإذا تلوت أخي المسلم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ وأنت متذكِّرٌ الدلالات الحسية والمعنوية الواردة في النكس والانتكاس فسترى العجب في هذا التعبير القرآني إذ أنك ستبصر أقواماً انقبلوا على رؤوسهم وجعلوا أعلاهم أسفلهم ووضعوا هاماتهم موضع أقدامهم فظهروا في مظهر ساخر مزر لأنهم ركبوا رؤوسهم فانقلب إذعانهم إلى مكابرة وقالوا في لجاجهم وعنادهم:

(لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) والمعنى: علمت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تُجيب فكيف تأمرنا بسؤالهم؟

وهذا القول اعترافٌ من القوم بعجز الآلهة وأنهم لا ينطقون وهم مع ذلك يعبدونهم فهذه غاية الضلال في فعلهم.

عندئذ برزت حجة إبراهيم عليه السلام مُدوِّية مجلجلة تقرع الآذان وتفحم الألسنة بهذا الكلام البليغ وبهذا التوبيخ العنيف الوارد في سورة الصافات وفي سورة الأنبياء:

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات].

و ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء]؟!

والمعنى: أتعبدون أيها القوم أصناماً نحتموها بأيديكم من الخشب والحجارة، وشكلتموها كما تريدون والله خلقكم وخلق عملكم وخلق فيكم الاستعداد والقدرة على العمل كما أنه خلق المادة التي تعملون منها الأصنام فكيف تعبدون المخلوق وتتركون الخالق؟!

وهذه الأصنام جمادات لا تنفعكم إن عبدتموها، ولا تضركم إن لم تعبدوها.. ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

هذا وكلمة [أف] أيها الإخوة الكرام هي اسم فعل مضارع معناه: أتضجر وفي همزته لغتان الضم والكسر [أُف وإِف].

وفي فائه الكسر والفتح والضم منوَّنة وغير منونة.. فالتنوين لإرادة التنكير [أُفٌّ أُفاً أُفٌّ] أي: أتضجر تضجراً، وترْك التنوين لقصد التعريف: [أفِّ أفَّ أفُّ] أي: أتضجر التضجر المعلوم.

هذا وقد وردت كلمة [أُفٍّ] في كتاب الله العزيز ثلاث مرات:

الأولى في سورة الإسراء يوصي فيها الله تعالى الإنسان بوالديه قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ [الإسراء : ٢٣]

والمرة الثانية في سورة الأحقاف على لسان الولد الفاجر مع والديه المؤمنين قال تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ... ﴾ [الأحقاف : ١٧].

والمرة الثالثة في سورة الأنبياء على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه قال تعالى: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾. أي: تضجراً منكم وقبحاً لكم وكرهاً للأصنام التي تعبدونها من دون الله (أفلا تعقلون) وهكذا يصرخ إبراهيم الخليل في قومه مستثيراً ملكة العقل فيهم إن كان ثمة فيهم عقل أو كان فيهم رجلٌ رشيد.

فلما رأى القوم أنهم غُلبوا على أمرهم، وخافوا افتضاح حالهم عدلوا عن الجدل والمناظرة وعمدوا إلى البغي يستترون به هزيمتهم، ولجأوا إلى الانتقام يُخفون به باطلهم.

الجانب السابع: نجاة إبراهيم من نار قومه الوثنيين:

انتقام القوم الوثنيين من خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام جاء ذكره في ثلاث سور في كتاب الله العزيز وهي: العنكبوت، والأنبياء، والصافات.. وتلكم الآيات الواردة في ذلك:

أولا: في سورة العنكبوت. قال الله تعالى:

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢٤].

ثانيا: في سورة الأنبياء.. قال تعالى:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء].

ثالثا: في سورة الصافات.. قال تعالى:

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات].

أيها الإخوة الكرام بتأمل هذه الآيات الكريمات نجدها تكمل بعضها بعضاً.. إذ كل آية منها تذكر لنا جانباً جديداً من موضوع الانتقام ونتيجته..

فالآية الأولى في سورة العنكبوت هي: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾.. معناها فما كان رد قوم إبراهيم عليه حين دعاهم إلى الله تعالى ونهاهم عن عبادة الأصنام وحاجهم قبل تحطيمها وبعده إلا أن قالوا: ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ والقائل هو بعضهم لبعض، أو كبراؤهم المجرمون، أو واحدٌ منهم وكان الباقون راضين فكانوا جميعاً في حكم القائلين.

وفي [تفسير الكشاف] للزمخشري ١٢٥/٣: والذي أشار بإحراقه هو نُمروذ، أو رجلٌ من أكراد فارس.. وفي كتاب [مفحمات الأقران في مُبهمات القرآن] للسيوطي ص٧٣ هذا الرجل يُسمى (هيزان).

هذا وقد نُصبت كلمة [جواب] بعد (فما كان) لأنها خبر كان مقدم، واسم كان أُخِّر وهو المصدر المؤول من أن والفعل بعد (إلا) وهو (أن قالوا) والتقدير: قولهم.

قالوا: (اقتلوه) أي اقتلوا إبراهيم لتستريحوا منه، ثم كأنهم أحسوا في أنفسهم الخبيثة أن القتل لا يكفي في الانتقام منه ولا يشفي صدورهم الحاقدة فقالوا: (أو حرِّقوه) أي أحرقوا إبراهيم بالنار لأنها أهول ما يعاقب به وأفظع - كما ذكر الإمام النسفي٤١١/٢.

قلت.. وانظر أخي المسلم كيف استخدم التعبير القرآني في القتل الفعل (اقتلوه) ولم يقل: قتِّلوه.. بينما استعمل في الإحراق الفعل (حرِّقوه)

ولم يقل: أحرقوه..

وذلك - والله أعلم - ليصوِّر شدة حقدهم على إبراهيم وشدة حرصهم على المبالغة في تعذيبه إذ أنَّ تكرار العين في (فعّل) دليلٌ على تكرير الحدث.. كما قرر الإمام ابن جني في الخصائص ٢/١٥٥. وجاء في المصباح المنير ١٣١: حرّق تحريقاً: إذا أكثر الإحراق.

وكأن القوم الوثنيين رأوا أنَّ القتل سيُخلِّص على إبراهيم بسرعة، ويزهق روحه مرةً واحدة، أما الإحراق فإنه سيعذبه تعذيباً، ويشوي جسده شياً، واضطرام النيران في جسده قد يشفي بعض حقدهم المستعر، وقد ينفِّس عن غضبهم المكتوم على إبراهيم.. لهذا اقترحوا في الآية الأولى مع القتل الإحراق ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾..

ثم اختاروا الإحراق وحده وأفصحوا عن سبب اختياره وذلك في الآية الثانية وهي في سورة الأنبياء: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾..

إذن اختاروا الإحراق وهو أهول المعاقبات لإبراهيم لا للانتقام منه فحسب بل لأن فيه نصراً مؤزراً لآلهتهم المزعومة والتي قد أذلها وأهانها إبراهيم.. وهم يقولون لبعضهم: ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: إنْ كنتم ناصرين لآلهتكم وإلا تحرقوه فقد فرطتم في نُصرتها.. وبعد هذا الاختيار الجائر.. نرى القوم الحاقدين كأنهم لم يُرضهم أنْ يحرقوا إبراهيم بنارٍ تلتهم جسده فحسب بل أملى عليهم طغيانهم أنْ يجعلوها جحيماً مستعراً وذلك مبالغةً في الانتصار وإمعاناً في الانتقام.. وهذا ما أشارت إليه الآية الثالثة وهي في سورة الصافات: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾.. والجحيم - والعياذ بالله - هي كل نارٍ بعضها فوق بعض.. وفي [المفردات في غريب القرآن] للراغب ص ٩٥:

الجحمة هي: شدة تأجج النار، ومنه الجحيم.. لشدة حراراتها وتأجج نيرانها.. وهكذا قرروا - لا أقرَّ الله أعينهم - أنْ يصلوه جحيماً حامية تعادل لظى الحقد المتأجج في صدورهم.. وجاء في الكشاف ٣/١٢٥:

أنهم حين هموا بإحراق إبراهيم عليه السلام حبسوه، ثم بنَوا بيتاً كالحظيرة في كَوْثى (وهذه في سواد العراق في أرض بابل) وجمعوا شهراً أصناف الخشب الصِّلاب برًّا بمعبوداتهم حتى إنَّ المرأة لتمرض فتقول: إنْ عوفيت لأجمعنَّ حطباً لحرق إبراهيم.. ثم أشعلوا ناراً عظيمة كادت الطير تحترق في الجو مِن وهجها.. ثم وضعوا إبراهيم في كفَّة المنجنيق مقيداً موثوقاً فرموه في تلك النار.

وفي قصص الأنبياء للإمام ابن كثير ص ١١٧: المنجنيق صنعه لهم رجلٌ من الأكراد يُقال له: «هَيْزَن» وكان أول من صنع المنجنيق فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

وفي تفسير الإمام النسفي ٣/ ١٣٠: وكان البنيان مِن حجر وطوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً..

وهكذا أخي المسلم ترى أنَّ القوم الظالمين اقترحوا في آية سورة العنكبوت القتل أو الإحراق انتقاماً من إبراهيم عليه السلام، وفي آية سورة الأنبياء اختاروا الإحراق بالنار انتصاراً لآلهتهم، وفي آية سورة الصافات جعلوا النار جحيماً.. ومِن هولها لم يستطيعوا الاقتراب منها، ومِن عُلوِّ بنيانها اضطروا إلى قذف إبراهيم فيها مِن عَنْ بُعْد. فكل آية تصوِّر جانباً وتضيف مزيداً.. فما أعظم هذا القرآن! إنه كما قال عنه الله جلَّ جلاله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وأعود بك أخي الكريم إلى الآية الأولى في سورة العنكبوت لنسمع معاً بشارة الله العزيز الحكيم لنبيه إبراهيم الكريم قال تعالى: ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ فحمداً لله تعالى نصَر دينه وأنْجى نبيه.. وانظر ياأخي - فتح الله عليك وعليَّ - كيف أنَّ الفعل هنا جاء متعدياً بالهمزة [أنجاه] فهو على وزْن أفعل وهذا الوزن هو أصل في هذا الباب كما قال صاحب كتاب: [دُرَّة التنزيل وغرة التأويل] ص٨٤ ولم يأت الفعل على وزن [فعَّل] [نَجَّاه].. وذلك - والله أعلم - لأنَّ الفاعل هنا وقد صرِّح به هو الله القوي المتين وهو العزيز

الذي لا يُغلب.. فلم يكن حاجةٌ هنا إلى صيغة تدلُّ على المغالبة أو التكثير لهذا جاء التعبير: (فأنجاه الله) فياسبحان الله؟! ولكن كيف كان الإنجاءُ؟ وكيف نجا سيدنا إبراهيم من الجحيم؟

الجواب جاء في الآية الثانية في سورة الأنبياء قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.. قال الإمام ابن كثير في تفسيره ٣/١٨٤: لما جعلوا يوثقون إبراهيم قال: لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد، ولك الملك لا شريك لك.. وذكر بعض السلف: لما ألقوه إلى النار عرض له جبريل عليه السلام وهو في الهواء فقال: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى.

وفي تفسير الكشاف ٣/١٢٦: قال جبريل: فَسَلْ ربَّك.. قال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار قال: حسبي الله ونعم الوكيل..

فكان عليه السلام واثقاً بنصر الله تعالى، موقناً بأن الله الإله الحق معه فكيف يخاف أو يحزن؟! فأنجاه الله من لظى النار وإحراقها وجعلها عليه برداً وسلاماً: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه: أي ياناار لا تضُرِّي إبراهيم.. [قصص الأنبياء لابن كثير ١١٨] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لو لم يقل الله تعالى (وسلاماً) لأهلكته ببردها.. وهذا احترازٌ عند البلاغيين.

فالمعنى: ياناارُ كوني ذات برد وسلام، ولكن العبارة جاءت ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ وذلك للمبالغة في ذلك فكأن النار ذاتها بردٌ وسلام..

ورُوي أن النار لم تحرق من إبراهيم عليه السلام سوى وثاقه.. وقال الضحاك: رُوي أن جبريل عليه السلام كان مع إبراهيم يمسح العرق عن وجهه ولم يُصبه شئٌ من النار غيره فكان عليه السلام في النار ولم يحترق فسبحان الله العظيم الذي نزع بقدرته من النار طبعها الذي طبعها عليه من

الحرّ والإحراق وأبقاها على الإضاءة والاشتعال كما كانت وهو على كل شئ قدير.. والنار خلقٌ من خلق الله تعالى لا تعصي أمره، وقد أمرها سبحانه أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم فكانت كما أراد جل جلاله، وسلم خليل الرحمن من نارهم.. ورُوي أنه عليه السلام مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوماً حوله النيران وهو في روضة خضراء.. وأنه قال: ما كانت أياماً وليالي أطيب عيشاً إذ كنت فيها. صلواتُ ربي وسلامه عليه.

هذا وكان من الممكن أيها الإخوة المسلمون أن يختفي سيدنا إبراهيم عن قومه في أيّ مكان ولا يظهر وبهذا ينجو من نارهم.

كما كان من الممكن أيضاً أن ينزل المطر من السماء يومها فتنطفئ النار ويسلم إبراهيم منها.. ولكن لم يحدث هذا ولم يحدث ذاك..

وذلك لأنه لو اختفى ابراهيم لقال قومه الكفار: لو أننا قبضنا على إبراهيم لأحرقناه في النار ولدمرته آلهتنا!!

ولأنه لو انطفأت النار.. لقالوا لو أن السماء لم تمطر لانتقمت آلهتنا من إبراهيم بحرقه! لكن الله سبحانه وتعالى أيها الإخوة شاء أن تبقى النار مُتأججة، وأن يُؤخذ إبراهيم عياناً أمام الناس ويُرمَى به في النار المُشتعلة فلا يحترق إذ عطّل الله القوي العزيز قانون إحراق النار.. فظهرت المعجزة الإلهية في حفظ الله تعالى لعبده ورسوله عليه السلام، وشهد القوم بُطلان معتقداتهم.. وبقيت آلهتهم التي أرادوا نصرتها والانتقام لها بقيت عاجزة عن أن تمس إبراهيم بسوء وهو الذي حطمها وأهانها وكادها وأذلها.. وأراد القوم أن يكيدوا به فخَسروا وسَفُلوا قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]. وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨]. أي: أراد قوم إبراهيم به المكر، واحتالوا لإهلاكه فأنجاه الله من النار، ورد كيدهم في نحورهم وكبتهم وأذلهم فجلعهم الأخسرين وجعلهم الأسفلين لأنهم أرادوا أن ينتصروا فخُذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتَّضعوا، وأرادوا أن يغلبوا فغُلبوا وانقلبوا

خاسرين سافلين..

أخي المسلم، ولاحظ كيف أن التعبير القرآني الدقيق استخدم كلمة (الأخسرين) في آية سورة الأنبياء على حين استعمل كلمة (الأسفلين) في سورة الصافات..

والسر اللطيف في ذلك - والله أدري وأعلم - هو كما جاء في كتاب: [أسرار التكرار في القرآن] لتاج القراء الكرماني ص١٤٢، وفي كتاب: [ملاك التأويل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل] لأبي جعفر الغرناطي ٨٤١/٢..

وخلاصة القول: أن في سورة الأنبياء ورد تحدِّي إبراهيم قومه بالكيد لأصنامهم بقوله: ﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم.. ﴾ [الأنبياء: ٥٧] فقابل قومه هذا التحدي بمثله فأرادوا كيده بإحراقه انتقاماً منه ونصرة لآلهتهم.. إذن في السورة هذه جرت مكايدةٌ بين إبراهيم وقومه.. فكانت الغلبة لإبراهيم عليه السلام..

إذ انتصر عليهم بتحطيم الأصنام وبالنجاة من النار..

وكانت الخسارة لقومه إذ خسروا أصنامهم ولم يحققوا مرادهم، لذا جاء التعبير في هذه السورة: ﴿ **فجعلناهم الأخسرين** ﴾ وكان مناسباً لسياق الآيات.

أما في سورة الصافات فقد ورد فيها أن القوم بنوا لإبراهيم بنياناً عالياً، ورفعوا إبراهيم فوق ورموه إلى أسفل حيث النار المتأججة.. فأنجاه الله ورفعه وجعلهم الأسفلين في الدنيا، وسيردهم في الآخرة أسفل سافلين.

فكان التعبير المناسب في هذه السورة هو ﴿ **فجعلناهم الأسفلين** ﴾ وجاء في المكان المناسب فما أعظم هذا القرآن! وما أدق التعبير القرآني وما ألطف اللمحات اللغوية في القرآن!!

هذا و(الأخسرين) و(الأسفلين) هما أفعل تفضيل من خاسر وسافل أي أكثر خسارة وأكثر سفولاً. والخاسر.. من خَسِرَ يخسَر.. خَسْراً وخُسْراً وخسارةً وخُسراناً أي: غُبِن في تجارته وانتقص ماله فيها..

وخَسَر يخسِر من باب ضرب لغةٌ فيه.

والخُسر يُنسب إلى الإنسان فيقال: خَسر فلان، ويُنسب إلى الفعل فيقال: خَسِرت تجارته.. ويستعمل الخُسر في المقتنيات الخارجية الدنيوية كالمال والجاه كما يستعمل في المقتنيات النفسية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب..

وكل خسرانٍ مذكورٍ في القرآن الكريم فهو على المعنى الأخير..

والخاسر جمعه خاسرون، والأخسر يجمع على الأخسرين..

وكلمة (الأخسرين) وردت في كتاب الله العزيز أربع مرات في [هود والنمل والكهف والأنبياء]. قال تعالى: ﴿ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾ [هود : ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾ [النمل : ٥].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾ [الكهف : ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٠].

أما السافل فهو من: سَفَلَ يَسفُلُ سُفُولاً وسَفَالاً وسُفَالةً وهو: ضد علا يعلو عُلواً.. وسَفُل يَسْفُل من باب قَرُب لُغةٌ فيه.

والسُّفْلُ: خلاف العُلُوِّ، والأسفلُ: خلاف الأعلى.

وتَسَفَّل أي: انْحَطَّ ومنه قيل للأراذل والأنذال والدُّون من الناس: سَفِلَةٌ وسِفْلَة.

هذا وقد وردت كلمة [الأسفلين] في القرآن الكريم مرتين..

في الصافات ٩٨ قال تعالى: ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾.

وفي فصلت ٢٩ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴾.

هذا ولو عُدنا أيها الإخوة الكرام إلى الآيات الثلاث التي ذكر فيها الانتقام من سيدنا إبراهيم عليه السلام نجدُ أن آية سورة العنكبوت قد خُتمت بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي فيما فعل إبراهيم

من الدعوة إلى الله وفيما فعل قوم إبراهيم به من تكذيب وانتقام وإلقاء في النار، وفيما فعل الله بخليله من نصر وتأييد وإنجاء من النار لآيات.. أي: دلائل قويةً وبراهين ساطعة على قُدرة الله الكاملة، وصِدق وعدِه لقومٍ يؤمنون به ويُصدقون بوجوده وعظمته من ذلك اليوم وإلى يوم القيامة فكل مؤمن في كل زمان ومكان داخلٌ في كلمة (لقومٍ يؤمنون)..

ولكل منهم زادٌ كبيرٌ من الثقة بالله تعالى والاطمئنان إلى وعده بنصر رُسُلِه والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد..

ولكل منهم آيةٌ بينةٌ في أحداث قصة إبراهيم عليه السلام المتعددة الجوانب.

ولهذا التعدد في أحداث القصة، ولهذا العدد غير المُتناهي الداخل في القوم المؤمنين جُمعت كلمة [آية] في ختام هذه الآية الكريمة فجاء التعبير: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ولم يأت (إن في ذلك لآيةً)..

فسبحان الله العظيم مُنزل هذا القرآن الحكيم على قلب نبيه الكريم بلسانٍ عربي مُبين!

هذا وفي القرآن الكريم جاءت كلمة [آية] مفردة ستا وثمانين مرة.. بينما جاءت كلمة [آياتٍ] مجموعة مائتين وخمساً وتسعين مرة مجردةً ومضافة.

أيها الإخوة المسلمون.. لقد كان إنجاءُ الله تعالى لإبراهيم من تلك النار الجحيم كان خليقاً بأن يغمر بالإيمان قلوب جميع المشاهدين إلا أن قلوبهم والعياذ بالله قد فسدت فطرتها، وطُمست بصيرتها، وقست فهي كالحجارة أو أشد قسوة..

وكل ما كان لذلك المشهد العجيب في نفوس الكافرين أن صرفهم عن الانتقام من إبراهيم عليه السلام وأيأسهم من شأنه.. وظلوا على كفرهم قائمين، منهم من آثر نعيم الحياة الزائل، ومنهم من خاف أذى الكبراء المجرمين ولم يؤمن بإبراهيم إلا نفرٌ قليلٌ كان أولهم لوط وهو ابن أخي

إبراهيم عليهما السلام قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ..﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وخرج سيدنا إبراهيم عليه السلام من النار سليماً معافًى وهو يقول لقومه الوثنيين ما قاله الله تعالى في هذه السورة على لسانه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فيومَ القيامة تَبْرأ الأصنام من عُبادها، ويتلاعن الكفار يلعن بعضهم بعضاً الأتباع والقادة، وستكون النار الموقدة مأواهم جميعاً العابد والمعبود، والتابع والمتبوع وليس لهم هنالك ناصرٌ ولا شفيع.

هذا وقال إبراهيم عليه السلام أيضاً: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهو يمنعني من أعدائي وهو حكيم لا يأمرني إلا بخير.

وقبل أنْ يُهاجر من أرض العراق إلي برِّية الشام كان له عليه السلام موقفٌ إيمانيٌّ عجيب مع ملك بابل الذي حاجَّ إبراهيم في ربه.. وقال لإبراهيم أنا أُحيي وأُميت فحاجَّه إبراهيم وبهَته وأفحمه.

الجانب الثامن: مناظرة إبراهيم مع الذي حاجه في ربه..

القرآن الكريم قص علينا المناظرة الإيمانية العجيبة في آيةٍ واحدةٍ في سورة البقرة.. قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. [ألم تر] الخطاب موجه لرسول ﷺ الذي أُنزل عليه هذا القرآن الكريم.. ثم يشمل الخطاب كُلَّ مَن يتأتي منه الخطاب.

والهمزة في [ألم] للاستفهام التقريري، و[لم] حرفُ نفي وجزْم وقلْب.. تقلب زمن المضارع إلى الماضي، و[تَرَ] فعلٌ مضارعٌ، وعلامه جزمه حذف حرف العلة، فأصله [ترى].

والمعنى: ألم تعلم يامحمد علماً يقينياً كأنه مشاهدٌ بالعين، فالرؤية هنا رؤية قلب.. وما يُخبرك به الله تعالى فهو صدقٌ وحق، وكأنك تراه.. وربما تخدعُ العينُ صاحبها لكن الله سبحانه لا يخدعك فيما يُخبرُك، وأنت يامحمد تسمعه فكأنك تراه وتعلمه، بل هو أقوى مما تراه العين..

لهذا اتفق المفسرون على أن كل [ألم تر] في كتاب الله العزيز فهي بمعنى ألم تعلم؟!؟

أيها الإخوة الكرام هذا وفي القرآن الكريم ورد هذا التركيب: [ألم تر] إحدى وثلاثين مرةً، في سبع عشرة سورة.. المرة الأولى منها جاءت في سورة البقرة قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ...﴾ [البقرة: ٢٤٣].

والمرة الأخيرة منها وردت في أول سورة الفيل قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١].

وخمسٌ مرات منها جاءت في سورة النساء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ حاجَّهُ مُحَاجَّةً وحِجَاجاً: معناه: جادله ونازعه الحُجة.. ويقالُ: حَجَّه يَحُجُّه حَجاً: إذا غلبه في الحُجة وفي الحديث (فحج آدم موسى عليهما السلام) والحُجَّةُ هي: الدليل والبرهان، والجمع: حُجَج، مثل: غُرفَة وغُرَف. والفعل [حاجّ] إذا أُسند إلى ضمير المتكلم فكَّ إدغامه فيقال: حاججتُ فلاناً حتى حججتُه أي: غلبته بالحُجج التي أدليت بها.. فأنا مُحاجُّهُ وحجيجه.. وفي حديث الدَّجال قال ﷺ: [إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه] أي مُحاجُّه ومُغالبُهُ بإظهار الحُجة عليه.

هذا والضمير في [ربِّه]: يعود على الأرجح إلى إبراهيم عليه السلام.. ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾.. والمعنى: لأن آتاه المُلك أي بسبب إيتاء الله له الملك..

تقول: آتى يُؤتي إيتاءً أي: أعطى يُعطي إعطاءً..

وقولك: آتى الزكاة أي: أدَّاها، وآتى فلانٌ فلاناً على أمره أي: وافقه وفي القرآن الكريم خُصَّ دفع الصدقة بالإيتاء لا بالإعطاء.. من ذلك قوله تعالى:

﴿ ... وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ... ﴾ [البقرة: ٢٧٧]. وقوله تعالى: ﴿ .. فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴾ [المجادلة: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ..﴾ [النور: ٣٧].

هذا وأجمع المفسرون وعلماء النسب والأخبار على أنَّ الملك الذي حاجَّ إبراهيم في ربه هو: النُّمرُوذ بن كنعان ويُروى بالدال أيضاً مع ضم النون: النُّمرود.. وكان ملك أرض بابل، وكان أحد ملوك الدنيا..

ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله [التفسير ٣١٣/١ وقصص الأنبياء ١٢٠] وقد ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعةٌ.. ملكان مؤمنان، وملكان كافران.. أما المؤمنان: فهما نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام، وذو القرنين المذكور في سورة الكهف أما الكافران.. فالنُّمرُوذ وبُختنصَّر..

وذُكر أنَّ نُمروذ هذا استمر مُلكُهُ أربعمائة سنة، وقد طغى وبغى وتجبر وعتى، وآثر الحياة الدنيا وادَّعى لنفسه الربوبية والألوهية فقابل الإحسان بالطغيان وحاج إبراهيم في ربه.. ففي ذكر قصته تعجيبٌ لرسول الله ﷺ وتسليةٌ له عما يلقاه من قومه الطغاة المعاندين.

فهذا النُّمرُوذ عندما بلغته دعوة إبراهيم عليه السلام القائمة على عبادة الله وحده ونبذ أي معبودٍ دون الله، ولما سمع النُّمرُوذ ورأى كيف أنَّ الله تعالى نجَّا إبراهيم من النار طغى هذا النمروذ طغيانه وزاد بُهتانه.. فدعا إبراهيم إليه، فلما حضر عليه السلام بين يديه، صَوَّب النمروذ نظرةً ماكرةً إليه، وقال له في خُبث: ما هذه الفتنة التي أيقظتها في البلد يا إبراهيم، وما هذا الإله الذي تدعو إليه؟ وهل تعرف ربًا غيري؟ وإلهاً يستحق العبادة دوني؟ وهل تجد أحداً خارجاً عليَّ؟ فلماذا خرجت أنت على إجماع الناس؟ وانتقضتَ معبوداتهم؟!!

مَن ربُّك يا إبراهيم؟ وما الدليل على وجوده؟!

وفي ثبات جَنَان، وطلاقة لسان، أجابه خليل الرحمن عليه السلام:

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو وحده الذي يمنح الحياة ويسلبها، وينشئ الخلق ويميتهم..

فغضب النمروذ وأخذته العزة بالإثم فاغتر وكابر، وبالباطل ناظر وقال: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أي أنا الملك بعفوي عمن أشاء ممن وجب عليه القتل أكون قد أحييته؟! وأنا الملك بأمري بتنفيذ القتل فيمن أشاء ممن حكم عليه بالإعدام أكون قد أمته!! فلم يأت ربُّك يا إبراهيم بدعاً ولم يفعل عجباً (فأنا أُحيي وأُميت) أيضاً..

قال السُّدِّي رحمه الله وغيره: أُوتي النمروذ برجلين [أي من السجن] قد استحقا القتل.. فأمر بقتل أحدهما فقُتل، وحكم بالعفو على الآخر فلم يُقتل فذلك معنى الإحياء والإماتة عند هذا الملك الطاغية..!

أيها الإخوة الكرام ولاشك أن قول الملك خطأٌ وكَذِب، ومُغالطة وافتراء.. وأن فعلته هذه سخافةٌ وحماقةٌ، وجهلٌ وغباء.. وذلك لأن الإحياء الحقيقي لا يكون إلا بإيجاد حيٍّ من عدم أو إحياء ميتٍ بعد موته أو قتله.. ولأن الموت الحقيقي لا يكون بهدم حياة الحي، بل بخروج الروح من الجسد حين حُلُول الأجل والنمروذ المغالط قد ترك أحد الرجلين على حياته فهو حيٌّ أساساً ولم يُحيه، وقد أعدم الرجل الآخر وهدم حياته فلم يُمته بل قتله، وشتان أيها الإخوان بين الإحياء والاستحياء، وشتان ما بين الموت والقتل؟!

فالإحياء والإماتة من خصائص قُدرة الله تعالى دون منازع.. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [التوبة: ١١٦]. وقال تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦].

ولما رأى إبراهيم الخليل عليه السلام المُراوغة والخداع من هذا الملك النمروذ، اختار عليه السلام في المناظرة والمحاجاة طريقاً آخر أجدى وأردع، وأشدَّ إفحاماً للخصم وألجم، فقال ما قاله الله على لسانه في هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾..

والمعنى: إذا كنت يانُمروذ تدَّعي الأُلوهية أنك تحيي وتميت وأنك قادر

كقدرة ربي الحق جل جلاله.. فانظر فوقك هذه الشمس قد سخرها ربي الله، وهو سبحانه يأتي بها كل يوم من المشرق بأمره ومشيئته.. فإنْ كنت كما زعمت فغيِّر هذا النظام، وأطلع الشمس من المغرب بأمرك وسُلطانك ولو مرة واحدة فإنْ لم تستطع ولن تستطيع فاعلم أنك كاذبٌ فيما تقول، وأنت أعجز مما تتوهم.. قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي: أُخرس النمروذ الكافر، ودهش وأُفحم، ولم يحر جواباً، وانقطعت حُجته الواهية، أمام حجة إبراهيم القاطعة البالغة.. وهكذا جلجل صوت الحق، وخفَت صوت الباطل (فالحق أبلج، والباطل لجلج).. إخوتي المسلمين: والفعل (بُهت) مبنيٌّ للمفعول وفعله اللازم: بَهُت يَبهُت، وبَهِتَ يَبْهَتُ فهو من بابي قرب وتَعِب، ومعناه دَهِشَ وسكت وتحير ولم يجد جواباً..

قال الشاعر العُذري:

فما هو إلاَّ أنْ أراها فُجاءةً ❖ فأبهت حتى ما أكاد أُجيب

وهذا الفعل بهت يتعدى بالحركة، فيقال: بهَته يبهَته بفتح عينه في الماضي والمضارع أي: أخذه بغتةً (مثل فتح يفتح).. قال الله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٤٠].

أي: بل تأتيهم الساعة فجأة فتدهشهم وتُحيرهم..

وهكذا النمروذ فجأه سيدنا إبراهيم عليه السلام بهذه الحُجة فبهته وظل مبهوتاً ساكتاً، وما ظلمه الله ولكن هو الذي ظلم نفسه، فكان من الظالمين قال تعالى في ختام هذه الآية: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾أي: لا يوفقهم ولا يلهمهم حُجة صحيحة ولا بُرهاناً قوياً في مقام الحوار والمناظرة بخلاف أوليائه المتقين وأنبيائه المرسلين ولم يهتد الملك الظالم أنْ يقول لإبراهيم عليه السلام مثلاً:

فليأت ربُك بالشمس من المغرب إنْ كان قادراً!! وذلك لأنَّ النُّمروذ كان يدَّعي الربوبية لنفسه ولا يعترف بالربوبية لغيره.. فبُهت وبان ضلاله وبهتانه، وخاف على مُلكه إنْ هو أعلن لإبراهيم العداء.. فخلى سبيله وتركه

يُهاجر إلى حيث شاء بل إلى حيث أمره الله.. وسلط الله بعد ذلك على الملك وجيشه جُنداً من جنده تعالى وأدخل بعوضة في منخريه وعذبه الله بها مُدَّةً طويلة حتى كان الأبعد يضرب رأسه بالمرازب حتى أهلكه الله عز وجلّ بها..

﴿.. وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ..﴾ [المدثر: ٣١] ﴿.. وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] صدق الله العظيم.

الجانب التاسع: مناظرة إبراهيم عليه السلام لعبدة الكواكب:

بعد أن أنجا الله تعالى خليله عليه السلام من النار التي ألقاه فيها قومه الوثنيون، وبعد أن نصره الله عز وجل على الملك النمروذ الذي ادعى لنفسه الربوبية والألوهية، وبعد أن تيقن الخليل أن أرض بابل غير صالحة لدعوة التوحيد، وأنه لم يؤمن معه إلا نفر قليل منهم. لوط عليه السلام وهو ابن أخيه هاران..

بعد كل هذا عزم إبراهيم عليه السلام على الهجرة من سواد العراق إلى أرض الشام نجاة من الاضطهاد، وبحثاً عن بيئة جديدة للإيمان، وابتغاء إظهار الدين الصحيح، والتمكن من نشره.. فهي إذاً هجرة في العقيدة وفي سبيل الله.

قال تعالى في سورة العنكبوت:

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقال تعالى في سورة الصافات:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

وقال تعالى في سورة الأنبياء:

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

و(لوط) هذا آمن لإبراهيم بعد أن رأى المعجزة في نجاته من النار الهائلة، (وقال).. القائل على الأرجح هو إبراهيم عليه السلام؛ ولذلك يقف القارئ على [لوط] وقفاً لازماً ثم يستأنف: (وقال إني مهاجر) أي: تارك لقومي وخارج من بلدي، وذاهب [إلى ربي] أي: حيث أمرني ربي وأذن [إنه

هو العزيز] الذي لا يُغلب وهو يمنعني من أعدائي، وهو [الحكيم] في أقواله وأفعاله وأحكامه، فلا يأمرني إلا بما هو خير وهو سبحانه سيرشدني ويوفقني.

ونجّى الله تبارك وتعالى نبيه إبراهيم ولوطاً عليهما السلام من الكفرة الطغاة، ومن أرضهم الخبيثة إلى حرّان بأرض الشام التي بارك الله فيها للعالمين بالخصب وكثرة الأنبياء، فانتشرت في العالمين آثارهم الدينية ودعواتهم الإيمانية. [وفي تفسير القرطبي ٩٧/١٥]: قال مقاتل: إبراهيم هو أول من هاجر من الخَلق إلى أرض الشام. وقال الإمام ابن الجوزي في [زاد المسير ٣٦٨/٥]: وبركة أرض الشام أن الله عز وجل بعث أكثر الأنبياء منها، وأكثر فيها الخِصب والأنهار ولكن أهل الشام كانوا في ضلال.

قال الإمام ابن كثير [في البداية والنهاية وفي قصص الأنبياء ص ١٠٩]:

وكانت الشام أرضًا لكلدانيين في ذلك الزمان، وكانوا يعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال، وكان على كل بابٍ من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكلٌ لكوكب منها ويعملون لها أعياداً وقرابين، وهكذا كان أهل حرّان يعبدون الكواكب والأصنام، وفي تلك الفترة كل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل، وامرأته سارّة، وابن أخيه لوط عليهم السلام.

فوقف: نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام مرةً أخرى في حرّان الشام يدعو إلى عبادة الله وحده، ونبذ كل ما سواه.

واختار عليه السلام في هذه المرة سبيل العقل والحجة، والاستدلال المنطقي في مُناظرة القوم عبدة الكواكب، وكانت مناظرته عجيبة.. قصها علينا القرآن الكريم في سورة الأنعام.. قال الله تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ

﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام].

أيها الإخوة المسلمون.. عجيبٌ هذا الأسلوب الحكيم، وهذا الكلام القويم الذي يُظهر سيدنا إبراهيم عليه السلام وكأنه يُحاكي القوم في اعتقادهم، ولا يعلن مخالفتهم، ولا يُسفه أحلامهم..

بل نراه عليه السلام يستدرجهم إلى التفكير فيما يعبدون، ويترقى معهم من معبودٍ إلى آخر أعظم منه وأروع،،

فمالَ مَن معه من القوم إليه، وأنصتوا لقوله ثلاث مرات: (هذا رَبِّي) (هذا ربي) (هذا ربي هذا أكبر) وهو يُشير مرةً إلى الكوكب، ومرةً إلى القمر، وثالثةً إلى الشمس ولكننا نراه عليه السلام في كل مرةٍ يكشف لهم عيباً في هذه الأرباب التي تغيب.. فهي لا تصلح أن تُعبد..

وعن طريق خَفيٍّ ينتقض عليه السلام للقوم في كل مرة ما قاله عن كل كوكب، ويقرر أنّ كُلاً من الكوكب والقمر والشمس لا يمكن أنْ يكون إلهاً ولا رباً ولا يصلح أن يُعبد مع الله عز وجل. وفي ختام المناظرة يُعلنُ الخليلُ عليه السلام أنه بريءٌ مما يشركون ويقرر عليه السلام أنه لن يُوجه وجهه ولن يتوجه بالعبادة إلا إلى الله وحده الذي فطر السموات والأرض، فهو الدائم الباقي بلا زوالٍ لا إله إلا هو، ولا رب سواه ولا شريك له.

فحذار حذار أيها المسلمون الأكارم أن يظن ظانٌ أنّ سيدنا إبراهيم عليه السلام كان في حيرة من أمره، أو في شك في ربه!!

وكيف تقع منه حيرةٌ وقد آتاه الله رُشده من قبل كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وكيف يحدث عندك شك وقد آراه الله ملكوت السموات والأرض فرسخ في اليقين كما جاء في مطلع هذه الآيات: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

جاء في تفسير البحر المحيط ٤/١٦٥: قال مجاهدٌ رحمه الله: فُرجت لإبراهيم السموات والأرض فرأى ببصره الملكوت الأعلى والملكوت الأسفل، أي: أظهر الله سبحانه وتعالى لخليله عليه السلام بعض أسرار ملكوته الدالة على ربوبيته ووحدانيته، وليكون من أهل اليقين الراسخين في الإيمان..

إذاً لا يُعقل أيها الإخوة العقلاء أنْ يتحيَّر إبراهيم عليه السلام في شأن العقيدة فيقول حقيقة لكوكب أو قمر أو شمس: (هذا ربي)..

وقوله هذا إنما هو طريقة عقلية في الاحتجاج، وبراعة منطقيةٌ في المُناظرة يفترض صحة ما يقول خصمه ليستنتج مِن ذلك الدليل على بطلانه.. وإنَّ مِن أبلغ الحجج وأقوى البراهين أنْ توافق الخصم في العبارة على طريق الإلزام..

وحسبكم دليلاً على براءة إبراهيم مِن الحيرة والشك، وعلى اتخاذ قوله الأول حُجة على خصومه ما قاله الله تعالى في ختام هذه الآيات من سورة الأنعام:

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٨٣].

واسمعوا رحمكم الله ما قاله الإمام ابن كثير رحمه الله [في تفسيره ١٥١/٢]: المُقام هنا مُقام مُناظرة، لا مُقام نظر، وحاشا للخليل عليه السلام أنْ يشك في الربِّ الجليل تبارك وتعالى وهو أبو الأنبياء وإمام الحنفاء.

وهذا الرأي في إبراهيم وقوله (هذا ربي) هو الذي أثبته جُمهور المفسِّرين وأساطينهم قديماً وحديثاً فجزاهم الله خير الجزاء.

ليس ببعيد أيها الإخوة المسلمون أنْ يكون إبراهيم الخليل عليه السلام عند وصوله حرَّان في برِّية الشام قد وجد جماعاتٍ مِن قومه الكلدانيين نزحوا مِن العراق إلى الشام.. وأخذوا يعبدون الكواكب السبعة السيارة وهي:

[الشمس، والقمر، والزهرة، والمشتري، والمريخ، وزحل، وعطارد].. وقد بنَوا لهذه الكواكب، هياكل وتماثيل، ووضعوها أمام أعينهم على أبواب مدينتهم..

لتظل معبوداتهم ماثلة أمامهم، فإنْ أفلت وغابت الكواكب فهذه تماثيلها موجودةٌ غير غائبة.

هذا ولم يشأ سيدنا إبراهيم عليه السلام أنْ يجابه القوم في حران ببطلان معتقداتهم ولا أنْ يُحطم الهياكل كما فعل مع قومه في بابل ومع أصنامهم إذ هو عليه السلام لم ينس بعدُ ما جرى له على أيديهم هناك من ظلم ومحاكمة وانتقام وتحريق بالنار نجّاه الله تعالى منها ومنهم..

مِن أجل ذلك سلك عليه السلام مع عبدة الكواكب هنا طريق المُناظرة والاستدراج مِن البداية.. واغتنم عليه السلام فرصة وجود بعض قومه معه ليلاً..

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي: ستره الليل بظلمته.. يقال: جنَّ عليه وأجنَّه وجنّه يجُنه أي: ستره، واللازم منه: جنَّ يَجِنُّ أي: استتر.

هذا وكل ما جاء من الجيم والنون ففيه معنى السَّترِ والتَّستُّر.. ومن ذلك: الجَنَّةُ والجِنَّةُ والجُنَّة، والجـــانُّ والجِن، والمِجنُّ والمجنون، والجَنانُ والجِنان والجُنون، والجَنِينُ والجَنَنُ والتَّجنين، والجَنِينةُ والأجنة وغير ذلك.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾.. هو كوكب الزهرة، أو المشتري رآه مضيئاً ساطعاً في السماء، وهو ثالث الكواكب السبعة النيرة.. وهنا لم يأت [رأى كوكباً بازغاً] إذ لا حاجة مع الكوكب إلى الارتقاب حتي يبزغ بخلاف القمر والشمس.. فالكواكب تظهر بمجرد إظلام الليل.

(قال: هذا ربي) أي: قال إبراهيم عليه السلام لمن حوله مِن قومه: هذا الكوكب ربي أي: في زعمكم..

قال صاحب الكشاف ٢/٤٠: هذا قول مَن يُنصف خصمه مع علمه أنه مبطل، فيحكي قوله كما هو، غير متعصب لمذهبه.. لأنَّ ذلك أدعى إلى الحق، وأنجى مِن الشغب.

(فلما أفل) أي: غاب الكوكب.. وأفل مِن بابي نصر وضرب تقول: أفل يأفُل أُفولا، وأفل يأفِل أفلاً.

وجاء في مقاييس اللغة ٦٥/١: الهمزة والفاء واللام أصلان.. أحدهما: الغيبة، والثاني: الصغار من الإبل.. أما الغيبة فيقال: أفلت الشمس: غابت، ونجومٌ أُفَّلٌ، وكل شئٍ غاب فهو آفل..

فلما أفل الكوكب وغاب عن الأنظار، قال إبراهيم عليه السلام: (لا أحب الآفلين) أي: لا أحب عبادة الغائبين، ولن أعبد الأرباب المتغيرين من حال إلى حال، المنتقلين من مكان إلى مكان.. فإن ذلك من صفات الأجرام المحدثة المخلوقة، ولابد أن يكون لها مُحدِثٌ وخالق، لا يغيب ولا يفنى وهو الإله الحق وحده.

أيها الإخوة.. وكما تلاحظون فإن إبراهيم عليه السلام احتج بالأفول دون البزوغ فقال: (لا أُحب الآفلين) ولم يقل: لا أحب البازغين.. مع أن كلاً من الأفول والبزوغ انتقال من حال إلى حال.. وسبب ذلك: أن الاحتجاج بالأفول أظهر وأوضح؛ لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب..

وفي تفسير البحر المحيط ١٦٧/٤: وجاء بلفظ [الآفلين] مجموعاً لا مفرداً ليدل على أن ثَمَّ آفلين كثيرين ساواهم هذا الكوكب في الأفول فلا مزية له عليهم في أن يعبد.. وذلك للاشتراك معهم في الصفة الدالة على الحدوث.

هذا واحتار القوم ولم يَحيروا جواباً، وشدهم قول إبراهيم إلى التفكير..

وليس ببعيدٍ أن يكونوا قد اجتمعوا على إبراهيم في الليلة التالية، وليس ببعيد أيضاً أن يكون قد انضم إليهم غيرهم.. فإذا بإبراهيم عليه السلام يرتقب ما هو أضوأ من الكوكب الذي أفل فإذا بالقمر يبزغ..

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي: مبتدئاً في الطلوع من وراء الأُفق، يشق بنوره ظُلمة الليل شقاً وهو أنور من ذلك الكوكب وأكبر.. ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وذلك على طريقته الأولى في استدراج القوم واستهواء قلوبهم..

﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي غاب القمر عن الأنظار (قال) أي: إبراهيم لمن حوله وقد رأى إنصاتهم إليه، وتفكرهم فيما هم عليه.. ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ

الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾..

وهكذا جاوز عليه السلام التعريض بالقوم إلى ما هو أفصح إذ المعنى: لئن لم يُثبِّتني ربي الله على الهدي والإيمان لأكونن من الضالين عبدة المخلوقات وكأنّ الخليل عليه السلام بهذا الكلام يرمي إلى ثلاثة أهداف:

الأول: نقض وإبطال عبادة القمر؛ لأنه آفلٌ متغير.

الثاني: تنبيه القوم إلى أن من اتخذ القمر أو الكوكب إلهاً فهو ضالٌ.

والهدف الثالث: ضرورة وجود معبود آخر يهدي النفوس، ويحول بينها وبين الشك والضلال، فإن الهداية إلى الحق لا تكون إلا بتوفيق الله تعالى ولطفه.

هذا وليس ببعيد أيها الإخوة الأكارم أن يكون بعض القوم أو كلهم لم يبرحوا مكانهم حول إبراهيم عليه السلام حتى انتهى الليل وطلع النهار وبزغت الشمس.. ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ وهّاجة يتألق نورها وينبعث منها شُعاعها وقد كست الدنيا جمالاً وضياءً، وملأت الأرض حياة وبهاءً (قال) عليه السلام: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ استدراجٌ لقومه كسابقيه ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ الله أكبر الله أكبر!! فهذه الشمس أنور وأكبر من الكوكب والقمر وفي النفع أكثر ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ أي غابت الشمس عن عُبادها فقد ساوت ما قبلها من قمر وكوكب في صفة الحدوث ولابد لها هي أيضاً من مُحدث وخالق..

عند ذلك لم يبق للقوم عبدة الكواكب شئٌ يُمثل لهم به سيدنا إبراهيم عليه السلام فهذا شأن أكبر الأجرام السماوية المرئية لكم، وهذه حال أشد الكواكب السيارة إضاءة في أعينكم.. فكيف يكون سواها مما هو أقل وأضعف؟

وبهذا ظهرت حُجة إبراهيم عليه السلام وقوي على مُنابذة قومه.. فإذا كان هذا هو الحال فإن الشمس لا يعقل أن تكون إلهاً وإن عبادتها والقمر والكواكب كُفرٌ وشرك.

ولهذا أعلن الخليل عليه السلام في وجه الجميع ويملء فيه أنهم

مشركون، وجاهرهم بالبراءة من معبوداتهم الباطلة من كواكب وأصنام والتي يجعلونها شركاء لخالقها (قال) عليه السلام ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

هذا وقد جاء أيها الإخوة المسلمون في تفسير البحر المحيط ١٦٨/٤: أن رؤية إبراهيم عليه السلام تلك النيرات الكوكب والقمر والشمس كانت في ليلة واحدة.. رأى عليه السلام كوكب الزهرة أو المشتري جانحاً للغروب، فلما أفل بزغ القمر فهو أول طلوعه، فسرى الليل أجمع، فلما بزغت الشمس زال ضوء القمر قبلها لانتشار الصباح، وخفي نوره، ودنا أيضاً من مغربه فسمي ذلك أفولاً.. لقُربه من الأفول التام تجوزاً في التسمية، ثم بزغت الشمس.

وقال ابن عطية: وهذا الترتيب يستقيم في الليلة الخامسة عشر من الشهر إلى ليلة عشرين.. وليس يترتب في ليلة واحدة إلا في هذه الليالي وإلا بذلك التَّجوُّز في أفول القمر.

هذا والمشهور في اللغة العربية أن الشمس مؤنثة ولهذا جاءت في الآية الكريمة الصفة مؤنثةً ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ ولم يقل [بازغاً] ثم قال: [فلما أفلت] بتاء التأنيث أما قوله: (هذا ربي) بتذكير اسم الإشارة دون التأنيث: (هذه ربي) فسبب ذلك كما جاء في تفسير النسفي ٥١٧/١ والعلم عند الله:

لأنه أراد الطالع، أو لأنه جعل المبتدأ (هذا) مثل الخبر (ربي) مذكّرين؛ لأنهما شيءٌ واحدٌ معنًى وفيه صيانة الرب عن شبهة التأنيث.

ولهذا قالوا في صفات الله تعالى: علاّم ولم يقولوا: علاّمة، وإن كان علامةٌ أبلغ من علاّم وذلك تفادياً من علامة التأنيث.. فسبحان الله العظيم مُنزل هذا القرآن الحكيم على قلب نبيه الكريم بلسانٍ عربي مُبين!!

وبعد أن أعلن سيدنا إبراهيم عليه السلام انصرافه عن آلهة القوم، وجاهر ببراءته من معبوداتهم الزائفة.. أفاض عليه السلام في الحديث عمن يخصه بخضوعه، ويتوجه إليه بعبادته وتوحيده فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾..

المعنى: إني قصدتُ بعبادتي وتوحيدي الله تعالى الذي ابتدع العالم، وخلق السموات والأرض على غير مثال سابق..

وهكذا وصف الخليل عليه السلام الله جل جلاله بهذا الوصف العظيم (الذي فطر السموات والأرض) وهذا الوصف يقتضي توحيده سبحانه وتعالى، وإنفراده بالملك.. فهذه السموات والأرض مُحْدَثات مخلوقات دالة على أنه عزَّ وجلَّ هو مُنشئها. ومعنى (حنيفاً) أي مائلاً عن الأديان الفاسدة إلى دين الإسلام وهو دين الحق.. (وما أنا من المشركين) فأنا لستُ في العبادة ممن يُشرك بالله شيئا من خلْقه.

قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ [الأنعام: ٨٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي جادلوه في آلهتهم، وخوَّفوه بها، وحذَّروه أنْ تصيبه بسوء.

أيها الإخوان.. هذا هو حال المشركين في كل زمان ومكان.. يحاجُّون بالباطل، ويركبون رؤوسهم، ويعيشون على الافتراء والبهتان..

وما أشبه هؤلاء عبدة الكواكب في حرَّان الشام بإخوانهم وآبائهم أولئك عبدة الأصنام في بابل العراق!

وما أنْ سمع إبراهيم عليه السلام محاجَّاة القوم له حتى تبيَّن له سخفهم ونقص عقولهم، فأجابهم منكراً عليهم قائلاً:

﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: ٨٠].

المعنى: أتجادلونني في الإيمان بالله، وفي وحدانيته، وقد بصَّرني سبحانه وتعالى وهداني إلى الحق؟ فكيف ألتفتُ إلى أقوالكم الفاسدة؟ وشبهكم الباطلة؟!

هذا والفعل [أتحاجُّونِّي] بتشديد النون على هذه القراءة، وأصله: [أتحاجونني] بنونين فأدغما هروباً من استثقال المثلين المتحركين..

والنون الأولى.. علامة رفع المضارع لأنه من الأمثلة الخمسة.

والنون الثانية.. نون الوقاية، وواو الجماعة.. فاعل، وياء المتكلم.. مفعول

به. والنون في [هدان].. نون الوقاية، وكسرها دليل على ياء المتكلم المحذوفة والأصل: [هداني]. وتعجب إبراهيم الخليل أن يخوفه القوم شيئاً مأمون الجانب فقال..

﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾ [الأنعام: ٨٠]..

أي: إني لا أخاف آلهتكم التي تعبدونها من دون الله لأنها لا تضر ولا تنفع، وليست هي قادرة على شيء مما تزعمون. (إلا) كَما جاء [في التسهيل ٢٦٧/١]: الاستثناء هنا منقطع، ومعناه: لكنَّ أي: إنما أخاف من ربي إنْ أراد بي شيئاً فيكون.. إذ لا يضر ولا ينفع إلا الله سبحانه وتعالى.

﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأنعام: ٨٠]. أي: أحاط ربي الله بجميع الأشياء، ولا يُصيب أحداً شيٌ من ضُرٍ أو نفع إلا بعلمه..

﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠]. الاستفهام للتوبيخ والمعنى: أفلا تعتبرون وتتعظون ياقوم فيما بيّنته لكم، وتميزون بين القادر والعاجز، فتتزجروا عن عبادة ما سوى الله؟!

وفي قوله هذا تنبيهٌ للقوم على غفلتهم التَّامَّة حيث عبدوا مالايضر ولا ينفع وأشركوا بالله الذي خلقهم مع ظهور الدلائل الساطعة على وحدانيته سبحانه وتعالى.. قال الله تعالى على لسان خليله عليه السلام:

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا.. ﴾ [الأنعام: ٨١].

أي: وكيف أخاف آلهتكم التي أشركتموها مع الله في العبادة وهي لا تقدر على شئ؟

وأنتم لا تخافون الله وهو القادر على كل شيء وأشركتم به غيره بدون سلطان ولا حُجَّةٍ ولا بُرهان؟!

قال الإمام النسفي رحمه الله ٥١٨/١:

والمعنى: فما لكم تنكرون عليَّ الأمن في موضع الأمن؟ ولا تُنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف؟.

﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ فأي الطائفتين نحن الموحدين أم أنتم المشركين؟ ﴿ أَحَقُّ بِالأَمْنِ ﴾ من خزي الدنيا وعذاب الآخرة؟! ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فقد ارتكبتم إثماً كبيراً واقترفتم ذنباً عظيماً ولكنكم قومٌ تجهلون!!

قال صاحب الكشاف ٢/٤٢:

ولم يقل عليه السلام: [فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم] احترازاً من تزكية نفسه ثم استأنف عليه السلام الجواب عن سؤاله بقوله:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]

قال الإمام الغرناطي في تفسيره التسهيل ١/٢٦٧:

وقيل: إنَّ هذا القول استئناف من كلام الله تعالى وليس من كلام خليله إبراهيم! وفي تفسير البحر المحيط ٤/١٧١: قال الإمام أبو حيان: قاله الله تعالى على جهة فصل القضاء بين خلْقه وبين مَن حاجَّه قومه.

(ولم يلبسوا) أي: لم يخلطوا..

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة ٢/٤٦٩: اللامُ والباءُ والسِّينُ أصلٌ صحيح واحد.. يدل على مخالطة ومُداخلة.. من ذلك: لَبِستُ الثوب ألبسه، وهو الأصل، ومنه تتفرَّع الفروع.

واللَّبسُ: اختلاط الأمر، يقال: لَبَسْتُ عليه الأمر ألبِسه من باب ضرب أي: خلطته عليه حتى لا يعرف حقيقته.. وفي التنزيل العزيز قال تعالى:

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢]. قال وفي الأمر لَبسةٌ بفتح اللام أي هو ليس بواضح.

وفي المصباح المنير ٥٤٨:

في الأمر لُبسٌ ولُبسة.. بضم اللام أي: فيه إشكالٌ وشُبهةٌ والتباس.

وفي لسان العرب ٦/٢٠٢:

اللُّبس (بالضم) مصدر قولك: لبستُ الثوب ألبَسُه.

واللَّبسُ (بالفتح) مصدر قولك: لَبَستُ عليه الأمر ألبِسه أي اللُبس في

اللباس واللَبس في الالتباس ويقال: لابست الأمر أي: خالطته، والتبس الأمر أي: أشكل واختلط..

قال تعالى: ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ أي: بشرك.

وفي صحيح الإمام البخاري رحمه الله: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: وأيُّنا لم يظلم نفسه؟! فقال عليه الصلاة والسلام: ليس بالذي تعنون ولا كما تظنون، ألم تسمعوا ما قاله العبد الصالح لقمان لابنه: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣]. إنما الظلم هو: الشرك.

﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ من العذاب ﴿ وهم مهتدون ﴾ أي: هم على هداية ورشاد..

قال الإمام النسفي ١/٥١٨: إلى هنا تم كلام إبراهيم عليه السلام..

قلتُ: ولا ولن يتطرق أيها الإخوة المسلمون إلى ذهن مسلم شك في أنّ سيدنا إبراهيم عليه السلام في هذه الطريقة التي أثبت بها حقيقة الإيمان أنه كان مُعلِّماً لقومه، وكان مُقيماً للحُجة في وجه الشرك والبُهتان..

وأنه عليه السلام لم يكن طرفة عين في موقف حيرة، ولا في مجال بحث فقد آتاه الله رشده من قبل..

وانتفع عليه السلام بدلائل الكون القاطعة في مناظرته الجاهلين والمعاندين الذين يعيشون حياتهم صُماً بُكماً عُمياً فَهُم لا يعقلون.

وهذه الطريقة الإبراهيمية في الاهتداء إلى الإيمان بالله تعالى هي التي قررها القرآن الكريم ودعا إليها، ونعى على الكافرين إعراضهم عنها: قال تعالى في سورة يونس: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١].

والتأمل في مشاهد هذا الكون للوصول إلى اليقين، إنما هو شأن العُقلاء أولي الألباب قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً

سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران].

آمين آمين يارب العالمين والصلاة والسلام على حبيبنا ونبينا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

الجانب العاشر: رب أرني كيف تحيي الموتى؟

أحبتي.. سيدنا إبراهيم عليه السلام كما علمتم قد آتاه الله رشده صغيراً، ووهبه قلباً سليماً، وجعله صدِّيقاً نبياً، فكان حنيفاً مسلماً مؤمناً محسناً، حليماً أوّاهاً منيباً، وكان أُمة قانتاً لله تعالى..

وكان عليه السلام مفعم القلب بالإيمان بربه عز وجل، ممتلئ الفؤاد بالثقة واليقين بقدرة خالقه جل جلاله..

وكان عليه السلام عالماً أن الله سبحانه وتعالى هو وحده الذي يحيي ويميت، وقد أعلن عليه السلام ذلك صراحةً في وجه الملك النُمروذ الذي حاجَّه في ربه. فكان إبراهيم عليه السلام مُصدِّقاً بأن الله تبارك وتعالى قادرٌ على أن يحيي الموتى بعد فناء أجسادهم، وأن يبعث الناس يوم القيامة بعد موتهم ليُحاسبهم على أعمالهم..

ولكن إبراهيم الخليل عليه السلام إلى جانب هذا الإيمان القوي كان حريصاً على أن يجمع بين الإيمان بالغيب، ومعاينة الدليل الملموس، عن طريق المشاهدة وذلك ليزداد بصيرةً وإيماناً، وثقةً واطمئناناً.. فيصبح يقينه في أعلى مراتبه، ويُمسي إيمانه في أرسخ دعائمه..

من أجل هذا طلب إبراهيم عليه السلام من ربه الكريم الحكيم أن يُريَهُ كيف يُحيي الموتى؟ وكيف يبعثهم بعد فناء أجسامهم.. وذلك ليطمئنّ قلبه فأجاب الله تعالى طلب خليله، وأراه قدرته.

وسجَّل القرآن الكريم رجاء إبراهيم، وإجابة مولاه له في آية واحدة، وهي الآية الستون بعد المائتين من سورة البقرة.. قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا

ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الله أكبر الله أكبر؟! آمنَّا بالله، وصدَّقنا بقدرته، وعلمنا أنه هو العزيز الحكيم أيها المسلمون الأكارم.. ومعنى هذه الآية:

اذكر يامحمد لقومك حين طلب إبراهيم عليه السلام من ربِّه عز وجل أن يُريه كيف يحيي الموتى؟

وهذا السؤال ليس فيه ما يدلُّ على الشك أو الارتياب في إحياء الله الموتى، وفي قدرته على البعث والنُشور.. وذلك لأن إبراهيم لم يقل في سؤاله: (هل تُحيي) بل قال: [كيف تُحيي]؟

إذاً فالسؤال ليس عن قدرة الإحياء بل عن كيفية الإحياء..

وإذا كان السؤال عن الكيفية فهو يقتضي تيقُّن ما سأل عنه، وهو الإحياء والإيمان به.. كما ذكر ذلك أبو حيان في تفسيره البحر المحيط [٢٩٧/٢].

إذاً سؤال إبراهيم عليه السلام كان سؤال مؤمن مُصدِّقٍ أراد أن يُشاهد بالبصر والعيان ما كان يعلمه بالقلب والوجدان.

فأحب إبراهيم عليه السلام كما قال ابن كثير في تفسيره [٣١٥/١] أن يرتقي من (علم اليقين) إلى (عين اليقين).. فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾.

فالرؤية هنا بصريَّةٌ.. دخلت على (رأى) المتعدِّي لواحد همزة النقل فتعدَّي فِعلُ الأمر [أرني] لمفعولين.. الأول: ياء المتكلم، والآخر: الجملة الاستفهامية [كيف تحيي الموتى]؟ فهي في موضع نصب المفعول الثاني.

قال الله تعال: ﴿أولم تؤمن﴾؟

أي: أو لم تصدق يا إبراهيم بقدرتي على الإحياء؟

هذا والله تعالى يعلم أن خليله عليه السلام كان أثبت الناس إيماناً، ولكنه سبحانه سأله هذا السؤال [أولم تؤمن]؟ ليُجيب - كما قال صاحب تفسير الكشاف [٣٠٩/١] - ليجيب عليه السلام بما أجاب به لما في الجواب من الفائدة الجليلة للسامعين.

قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾..

أي: بلى آمنتُ ياربي بقدرتك على إحياء الموتى، ولكن أردتُ بسؤالي [كيف تحيي الموتى] أنْ يطمئنَّ قلبي ويسكن بالمعاينة والمشاهدة لكيفية الإحياء قال النسفي [في تفسيره ١/٢١٥]:

وتظاهُر الأدلة أسكن للقلب، وأزيد للبصيرة. هذا وكلمة [بلى] بالألف المقصورة هي: حرف جواب، يُجاب به النفي خاصة، ويفيد إبطال النفي وإثبات ما بعده.. سواءً أكان النفي مع استفهام أم دون استفهام..

من ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ.. ﴾ [الملك: ٨، ٩]. وقوله تعالى: ﴿ ... قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ [الأنعام: ٣٠]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن: ٧].

هذا وقد جاءت [بلى] في كتاب الله العزيز اثنتين وعشرين مرة - كما ذُكر في المعجم المفهرس وفي معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم -.

واللام في [ليطمئنَّ] متعلِّقة بمحذوف وتقدير الكلام [كما جاء في البحر المحيط ٢/٢٩٩]: وما سألتُ عن مشاهدة كيفية إحياء الموتى عن غير إيمان، ولكن سألتُ ذلك ليطمئنَّ قلبي، فأزداد إيماناً مع إيماني.

هذا و(يطمئنُّ) فعلٌ مضارع، ماضيه (اطمأنَّ) ومعناه: سكن وثبت واستقر ومصدره [اطمئنان] والاسم منه (طُمأنينة).

وفي المصباح المنير ص ٣٧٨: اطمأنَّ القلب: أي: سكن ولم يقلق، واطمأن بالموضع: أقام به واتخذه وطناً، وموضعٌ مطمئنٌ أي: منخفض.

وفي مقاييس اللغة ٢/٧٨: طمنَ.. الطاءُ والميم والنون أُصيل بزيادة همزة، يقال: اطمأنَّ المكان يطمئنُّ طُمأنينةً أي: سكن واستقر،

وفي لسان العرب ٦/٢٦٨: طأْمنته وطَمْأنته: إذا سكَّنته.

وفي المفردات للراغب ص ٣١٠: الطُّمأنينة والاطمئنان: هي السكون بعد الانزعاج.

وفي الكليات للكفوي ص٥٦٥: الطمأنينة عند الفقهاء: هي القرار بمقدار التسبيحة في أركان الصلاة.

وفي مدارج السالكين لابن القيم ٢/٥٣٦: قال الهرَويُّ: الطمأنينة سكونٌ يقوِّيه أمنٌ صحيح، شبيهٌ بالعيان.

وفي بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي ٣/٥١٧: الطمأنينة والسكينة كلٌ منهما تستلزم الأخرى، لكن استلزام الطمأنينة للسكينة أقوى من العكس والطمأنينة أعمُّ من السكينة.

والسكينة: تكون حيناً بعد حين، والطمأنينة: لا تُفارقُ صاحبها وكأنها نهاية السكينة. وفي مدارج السالكين ٢/٥٣٨: والطمأنينة على درجات:

الدرجة الأولى منها: طُمأنينة القلب.. بذكر الله تعالى، وهي طُمأنينة الخائف إلى الرجاء، والضَّجِر إلى الحُكم، والمُبتلَى إلى المثوبة..

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وجئ بصيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره. والله أسأل أن يُطمئن قلبي وقلوبكم أيها الإخوة المسلمون.

هذا وقد أجاب الله الكريم ما طلبه ورجاه خليله إبراهيم.. وذلك في صورة يسيرة على إبراهيم قريبة منه.

قال تعالى: ﴿... فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

المعنى.. خذ يا إبراهيم أربعة طيور.

قال الإمام ابن كثير في التفسير ١/٣١٥:

اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي؟

وإن كان لا طائل تحت تعيينها.. إذ لو كان في ذلك مهمٌّ لنص عليه القرآن ومن أقوالهم فيها..

قول مجاهد وغيره: الطيور هي: الديك والطاووس والحمامة والغراب،

وفي تفسير البحر المحيط ٢/٢٩٩: ولما كان لفظ [الموتى] جمعاً في سؤال إبراهيم ربه: [كيف تحيي الموتى]؟

أُجيبَ عليه السلام بأن يأخذ ما مدلوله جمعٌ، لا أنْ يأخذ واحداً..

قيل: وخُص هذا العدد بعينه إشارة إلى الأركان الأربعة التي في تركيب أبدان الحيوانات!!

وكانت من الطير قيل: لأنَّ الطير همَّتُه الطيران في السماء والارتفاع.. والخليل عليه السلام كانت همَّتُه العلو والوصول إلى الملكوت الأعلى.. فَجُعلت معجزته مُشاكلةً لهمته.. والله أدرى وأعلم.

هذا وأمَر الله تعالى نبيه إبراهيم بالأخذ للطيور وهو إمساكها بيده.. وذلك ليكون أثبت في المعرفة بكيفية الإحياء لأنه يجتمع له حينئذ حاسة الرؤية وحاسة اللمس..

هذا و[الطير] اسم جمع لما لا يعقل، وفي التنزيل العزيز: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩].

ومُفردُ [الطير]: [طائر] مثل صحبٍ وصاحب، وركبٍ وراكب.

والطائر: هو كل ما تحرك وارتفع وطار في الهواء بجناحين.. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

أما الطائر في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]. فمعناه: عمله الذي طار عنه من خير وشر.

وقولهم في الأمثال: [طار طائره].. أي: غضب الرجل وأسرع.

وقولهم: [كأنَّ على رؤوسهم الطير] فكنايةٌ عن كونهم هادئين ساكنين ليس فيهم طيشٌ ولا خفة.

وفي الدعاء للمسافر يقال: [على الطائر الميمون].

هذا وجمع (الطير): طيورٌ وأطيار.

وعند اللغوين (الطير) يجوز تذكيره وتأنيثه، وفي هذه الآية عومل مذكراً

بدليل تأنيث العدد قبله: [أربعةً من الطير]، والأعداد من ثلاثة إلى تسعة تؤنث مع المعدود المذكر، وتذكّر مع المؤنث.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ...﴾ [الحاقة: ٧].

هذا واسم الجمع في باب العدد يجوز أنْ يضاف إلى العدد كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ...﴾ [النمل: ٤٨].

ويجوز أنْ يُجر بمِن كقوله تعالى: ﴿... فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ ...﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وفي القرآن الكريم ورد لفظ [الطير] تسع عشرة مرة، وجاء لفظ [الطائر] خمس مرات.

أيها المسلمون الأكارم وأعود معكم إلى آية اليوم فأقول والله المستعان: قال تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: اجمع ياإبراهيم الطيور الأربعة واضممهن إليك وأوثقهن.

يقال: صَرَّ يَصُرُّ.. من باب نصر أي: شَدَّ وجَمع، والمصدر منه: الصَّرُّ بفتح الصاد. والصِّرار هو: خيطٌ أو خِرقةٌ يُشدُّ على حَلَمةِ ضرع الناقة ونحوها لئلا يرضعها فصيلها. والصُّرَّةُ هي: ما تُجمع فيها الدراهم ونحوها وتُشد.

وفي تفسير الكشاف ١/ ٣١٠: أُمِرَ الخليل إبراهيم بضم الطير إلى نفسه بعد أنْ يأخذها وذلك؛ ليتأمل خَلقها، ويعرف أشكالها، ويتعرف أجزاءها وهيئاتها، وحُلاها وصفاتها؛ لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء، فيتوهم أنها غير تلك؟! قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: ثم قطِّع ياإبراهيم الطيور أجزاءً وفرِّق أجزاءهن على الجبال التي بحضرتك وفي أرضك مما يشاهد بصرك.

وفي تفسير ابن كثير ١/ ٣١٥:

فذبح إبراهيم عليه السلام الطيور الأربعة، ثم قَطَّعَهنَّ، ونتف ريشهن، ومزَّق أجسادَهن، وخلط بعضهن ببعض، ثم قسَّم الخليط أجزاءً.. وجعل على

كل جبل من ذلك الخليط جزءاً.. وكانت أربعة أجبل، وقيل: سبعة..

قال ابن عباس رضي الله عنهما: وأبقى إبراهيم رؤوس الطير سليمة بيده.

وفي تفسير البحر المحيط ٢/٣٠١:

ذبح إبراهيم الطيور ونحز أجزاءهن أي: دَقَّها وسحقَها في المنحاز وهو الهاون.. ولم يدق رؤوسهن، ثم جعل ذلك المختلط عشرة أجزاء على عشرة جبال.. ثم جعل مناقير الطيور بين أصابعه.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ أي: وبعد أنْ تُفرِّق ياإبراهيم أجزاء الطيور على الجبال ادعهن أي: نادهن وقل: تعالين بإذن الله.

﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: تأتيك الطيور مشياً سعياً بمعنى: مسرعات في مشيهن على أرجُلهن..؛ ليكون ذلك أبلغ لك في الرؤية التي سألتها ياإبراهيم ويكون أوضح لمشاهدتك لهن مِن أنْ يأتين طيراناً.

قال المفسرون:

فلما دعا إبراهيم عليه السلام الطير كما أمره الله عزَّ وجلَّ.. فجعل ينظر إلى الريشة تطير إلى أختها، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، وكل عضو إلى صاحبه.. فتتصل أجزاء كل طائر بعضها إلى بعض حتى الْتأمت، وصارت الطيور جُثثاً وقام كل طائر منها ببدنه على ما كان عليه.. ولكن بلا رأس.

ثم كرَّر سيدنا إبراهيم النداء: تعالين بإذن الله .. فسَرت في الطيور الحياة، ورجعت إليها الروح، وجعل كل طائر يجئُ بقدرة الله تعالى إلى إبراهيم سعياً ليأخذ رأسه الذي في يده.

فإذا قدَّم إبراهيم لجثة الطائر غير رأسه يأباه، وإذا قدَّم إليه رأسه تركب الرأس مع بقية جسده بحول الله وقوته ثم طارت الطيور بإذن ربها وإبراهيم يرى بعينيه آيات الله البينة، وقدرته الباهرة.. فيعلم أنَّ الله جلَّ جلاله هو الذي أحيا الموتى وهو قادر على بعث جميع الموتى مِن مراقدهم

ونشرهم من قبورهم وأنه هو العزيز الحكيم..

لهذا خُتمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.. أي: (عزيزٌ) لا يغلبه شئٌ، ولا يمتنع عليه مايريد، (حكيم) في تدبيره وشرعه وقدَره وما يريد.

وهكذا أيها الإخوة المسلمون.. يعقب القرآن الكريم على هذه القصة بما يستفيده إبراهيم عليه السلام وكل مؤمن ناظر إلى هذه الآية الجليلة.. من يقين بقدرة الله، ومن خشوع أمام جلال الله.. فسبحان الله العظيم العلي القدير..

وثِقوا - يارعاكم الله - في أن خليل الله كان يعلم قُدرة الله تعالى على إحياء الموتى علماً يقينياً لا يحتمل الشك.. ولكنه عليه السلام أحب أن يشاهد ذلك عياناً فيترقى من (علِم اليقين) إلى (عَين اليقين).

فأجاب الله طلب خليله، وأعطاه غاية مأموله.. بمثال محسوس في عودة الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة.

فأصبح إبراهيم عليه السلام قوياً في الاحتجاج قاطعاً في الدلالة أمام كل من يجادله ويُحاجِجُه من الجاحدين والمعاندين.

وظلت هذه الآية وستظل عَلَماً من أعلام الهداية، ودليلاً من دلائل القدرة الإلهية على مر الدهور يتناقله الأنبياء عليهم السلام، ويحتفى به المؤمنون.. بل هي حُجّةٌ قائمةٌ على كل إنسان خوطب بالتكليف وحمل رسالة الحياة.. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وبَقي الكون كلّه وسيبقى لكل ذي بصرٍ وبصيرة مشاهد حية تنطق بوجود الله تعالى، وتشهد بوحدانيته وعظمته، وبقدرته على الإحياء، وتُنبئُ بتدبيره فيترقى الإنسان البصير من (علِم اليقين) إلى (عَين اليقين) فيطمئن قلبه ويسكن فهمه ويكمُل إيمانه ويذوق حلاوة الإيمان فإذا منَّ الله عليه بالجنة ونعميها كان ذلك له (حق اليقين).. والحمد لله رب العالمين والصلاة

والسلام على سيدنا محمد وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

الجانب الحادي عشر: إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام:

أحبتي المسلمين.. علمنا في الجوانب السابقة أنَّ إبراهيم الخليل عليه السلام ولد في (بابل) من أرض العراق، ولما لم يجد فيها البيئة الإيمانية الصالحة، وحاول قومه الوثينون وملكهم النمروذ إحراقه بالنار، والقضاء عليه وعلى دعوته، فنجاه الله منها ومنهم، هاجر عليه السلام ومعه زوجته سارَّة ابنة عمه، ولوط ابن أخيه إلى بلاد الشام.

وفي حرَّان الشام ناظر الخليل عليه السلام عبدة الكواكب، وحاجُّوه فحجهم، وظلوا على عنادهم وشركهم، فتبرأ منهم ومن معبوداتهم الزائفة.

وامتد العمر به عليه السلام، فتطلَّع إلى الذرية الصالحة علَّها تعقُبه في حمل رسالة التوحيد، ويجعل الله فيها النبوة والكتاب.

ووقف إبراهيم عليه السلام يدعو ربه الكريم قائلا كما جاء في سورة الصافات ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

أي ياربي ارزقني ولداً من الصالحين. قال الإمام ابن كثير ٤/١٤ .

يريد أولاداً مطيعين يكونون عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم قال الإمام النسفي ٣/١٣٠: لأنَّ لفظ الهبة غلب في الولد.

قلتُ: هَبْ: فعل أمر من: وهب يهَب هبة وموهبة وموهباً .. معناه: أعطاه بغير عوض. والفعل يتعدى إلى مفعولين.

وفي المصباح المنير ٦٧٣: ولا يتعدى إلى الأول بنفسه، فلا يقال: وهبتك مالاً، والفقهاء يقولونه مضمَّناً معنى: أعطى.

وفي الفصيح: وهب يتعدى إلى المفعول الأول باللام، وفي التنزيل العزيز قال تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٢١] ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾[ص: ٣٠] ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ [الشورى: ٤٩] و ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

وأما قول بعضهم: (وهبني الله فداك) فمعناه: جعلني وصيرني.

وفي المفردات ٥٤٩:

والله تعالى يوصف بالواهب وبالوهّاب (يعني: أنه يعطي كلاً على استحقاقه).. وفي القرآن الكريم ورد وصف الوهاب ثلاث مرات في آل عمران مرة قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] وفي سورة ص مرتين قال تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩] وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

هذا واستجاب الله تعالى دعاء خليله إبراهيم عليه السلام قال تعالى في الصافات: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

قال ابن كثير ١٤/٤: هذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بُشِر به إبراهيم وهو أكبر من أخيه إسحاق عليهم السلام، وذلك باتفاق المسلمين وأهل الكتاب.

وحين ولد إسماعيل كان عمر إبراهيم ستاً وثمانين سنة، وحين ولد إسحاق كان عمر إبراهيم تسعاً وتسعين سنة.

قال الله تعالى على لسان إبراهيم في سورة إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

هذا (والغلام): هو الصبي من حين يولد إلى أنْ يشب، ومثناه: غلامان وجمعه: غلمة وغلمان.. قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُشْرَىَ هَذَا غُلامٌ﴾ [يوسف: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢] وقال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤] وفي تفسير الكشاف ٥٣/٤ قال الزمخشري:

في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾: انطوت البشارة في الآية على ثلاث: على أنَّ الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ أوان الحُلُم - فالصبي الصغير لايوصف بالحلم - وأنه يكون حليماً موصوفاً بالحلم.

وفي مقاييس اللغة ٣١٢/١ قال ابن فارس:

الحاء واللام والميم.. أصول ثلاثة.. الأول: ترك العجلة، والثاني: تثقُّب الشيء. والثالث: رؤية الشيء في المنام.. وهي متباينة جداً.

وفي المصباح المنير ١٤٨ قال الفيومي:

حلَم يحلُم من باب نصر ينصر معناه: رأى في منامه رؤيا، ومصدره: حُلُم بضمتين، وحُلْم بإسكان اللام تخفيفاً - وحلَم الصبي واحتلم: أي: أدرك وبلغ مبلغ الرجال..

وأما حَلُم يحلُم من باب شرُف يشرف فمعناه: صفح وستر وتأنَّى وسكن عند الغضب أو المكروه مع قدرة وقوة فهو: حليم والمصدر منه حِلم بكسر الحاء وسكون اللام.

هذا والغلام الذى بشر الله به إبراهيم هو إسماعيل عليهما السلام.

و[إسماعيل]: اسم أعجمى.. فهو لا ينصرف للعلمية والعجمة.

وفي تاج العروس قال السيد الزبيدى: إسماعيل معناه بالسريانية: مطيع الله ولذا يكنى مَن كان اسمه إسماعيل: بأبي مطيع.

وفي بصائر ذوى التمييز ٣٩/٦ قال الفيروز آبادى: وإسماعيل بن إبراهيم هو أول من سمي بهذا الاسم من بني آدم.

واحترز بهذا القيد (من بني آدم) عن الملائكة عليهم السلام فإنَّ فيهم (إسماعيل) وهو أمين ملائكة سماء الدنيا.

هذا وبعض اللغويين يرى أنَّ (إسماعيل) مركب من كلمتين: الأولى: مشتقة من سمع، والثانية: من إيل، وهو اسم الله عزوجل.

فإسماعيل على وزن: إفعاليل.. معناه: أسمعه الله أمره فقام به.

وبعضهم جعل أصل إسماعيل: سُماعيل على وزن: فعاليل.. فمعناه: سمع من الله فأطاعه.

وفى القرآن الكريم ذكر اسم إسماعيل اثنتي عشرة مرة.. أولها في سورة البقرة قال تعالى: ﴿ وعهدنا إلىٰ إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطّائفين والْعاكفين والرُّكّع السُّجُود ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وآخرها في سورة ص قال تعالى: ﴿ واذْكُرْ إسْماعيل واليسع وذا الْكفْلِ وكُلٌّ

مِنَ الأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨].

وفى كل المرات اقترن اسم إسماعيل مع غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام في آية واحدة إلا مرة واحدة ذُكر فيها إسماعيل عليه السلام وحده وذلك في سورة مريم قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

أي: اذكر يامحمد في القرآن العظيم خبر جدك إسماعيل وهو أبو العرب.. إنه كان صادقاً في وعده، لايَعِد بوعْد إلا وفّى به.

قال المفسرون: وذكر إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد وإنْ كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً وإكراماً، ومِن مواعيده عليه السلام الصبر وتسليم نفسه للذبح فلذلك أثنى الله تعالى عليه.. فقد قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] وجمع الله له بين الرسالة والنبوة.. قال ابن كثير ١٢٥/٣: وفى هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق لأن إسحاق وصف بالنبوة فقط قال تعالى فى الصافات: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

وهذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة والخلة السديدة حيث كان إسماعيل عليه السلام صابراً على طاعة ربه عزوجل آمراً بها لأهله كما قال الله تعالى لرسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

وفي الحديث النبوي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(إذا استيقظ الرجل مِن الليل وأيقظ امرأته فصلّيا ركعتين كُتبا مِن الذاكرين الله كثيراً والذاكرات) [أبو داود وابن ماجه].

وسيدنا إسماعيل عليه السلام كان عند ربه مرضيًّا فنال عليه السلام

رضى ربه عـزوجل، قـال الفـخـر الرازي ٢٣٢/٢١: وهذا نهـاية المدح لأنَّ المرضيَّ عند الله هو الفائز فى كل طاعاته بأعلى الدرجات.

أيها الإخوة: هذا وإسماعيل بن إبراهيم لم يتكون من سارَّة فقد كانت عقيماً، وإنما أم إسماعيل فهي هاجَر القبطية المصرية وهي جارية سارّة.

وقصـة هاجَـر لم ترد في القـرآن الكريم بل رويت عن أهل الكتـاب من اليهود والمسيحيين وقد أمرنا رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم - فيما رواه الإمام البخاري - أن لا نكذب أهل الكتاب ولا نصدقهم، وهم يقولون:

إنه قد أصابت بلاد الشام في ذلك الوقت مجاعة وقحط، فارتحل إبراهيم عليه السلام وزوجه سارّة ومن معه من الشام إلى مصر.

وذكروا قصة سارَّة مع ملكها الظالم.

وفى هذا الموضع تروى القصة التى وردت في بعض الأحاديث النبوية الشريفة، وهي حديث رواه البخاري رحمه الله (برقم ٣١٧٩) عن أبى هريرة رضي الله عنه موقوفاً ورفعه مختصراً (برقم ٢١٠٤).

وقد رواه مرفوعاً الحافظ البزار، والإمام أحمد (٨٩٨٨) وخلاصتها:

أنَّ إبراهيم الخليل دخل قرية يقال إنها مصر فيها ملك من الملوك، أو جبار من الجبابرة ومعه زوجته سارّة وكانت من أحسن النساء، فأرسل إليه الملك وسأله عنها، فقال إبراهيم: هي أختى خشية أنْ يغلبه الملك عليها، وأتى سارّة فقال لها: لاتكذبينى في قولي.. فإنه ليس على وجه الأرض زوجان مؤمنان غيرى وغيرك فأنتِ أختى في الإسلام.

فلما دخلت سارة على الملك هَمّ أنْ يلمسها ويتعرض لها أكثر من مرة، فردّ الله كيده، وحفظ سارة بقدرته جل شأنه، فأرجعها الملك إلى إبراهيم ومنحها جارية تخدمها وهى هاجَر قال أبو هريرة رضي الله عنه: (فتلك أُمُّكم يابَنِي ماء السماء).

وسأعرض عليكم بعون الله تعالى أهم الأحداث المتصلة بإسماعيل عليه السلام وما ورد عنها من آيات قرآنية كريمة، مقدماً جهدي مافي الآيات مِن

لطائف ولمحات فأقول وبالله التوفيق:

أولاً: إسكان إسماعيل وأمه بوادي مكة القفر:

رجع إبراهيم عليه السلام من مصر إلى بلاد التيمُّن وهى أرض بيت المقدس وما والاها ومعه زوجه سارة وخادمتها هاجَر المصرية القبطية ومعهم دوابٌّ وعبيد وأموال.. فلما كان له ببلاد بيت المقدس عشرون عاماً.. وكانت سارة عقيماً لا تلد وأحزنها أنْ ترى بعْلها يتطلع إلى الولد، قالت له: إني أهديك جاريتي هاجر، فادخل عليها لعل الله يرزقك منها بولد تقرُّ به عينك.

فكان ما أراد الله سبحانه وتعالى، وحملت هاجر من إبراهيم بإسماعيل عليهما السلام وبعد أنْ ولدته اشتعلت مشاعر الحسرة والغيرة في نفس سارة.. فطلبت من إبراهيم الخليل أنْ يغيِّب هاجر وطفلها عنها، ويذهب بهما إلى أقصى الأماكن حتى لاتبصر عينها منظرهما، ولا تسمع أذنها صوتهما.

وأوحى الله عزوجل إلى إبراهيم أنْ يأخذ هاجر وإسماعيل إلى واد قفر حيث مكة اليوم وذلك لأمر يريده الله جل جلاله.

فأطاع الخليل عليه السلام أمر ربه، واستجاب لمشيئته.. واصطحب غلامه الرضيع وأمه الضعيفة وسار نحو الجنوب يقطع الصحاري والقفار، ترشده إرادة الله، وطال به السير حتى بلغ جبال مكة الجرداء، فوضعهما في ذلك الوادي وهو بلقع خلاء، لازرع فيه ولا ماء، ولا بنيان فيه ولا إنسان.

وفي تفسير البحر المحيط ٤٣١/٥: روي أنَّ إبراهيم عليه السلام ركب البُراق هو وهاجر والطفل إسماعيل، فجاء في يوم واحد من الشام إلى مكة، فنزل وترك ابنه وأمَّه هنالك وركب منصرفاً من يومه ذلك، وكان هذا كله بوحي من الله تعالى.

وفي قصة إسكان إسماعيل وهاجر مكة روى الإمام البخاري في صحيحه موصولاً (٣١٨٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

ثم جاء إبراهيم عليه السلام بهاجر وابنها إسماعيل وهى ترضعه حتي وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم - أى موضع زمزم - في أعلى

المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسِقاءً فيه ماء، ثم قفَّى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت:

يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذى ليس فيه أنيس ولا شيء؟! فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها.. فقالت: آلله أمرك بهذا؟! قال نعم. قالت: إذن لا يضيعنا الله. ثم رجعت.

الله أكبر الله أكبر!! هكذا أحبتى المسلمين، يفعل الإيمان الأعاجيب بقلب الوالد مع وليده، وبفؤاد المرأة مع بعلها.. وإبراهيم عليه السلام بَشَر يُحس بالحنين إلى أهله وبالشفقة على ولده ويخاف عليهم الضياع، ولكنه نبي يوحَى إليه.. فيبادر إلى تنفيذ وطاعة ما أُمر به.. مهما كان شاقاً على البشر.. فإرادة الله تغلب إرادته وإرادة أم ولده.. فيستسلمان لإرادة الله، ويثقان في رحمة الله.. فالله رؤوف بعباده ولن يفجع الوالد، ولن يضيع أم ولده ولا فِلذة كبِده وحشاشة نفسه.. وإنّ تنفيذ المؤمن لأمر الله تعالى طاعة وخير، وعاقبته مثوبة وخير والله تعالى بيده الخير.

وقد صور القرآن الكريم إشفاق إبراهيم عليه السلام على ذريته، ورجاءه أن يرعاهم الله ويرزقهم.. فها هو عليه السلام بعد أن رجعت هاجر مطمئنة إلى رضيعها إسماعيل.. انطلق إبراهيم راجعاً إلى الشام حتى إذا كان عند الثنيّة حيث لاتراه. استقبل عليه السلام بوجهه البيت ورفع يديه إلى السماء وأخذ يدعو ربه الكريم فى ضراعة وخشوع بهذه الدعوات: والواردة في سورة إبراهيم:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٧، ٣٨].

أيها الإخوة الأكارم: والمعنى الإجمالى لهذه الدعوات الخاشعات هو:

ياربنا إنى أسكنت بعض أهلى بهذا المكان القفر الذى ليس فيه زرع بجوار بيتك المحرم.. وقد أسكنتهم هنا ليقموا الصلاة ويعبدوك وحدك.. فارفُق بهم، واجعل قلوب بعض الناس تميل إليهم وتعطف عليهم وارزقهم بعض أنواع الثمار ليشكروا لك نعمك.. وإنك ياربنا سميع عليم تعلم سرّنا وعلانيتنا وتعلم مافى قلبى على فراق ذريتى ولا يخفى عليك شىء، مهما دق أوصغر، وسواء كان في الأرض أو فى السماء فالطُف بنا ياالطيف.

أيها الإخوة المسلمون.. وقوله :(ربنا) منادى منصوب لأنه مضاف، وحرف النداء محذوف والتقدير :(ياربنا) وقد أتى الخليل عليه السلام فى ندائه بضمير جماعة المتكلمين فقال: ربنا ولم يقل (ربي) وذلك لأنه كان معه يومذاك ابنه إسماعيل وأمه هاجر فهم جماعة، والرب الذى يناديه ويدعوه إبراهيم ليس ربه وحده بل هو تبارك وتعالى ربه ورب هذين اللذين تركهما قبل قليل وحيدين في هذا المكان الموحش، فحق لإبراهيم أنْ يقول: (ربنا) بضمير الجماعة استدراراً لرحمته سبحانه وتعالي به وبهما وطلباً لعطفه جل جلاله عليه وعليهما.

ثم قال: (إني أسكنت) وهنا أفرد عليه السلام ضمير المتكلم، لأنه وحده دونهما هو الذى أحدث هذا الحدث وهو الإسكان ولم يقل:(أنا أسكنت) بل أكد الخبر بإنّ فقال: (إني أسكنت) وذلك – والله أعلم – إشارة لتحمل المسؤلية فى هذا الحدث، ودلالةً علي عظم الاستسلام لأمر مَن أمَره به، وهو ربه عزَّ وجل.. كما جاء فى حواره مع هاجر عندما قالت له: آلله آمرك بهذا؟ قال نعم.

هذا وفى اللغة تقول: سكنتُ المكان وبالمكان وفى المكان سكناً أي أقمت به واستوطنته، ويتعدى إلى المفعولين بالهمزة فيقال: أسكنت فلاناً المكان، أي: جعلته يسكنه ويتخذه مسكَناً ومسكِناً والجمع: مساكن، قال تعالى:﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ [الطلاق: ٦] وقال تعالى:﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [القصص: ٥٨] .

أما قولهم: سكن الشيء سكوناً فمعناه: ثبت وهدأ ووقفت حركته.. وهذا يتعدى بالتضعيف لا بالهمزة فيقال: سكَّنت الشيء.

و(المسكين) مأخوذ من هذا لسكونه إلى الناس وجمعُه (مساكين).

قوله:(من ذريتى) من تبعيضية أي: بعض ذريتى وهو إسماعيل ومن وُلد منه.

وذرية الرجل: هم أولاده، ذكورهم وإناثهم فيه سواء.

وفى المفردات (١٨٣): الذرية: أصلها الصغار من الأولاد، وإنْ كان يقع على الصغار والكبار معاً فى التّعارف، ويستعمل للواحد والجمع وأصله الجمع.

وفي المصباح (٢٠٧): وفي الذرية ثلاث لغات: ضم الذال ذُرّية وهي أفصحها وبها قرأ السبعة، والثانية كسر الذال (ذِرّية) والثالثة: فتحها مع تخفيف الراء (ذَرية).

وفي البحر ٣٧٢/١: الذرية: النسل.. مشتقة من: ذروت، أو: ذريت، أو: ذرأ الله الخلق أي: خلقهم.

وفي القرآن الكريم ورد لفظ (الذرية) مجرداً ومضافاً ثماني وعشرين مرة من ذلك قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

هذا وتجمع (الذرية) على (ذريات) وقد تجمع على (ذراري) والأول جاء فى كتاب الله العزيز أربع مرات منها قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقوله:﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧] الوادي: هو كل منفرج بين جبال أو آكام، يكون منفذًا للسيل والجمع (أودية)، قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤، ٢٢٥] وقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ

بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] والمقصود بالوادي في سورة إبراهيم: وادي مكة وكان قفراً لا زرع فيه ولا ماء. قال أبو حيان في البحر ٥/٤٣١:

وقال عليه السلام: (غير ذي زرع) ولم يقل غير ذي ماء.. لأنه كان علم أن الله تعالى لا يضيع هاجر وابنها إسماعيل في ذلك الوادي وأنه يرزقها الماء.

﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أى الذى سأعيد بناءه بأمرك وإذنك، قال النسفي ٢/١٧٥: وسمي بيتُ الله المحرَّمَ لأن الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به، وجعل ما حوله حرماً لمكانه، أو: لأنه لم يزل ممنّعاً يهابه كل جبار، أو: لأنه محرم عظيم الحرمة، أو: لأنه حُرِّم على الطوفان ومُنع منه.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ تكرار النداء دليل التضرع إلى الله تعالى، وخص الصلاة دون سائر العبادات لأنها أفضلها وهى عماد الدين وسبب لكل خير.. وأتى بضمير الجمع فى (ليقيموا) دلالةً على أن الله أعلمه بأن هذا الطفل سيعقب هنالك ويكون له نسل.

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أفئدة جمع: فؤاد وهي القلوب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] ولا يقال للقلب فؤاداً إلا إذا اعتبر فيه معنى التفؤُّد أى التوقد يقال: فأدَّت اللحم إذا شويته وأنضجته. قال ابن جبير: ولو قال إبراهيم عليه السلام:(أفئدة الناس) لحجت اليهود والنصارى (تهوي إليهم) أى تسرع إليهم من البلاد الشاسعة وتطير نحوهم شوقاً.

﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ وقد أجاب الله تعالى دعوة خليله إبراهيم ولازال بلد الله من يومها إلى يومنا وإلى ما شاء الله مرزوقاً بأنواع الثمرات تجبى إليه من الشرق، والغرب، وتجتمع عند أهله الفواكه المختلفة الأزمان في يوم واحد.. متّعنا الله بسكنى حرمه، ووفقنا لشكر نعمه.

ثانياً: نبع زمزم، وحادثة الذبح والفداء:

لقد أسكن إبراهيم عليه السلام بأمر ربه تعالى ابنه الرضيع إسماعيل وأمه هاجر بوادي مكة المقفر الذى لازرع فيه ولاماء يومذاك، ولا إنسان ولابنيان، وانصرف راجعاً إلى الشام بعد أنْ دعا لهما ربه الكريم بالرزق والأمان، وامتثلتْ أم إسماعيل لأمر الله عزوجل، وقالت: إذن لايضيعنا، وتحلت بالصبر الجميل، وجعلت ترضع ابنها، وتشرب من ذلك الماء الذى تركه إبراهيم لهما حتى إذا نفد مافى السقاء عطشت وعطش ولدها، وأصبحت لاتجد لبناً ترضعه الطفل ولا ماءً يبل صداه.

وجعل الطفل يبكي ويتلوَّى من شدة العطش، ونفسها تتقطع حسرات عليه، فتركته مكانه، وقامت تطلب الغوث من الله الكريم، وانطلقت تفتش له عن ماء فوجدت (الصفا) أقرب جبل يليها، فصعدت عليه تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، فهبطت مِن الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف دِرعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي ووصلت إلى جبل (المروة) فقامت عليه ونظرت فلم تر أحداً.

فكَرَّت راجعة إلى الصفا، وأخذت تذهب وتجيء بين (الصفا والمروة) سبع مرات تتردد في هذه البقعة المُشرَّفة متذللة خائفة، مضطرة فقيرة إلى الله عزوجل حتى كشف تبارك وتعالي كربتها، وفرَّج شدتها، وأنبع لها زمزم التى ماؤها كما قال عنه الصادق المصدوق صلوات ربي وسلامه عليه:(بأنه طعام طعم وشفاء سقم وهو لما شُرِب له).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي صلى الله عليه وسلم:(فلذلك سعى الناس بينهما) أي: بين الصفا والمروة، قلتْ: قال الله تعالي في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

قال الإمام ابن كثير في التفسير ١/١٩٩:(فالساعي بينهما ينبغي له أنْ يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله عزوجل في هداية قلبه وصلاح حاله

وغفران ذنبه، وأن يلتجىء إلى الله تعالى لتفريج ماهو به من النقائص والعيوب، وأن يحوله من حاله الذى هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام).

هذا ولما أشرفت هاجر في شوطها السابع على (المروة) سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غَواث.

فإذا هي بالملك جبريل عليه السلام عند موضع زمزم، فبحث بعَقِبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء من تحت قدم ابنها إسماعيل، ففرحت وأقبلت متلهفة على رضيعها تبل بالماء شفتيه، وجعلت تحوض الماء، وتقول بيدها هكذا تردُّه خشية أنْ يفوتها، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي صلى الله عليه وسلم:(يرحم الله أُمَّ إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً).

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإنَّ ههنا بيتاً لله - وأشار إلي أكمة مرتفعة من الأرض - يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنَّ الله لا يضيع أهله، ثم غاب الملك عنها.

وبدأت الطير ترِد إلى الماء وتحوم حوله، حتى مرت بهم رفقة من قبيلة (جرهم) اليمنية، فرأوا الطير يحلّق في جو الوادي، فاستدلوا به على وجود الماء، فاقبلوا وأُمُّ إسماعيل عند ماء زمزم، فقالوا: أتأذنين لنا أنْ ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء ! قالوا: نعم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي صلى الله عليه وسلم:(فألفَى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحب الأُنس).

فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، واستأنست هاجر بوجودهم، وترعرع إسماعيل بينهم، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب.

هذا ولم ينس سيدنا إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل وأمه، بل كان يزورهم من حين إلى آخر.

فلما شَبَّ إسماعيل رأى إبراهيم في منامه أنه يؤمر بذبحه، قال الله تعالى في سورة الصافات: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠ – ١١١].

إخوتي المسلمين عرفنا سابقاً أنَّ هذا الغلام الحليم إنما هو إسماعيل عليه السلام، فهو أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من أخيه إسحاق عليه السلام وذلك باتفاق المسلمين وأهل الكتاب.

وإسماعيل هو الذبيح الذى أُمر إبراهيم في منامه بذبحه وهذا هو الرأي الصحيح الذى عليه أكثر العلماء.

ذلك لأنَّ حادثة الذبح وقعتْ في مكة وإسماعيل هو الذي كان مع أمه في مكة وقد كان الابن الوحيد والبكر لإبراهيم الخليل فكان الابتلاء بذبحه عظيماً.

والآيات في سورة الصافات والتى تحكي قصة الذبح والفداء وقد تلوناها آنفاً ورد عقبها مباشرة قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]: فهذه بشارة أخري من الله تعالى لإبراهيم بعد البشارة الأولى:﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٠، ١٠١].

فإبراهيم قد طعن في السِّن وليس له ولد وسأل ربه أنْ يهبه أولاداً صالحين فبشَّره بالحليم ورزقه إسماعيل من هاجر فلما بلغ سنَّ السعي

والعمل وهو الثالثة عشر أمر في منامه بذبحه (ورؤيا الأنبياء وحي) وبعد أن قام ليذبح إسماعيل واستسلم هو وابنه لقضاء الله تعالى وعزما على تنفيذ أمره فداه الله عزوجل بذبح عظيم وأكرمه بولد آخر وهو إسحاق وبشّره بأنْ يكون نبياً صالحاً:

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات: ١١٢] فهذه البشارة كانت بعد حادثة الذبح والفداء.

واليهود أخزاهم الله يدّعون أنَّ الذبيح هو إسحاق وحرّفوا في كتابهم وزادوا كلمة إسحق فى التوراة:(خذ ابنك وحيدك - وفى نسخة البكر - إسحق) قال الإمام ابن كثير عليه رحمة الله في قصص الأنبياء (١٣٦) وفي البداية والنهاية ١/١٥٨: فلفظة إسحاق هنا مقحمة مكذوبة مفتراة، لأنَّ إسحاق عليه السلام ليس هو الوحيد ولا البكر، إنما ذلك إسماعيل عليه السلام.

والذي حمل اليهود على هذا الادعاء هو حسدهم العرب، فإنَّ إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وإسحاق والد يعقوب وهو إسرائيل الذى ينتسبون إليه.

فأرادوا أنْ يجرُّوا هذا الشرف إليهم - أي الذبح والفداء - فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهُم قوم بُهت، ولم يقرُّوا بأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وقد اشتهر أن النبي صلى الله عليه وسلم يُدعى (ابن الذبيحين) والمراد بها إسماعيل وعبد الله.

قال ابن كثير: ومن قال من السلف بأنَّ الذبيح هو إسحاق فإنما أخذوه من (كعب الأحبار) أو صُحف أهل الكتاب، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم صلى الله عليه وسلم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز، ولايُفهم هذا من القرآن، بل المفهوم المنطوق بل النص عند التأمل على أنَّ الذبيح هو إسماعيل.

وما أحسنَ ما استدل به (محمد بن كعب القرظي) علي أنه إسماعيل

وليس إسحاق من قوله تعالى في سورة هود: ﴿وامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

قال رحمه الله: فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أنْ يولد له؟

هذا لايكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة.

ويروى أنَّ الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله سأل يهودياً - كان قد أسلم وحسن إسلامه - عن أي ابني إبراهيم عليه السلام أمر بذبحه؟ فقال: هو إسماعيل، والله يا أمير المؤمنين، وإنَّ اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أنْ يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه والفضل الذى ذكره الله له لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، لأنَّ إسحاق أبوهم (البداية والنهاية ١/١٦٠).

وفي البحر المحيط لأبى حيان ٧/٣٧١:

(وكان قرنا الكبش معلقين في الكعبة، وسأل الأصمعي أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي أين عزب عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإسماعيل هو الذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة)!!

وفي زاد المعاد ١/٧١ قال العلامة ابن القيم رحمه الله:

وإسماعيل عليه السلام: هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً، وفيه أيضاً: إنَّ سارة امرأة الخليل عليه الصلاة والسلام غارت من هاجر وابنها إسماعيل أشد الغيرة فإنها جارية، فأمر الله خليله أنْ يبعد عنها هاجر وابنها، فكيف يأمر سبحانه بعد هذا أنْ يذبح ابن سارة دون ابن الجارية؟! بل حكمته البالغة اقتضت أنْ يأمر بذبح ابن هاجر فحينئذ يرقّ قلب السيدة عليها وعلى ولدها، وتتبدل قسوة الغيرة رحمة، وتظهر لها بركة هذه الجارية وولدها وعاقبة صبرهما على البعد والوحدة والغربة والتسليم بما منَّ الله عليهما.

قال الله تعالى في سورة الصافات: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصافات: ١٠٢] أي: فلما كَبِر إسماعيل وترعرع وبلغ الحد الذي يقدِر فيه على السعي مع أبيه في أشغاله وحوائجه.

قال الفراء: أي أطاق أن يعينه على عمله (معاني القرآن ٢/٣٤١).

وقال مجاهد: أي شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: السعي هنا: العمل والعبادة والمعونة.

قال المفسرون: وكان إسماعيل إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة (البحر المحيط ٣٦٩/٧) وقال ابن كثير (التفسير ١٤/٤):

وقد كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد فاران (الحجاز) وذكر أنه يركب على البراق سريعاً إلى هناك.

هذا وفى لسان العرب ٣٨٤/١٤ وفى المفردات ٢٣٨ وفى المصباح ٢٧٧: السعي: مصدر سعى يسعَى، أي: هرول في مشيه وأسرع.

والسعي: التصرف في كل عمل، قال تعالى:﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] أي ما عمل.

ويستعمل السعي للجد في الأمر خيراً كان أو شراً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: ١١٤].

وقال تعالى ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ [الإسراء: ١٩]: وأكثر ما يستعمل السعي في الأفعال المحمودة.

وخُص السعي فيما بين (الصفا والمروة).

وإذا أطلق (الساعي) انصرف إلى عامل الصدقة وقابضها من المتصدِّق والجمع: سعاة.

(قال: يابُني) أي: قال إبراهيم لابنه إسماعيل عليهما السلام: يابني: نداء شفقة وترحم، و(بني) بضم الباء مفرد وهو تصغير ابني.

والابن، أصله: بِنو، وجمعه: بَنُون وأبناء.

وأما غير الأناسي مما لا يعقل نحو:(ابن مخاض) و (ابن لبون) فيقال

فى جمعه:(بنات مخاض) و (بنات لبون).

قال ابن الأنباري: واعلم أن جمع غير الناس بمنزلة جمع المرأة من الناس.

هذا ومؤنث الابن:(ابنة) على لفظه، وفي لغة (بنت) والجمع: بنات.

وإذا اختلط ذكور الأناسي بإناثهم غلب التذكير فقيل:(بنو فلان)، وفى القرآن الكريم ورد لفظ (بني) بضم الباء ست مرات، أولاها في سورة هود ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢] وآخرها في سورة الصافات ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]:

أما (بَني) بفتح الباء فهو جمع ومعناه: أبنائي فهو بَنُون أضيف إليه ياء المتكلم فحذفت نونه، وقلبت واوه الساكنة ياءً وأدغمت الياء في ياء المتكلم وكُسر النون للمناسبة فصار اللفظ بَنِيّ وأصله: بَنُويَ، قال صاحب الألفية:

وتدغم الياء فيه والواو، وإنْ ❖ ماقبل واو ضُم فاكسره يَهُنْ.

هذا وفى القرآن الكريم ورد لفظ (بَني) أربع مرات، أولها في سورة البقرة ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وآخرها في سورة إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ونعود إلى آية الذبح والفداء فأقول: قال تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه السلام في الصافات: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾.

كسرت همزة (إنّ) في البداية لوقوعها بعد قال فجملتها محكية بالقول.

وفتحت همزة (أنّ) في الأخير لصحة تقديرها بمصدر يسد مسدها بعد الفعل (أرى).

قال ابن مالك:

وهَمزَ إنَّ افتح لسد مصدر ❖ مسدها، وفي سوى ذاك اكسر.

و(أرى) فعل مضارع ماضيه: رأيت، يقال: رأى يرى الشيء رؤية بالتاء فى المصدر معناه: أبصره بحاسة البصر، ويقال: رؤية العين، ورأي العين وجمع الرؤية: رؤًى مثل: مدية ومدًى.

ومنه: (الرياء) وهو إظهار العمل للناس ليروه ويظنون به خيراً فهو عمل لغير الله والعياذ بالله.

ويقال: رأى في المنام يرى رؤيا بالألف المقصورة. وفى الحديث النبوي: (لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا) أي: الصالحة.

وفي الكتاب العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

هذا و (المنام) هو: النوم فهو مصدر ميمي يقال: نام ينام نوماً ومناماً، فهو نائم وجمعه: نُوَّم ونيَّم ونيام.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩].

هذا والنوم هو: غشية ثقيلة تهجم على القلب فتقطعه عن المعرفة بالأشياء فالنوم: فترة راحة للبدن والعقل، تغيب خلالها الإرادة والوعي جزئياً أو كلياً، وفى النوم يتوفى الله النفس من غير موت، وفى الموت ينيم الله النفس بموت وقد قيل: النوم: موت خفيف وموتة صغرى، والموت: نوم ثقيل ونومة كبرى.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

وفى الفصيح نقول: رأيت في المنام، لا رأيت في النوم، وبه جاء التعبير القرآني قال تعالى في الأنفال: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ [الأنفال: ٤٣].

وقال تعالى في الصافات: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وليس في القرآن الكريم غير هذين الموضعين.

هذا و(الذَّبح) بفتح الذال هو قطع الحلقوم من باطن عند الفصيل وهو موضع الذبح من الحلق، يقال: ذبح الحيوان يذبحه ذبحاً فهو مذبوح وذبيح، والذبيحة ما يذبح والجمع: ذبائح.

والذَّبح الذي يقع به راحة الذبيحة وخلاصها من الألم إنما يكون بالسكين، فاذا ذبح الحيوان بغير السكين أو بسكين غير مشحوذة كان ذبحه تعذيباً له، والذِّبح، بكسر الذال، هو مايُعد للذَّبح (لسان العرب ٤٣٦/٢).

هذا وقد رأى سيدنا إبراهيم فى منامه أنْ يذبح ابنه، قال سيدنا عبد الله ابن سيدنا العباس رضي الله عنهما: (رؤيا الأنبياء وحي) (رواه الترمذي ٣٦٨٩).

وفى تفسير القرطبي ١٠٢/١٥ قال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظاً ورقوداً؛ لأنَّ الأنبياء تنام أعينهم ولاتنام قلوبهم.

وفى تفسير البحر المحيط ٣٦٩/٧: مارآه إبراهيم عليه السلام كان في المنام ولم يكن في اليقظة وهي كرؤيا يوسف عليه السلام أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين، وكرؤيا رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم دخول المسجد الحرام، وذلك ليدل على أنَّ حالتي الأنبياء يقظة ومناماً سواء في الصدق، متظافرتان عليه.

وفى التسهيل لعلوم التنزيل ١٩٥/٢: يحتمل أنْ يكون إبراهيم عليه السلام رأى في المنام أنه يذبح ابنه، ويحتمل أنه أُمر في المنام بذبح ابنه، والفعل أظهر في قول إبراهيم لابنه، والأمر أظهر فى جواب الابن لأبيه: (افعل ماتؤمر) وعلى الوجهين وجب عليه الامتثال والطاعة.

وفى تفسير النسفي ١٣١/٣: (قال إنى أرى) ولم يقل (رأيت) لأنه عليه السلام قد رأى ذلك مرة بعد مرة، والله أدرى وأعلم.

وقد قيل: رأى ليلة الثامن من ذي الحجة كأنَّ قائلاً يقول له: إنَّ الله يأمرك أنْ تذبح ابنك هذا فلما أصبح رَوَّى في ذلك من الصباح إلى الرواح أمِنَ الله هذا الحلم أم من الشيطان؟ فمن ثَم سُمِّي يوم التروية.

فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى فمن ثم سمى يوم عرفة، ثم رأى مثل ذلك في الليلة الثالثة فهمَّ بنحر ابنه، فسمى يوم النحر والله أعلم.

أيها الإخوة المسلمون: فأي بلاء حل بإبراهيم عليه الصلاة والسلام فى هذا الأمر الهائل الذي يستهدف فلذة كبده وثمرة فؤاده؟!

فهو عليه السلام لم يكد يأنس بولده إسماعيل وقد طعن في السن حتي أمره الله عزوجل أنْ يُسكن الولد وأمه في وادٍ بعيد قفر لازرع فيه ولا ضرع، فامتثل عليه السلام للأمر وبادر إلى الطاعة توكلاً على الله وثقة فى فضله ولطفه واليوم يأتيه التكليف شديد الوطأة: أنْ يذبح ولده الوحيد هذا وبيده على حين فُتوّته وقوته وشبابه!!

إنَّ هذه والله لمحنة شديدة عظيمة ولكنَّ العظائم كفؤها العظماء، وعلى قدر عظمة إبراهيم خليل الرحمن وعلي مقدار كمال إيمانه يكون ابتلاؤه واختباره، على نبينا وعليه أفضل الصلوات والتسليمات والتبريكات ممن بسط الأرض ورفع السماوات.

قال الله تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام:«فانظر ماذا ترى»؟! أي: فانظر يابني في أمر هذه الرؤيا، وأخبرنى ماذا ترى فيها؟ فالفعل (ترى) هنا من الرأي على وجه المشاورة، وليس هو من رؤية العين وقرىء: (ماذا تُرِي) بضم التاء وكسر الراء بمعنى: ماذا ترينيه وما تبديه لأنظر فيه؟

قال الإمام الزمخشري (الكشاف ٤/٥٤): فإنْ قلت: لِمَ شاوره في أمر هو حتم من الله؟ قلتُ: لم يشاوره ليرجع إلي رأيه ومشورته، ولكن ليعلم ماعنده، فيثبِّت قدمه، ويصبِّره إنْ جزع.

وقال الإمام ابن كثير (التفسير ٤/١٥): وإنما أعلم إبراهيم ابنه عليهما السلام بذلك ليكون أهون عليه، وليخبر صبره وجلده وعزمه على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه.

وهكذا لم يشأ الوالد أنْ يفجأ ولده بتنفيذ ما أمره به ربه، بل عرض عليه الأمر الجليل ليكون ذلك أطيب لقلبه، وأهون عليه من أنْ يأخذه قسراً ويذبحه قهراً، وليكتسب الابن الثواب بالانقياد والصبر لأمر الله قبل نزوله، وليكون ذلك سُنة في المشاورة.

ولكن أي رأي يراه إسماعيل عليه السلام في هذا البلاء العظيم الذي يستهدف نفسه ويختبر مقدار تضحيته بروحه طاعة لأمر ربه؟!

أيها الأحبة ولكن هذا الغلام الحليم كان سرّ أبيه الخليل، فلم يجد أمامه إلا الاستسلام للقضاء، وإلا الثبات أمام البلاء، فقال عليه السلام كما أخبر الله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

هكذا قال إسماعيل الغلام الحليم الشاب المطيع:(ياأبت) على سبيل التوقير والتعظيم لأبيه إبراهيم العظيم الذى خاطبه من قبل على سبيل الشفقة والترحم بقوله: (يابني) فكان نداء الأب لابنه رحيماً، وجاء نداء الابن لأبيه عظيماً، فما أعظم الاثنين! وما أحسن النداءين!!

﴿قَالَ: يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: امض إلى ماأمرك الله به من ذبحى!! الله أكبر الله أكبر!! برٌّ عظيم، وتوفيق من الله أعظم، وإيمان وثيق، ونفس راضية من الوالد والولد.

فالوالد يؤمر بذبح ولده فيسارع إلى تنفيذ أمر الله:(يابني إني أرى في المنام أنى أذبحك) والولد يستشار في هذا الأمر فيبادر إلى تلبية حكم الله:

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾

حقاً لقد كان إسماعيل سرَّ أبيه إبراهيم على نبينا وعليهما أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ بهذه الخاتمة الحسنة يختم الابن جوابه الحسن: ستجدني ياأبت بمشيئة الله تعالى وبإذنه وعونه صابراً محتسباً، فالجواب كله من بدايته إلى نهايته:

﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ جواب يدل فى وضوح وجلاء على مَن آتاه الله الحلم والصبر والذكاء، ومنحه امتثال أمر الله والرضا بالقضاء.

ولم يقف أيها الإخوة الأكارم الأمر عند حد القول الحسن، أو إظهار الطاعة باللسان، بل إنَّ القول الجميل يتحول إلى عمل ليس له مثيل، والمبادرة فى التنفيذ تستولي على الخليل وولده إسماعيل، قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣].

قال ابن كثير (قصص الأنبياء ١٣٥): أي: سمَّى إبراهيم وكبَّر للذبح، وتشهَّد الولد للموت.

وفي (تفسير النسفي ١٣١/٣): عن قتاده رحمه الله المعنى: أسلم الأب ابنه، وأسلم الابن نفسه، وقيل (أسلما) أي: استسلما وانقادا وخضعا لأمر الله تعالى:(وتله للجبين) أي: أضجع الأب ابنه على جبينه، وشرع في ذبحه، والسكين في يده.

الأب ناسياً أبوته، والابن ناسياً بنوته، وكل منهما يسابق إلي طاعة مولاه ويسعى إلى كسب رضاه.

قال ابن فارس في (مقاييس اللغة ١٧٥/١):

تلَّ.. التاء واللام في المضاعف.. أصل صحيح، وهو دليل الانتصاب، وضد الانتصاب فأما الانتصاب: فالتل: معروف، والتليل: العنق.

وأما ضد الانتصاب: فتلَّه أي: صرعه.. وهذا جنس من المقابلة.

تقول: تل فلان يتل تلاً فيكون لازماً بمعنى سقط. ويكون متعدياً تله يتله بمعنى: صرعه وألقاه على عنقه وخده.. فهو متلول وتليل.

ويقال: تلَّ الناقة بمعنى: أناخها وأبركها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (وتله للجبين) أي: أكبَّه على وجهه.

وقال مجاهد وغيره: صرع إبراهيم ابنه علي وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه.. (تفسير ابن كثير ١٥/٤).

وفى لسان العرب (٨٥/١٣): الجبين: هو جانب الجبهة، وهو مافوق الصدغ عن يمين الجبهة وشمالها.. فهما جبينان.

قال ابن سيده: والجبينان: حرفان مكتنفا الجبهة عن جانبيها فيما بين الحاجبين مصعدان إلى قصاص الشعر.

قال اللحياني: والجبين مذكر لاغير، والجمع: أجبُن وأجبنة وجُبن.

هذا والجبهة هنا: هي موضع السجود من الرأس، وهو مستوى مافوق الحاجبين إلى الناصية، وجمعها: جباه.

وفي القرآن الكريم وردت كلمة (الجبين) مرة واحدة، وكلمة (جباه) مرةً واحدة أيضاً.. قال تعالى تعالى في الصافات: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣].

وقال تعالى في التوبة: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥].

وجاء في (حاشية الصاوي على الجلالين ٣٤٣/٣):

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما عزم إبراهيم عليه السلام علي ذبح ولده، ورماه على شِقه، قال الابن عليه السلام: ياأبت اشدُد رباطي حتى لا اضطرب، واكفُف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن، وأحدَّ شَفرتك، وأسرِع بها على حلقى؛ ليكون الموت أهون علي.

وإذا أتيت أمي فاقرئها منى السلام، وإنْ رأيتَ أنْ تردَّ قميصي عليها فافعل فإنه عسى أنْ يكون أسلى لها عني!!

فقال له إبراهيم: نِعم العبد أنت يابني علي أمر الله.. ثم ضمه إلى صدره، وأخذ يقبِّله ويودِّعه الوداع الأخير!

ثم أسلم إبراهيم ابنه إسماعيل فصرعه على شقه، وأوثقه بكتافه، ووضع السكين علي حلقه، وأمرَّها فوق عنقه، ولكنَّ السكين لم تقطع؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالي الذى قد سلب خاصية الإحراق من النار التي ألقي فيها من قبل إبراهيم عليه السلام هو سبحانه وتعالي الذى سلب اليوم خاصية القطع

من السكين التى يمررها إبراهيم على رقبة ابنه إسماعيل عليه السلام وثلَم حدَّها وفلَّ من غَربها.

فقال إسماعيل الغلام الحليم: ياأبت كُبَّني علي وجهي، فإنك إذا نظرت إلي أدركتك رحمة بي تحول بينك وبين أمر الله!!

ففعل إبراهيم الشفوق الرحيم ثم وضع السكين على قفا ابنه المطيع، فلم تمض الشفرة ولم تُفرِ الأوداج.

وأدركت الأب الحيرة.. فتوجه إلى الله العظيم الكريم أنْ يجعل له من هذا الضيق مخرجاً ومن هذا الهم فرجاً.. فالله ولي المؤمنين والله ولي المتقين.

فرحم الله ضعف خليله، واستجاب لدعائه، وكشف غمته.. وقد أوشك الأمر أنْ ينفُذ.. فجاءه النداء من رب الأرض والسماء:

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٤ – ١١١].

صدق الله العظيم، وصدق رسوله الكريم ونحن على ماقاله ربُّنا من الشاهدين.

قال الصاوي: (في حاشيته على الجلالين ٣/٣٤٣):

(الحكمة في هذه القصة: أنَّ إبراهيم عليه السلام اتَّخذه الله تعالي خليلاً، فلما سأل ربه الولد، ووهبه له، تعلَّقتْ شعبة من قلبه بمحبة ولده، فأُمر بذبح المحبوب؛ ليظهر صفاء الخُلة، فامتثل الخليل عليه السلام أمر ربه عزوجل، وقدَّم محبة الله على محبة الولد).

واستسلم الوالد والولد وانقادا لأمر الله تعالى، وتلَّ الأب ابنه للجبين، وأمرَّ السكين علي رقبته فلم تقطع.. وإذا برحمة الله تعالى الجليل الذى أطاعا أمره، ورضيا بقضائه تسرع إليهما، ونودي إبراهيم الكريم من قِبَل الرب الرحيم: (وناديناه أنْ يا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا).

(وناديناه) جواب (لمَّا) في قوله: (ولما أسلما) والواو مقحمة.

يقال: نادى فلان فلاناً مناداةً ونداءً.. من باب قاتل أي: دعاه وصاح أرفع الأصوات فهو المنادي.

ويقال: فلان أندى صوتاً من فلان.. كناية عن قوة صوته وحسنه، وقولهم: فلان أندى كفاً من فلان فمعناه: أكثر فضلاً وخيراً وندًى وسخاءً منه.

وفى (المفردات في غريب القرآن ص ٤٨٩):

وأصل النداء من النَّدى أي: الرطوبة، يقال: صوت ندِيٌّ أي: رفيع، واستعارة النداء للصوت من حيث أنَّ مَن تكثر رطوبة فمه يحسن كلامه!! ولهذا يوصف الفصيح بكثرة الريق.

وعُبِّر عن المجالسة بالنداء حتى قيل لمجلس القوم ومتحدَّثهم: النادي والمنتدى والنديِ.. ومنه سُمِّيتْ (دار الندوة) بمكة.

وهي المكان الذى كانت قريش في الجاهلية يجتمعون فيه ويتشاورن في أمورهم، وقد بناها (قُصيٌّ بن كلاب) وانتقلت إلى ولده حتى اشتراها (معاوية بن أبي سفيان) رضي الله عنه وجعلها داراً للإمارة.

هذا و (أنْ) فى قوله:(وناديناه أن ياأبراهيم) تفسيرية بمنزلة: أي.. وذلك عند نحاة البصرة؛ لأنها سبقت بجملة فيها معنى القول دون حروفه، ولمجيء جملة بعدها (قد صدّقت).

و (قد) هنا.. حرف تحقيق وتوكيد لدخوله على الفعل الماضي المتصرف الخبري المثبت.. وتقترن (قد) باللام زيادةً فى التوكيد (لقد)..

وفي القرآن الكريم وردت كلمة (قد) مع الفعل الماضي مائتين وست عشرة مرة. أولها في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]. وآخرها في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١٠].

وجاءت (لقد) مائة وإحدى وثمانين مرة.. أولها فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥].

وآخرها في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]..
(معجم الأدوات والضمائر فى القرآن الكريم ٣٥٨-٣٦٦).

وقوله تعالى:(صدَّقتَ) أى حقَّقت.

قال ابن فارس فى (مقاييس اللغة ٣٥/١): صدق.. الصاد والدال والقاف.. أصل يدل على قوة الشيء قولاً وغير قول، من ذلك: الصدق خلاف الكذب سُمِّى لقوته في نفسه، ولأنَّ الكذب لاقوة له وهو باطل.

وقال الراغب الأصفهاني (في المفردات في غريب القرآن ٢٨١):

وقد يستعمل الصدق في كل ما يحق ويحصل فى الاعتقاد نحو: صدق ظنى، ويستعمل الصدق في أفعال الجوارح فيقال: صدق فى القتال إذا وفَّى حقه، وفعل مايجب وكما يجب.. قال تعالى:﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

أي: حققوا العهد بما أظهروه من أفعالهم.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧].

فهذا صدق بالفعل وهو التحقق.. أي حقق الله رؤيا نبيه صلى الله عليه وسلم.

وعلى ذلك قوله تعالى:﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

أي: حقق ماأورده قولاً بما تحرَّاه فعلاً.

فالتصديق يستعمل في كل مافيه تحقيق.

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾ المعنى: ياإبراهيم قد حققت ماأمرناك به في منامك من تسليم ابنك لأمر الله؛ وذلك بإضجاعك ولدك للذبح.. فحصل المقصود من اختبارك وقد فُزْتَ في الامتحان إذ وجدنا فيك طاعة ومبادرةً إلي التنفيذ.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: كما فرَّجنا شِدَّتك ياإبراهيم لطاعتك

أمرنا، وحسن ظنك بنا؛ فإنا كذلك نجزي المحسنين ونثيب الطائعين، فنصرف عنهم المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجًا ومخرجاً.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾ أي: الاختبار البيِّن والمحنة الشديدة التى يتميز فيها المخلصون عن غيرهم.

هذا و (الرؤيا) علي وزن فعلى بالألف المقصورة: مايراه الإنسان فى منامه من أحلام وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (رؤيا الأنبياء وحي).

وفى القرآن الكريم وردت كلمة (الرؤيا) سبع مرات..

اثنتان منها فى (رؤيا سيدنا يوسف عليه السلام) الكواكب والشمس والقمر ساجدين له، واثنتان في (رؤيا ملك مصر) البقرات والسنبلات (فى سورة يوسف ٥/٤٣/١٠٠).

واثنتان فى (رؤيا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) إحداهما فى سورة الفتح قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

وقد أجمع المفسرون على أنَّ الرؤيا في هذه الآية كانت منامية، فقد رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه أنه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت ثم حلق بعضهم وقصَّر بعضهم.. فحدَّث صلى الله عليه وسلم بها أصحابه ففرحوا واستبشروا، فلما خرج إلي الحديبية مع الصحابة، وصدَّه مشركو قريش عن دخول مكة، وعقَد صلح الحديبية، ارتاب المنافقون وقالوا: والله ماحلقنا ولاقصرنا ولارأينا البيت فأين هي الرؤيا؟ فنزلت هذه الآية ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ وأعلم الله تعالي رسوله الكريم أنَّ رؤياه حق وصدق ولكنْ ليس في الرؤيا أنه يدخلها عام ست من الهجرة.. وقد حقق الله له مارآه بعد عام وذلك في عمرة القضاء.. صلوات ربي وسلامه عليه وعلى أصحابه المتقين.

وأما رؤياه الأخرى ففي سورة الإسراء (٦٠) قال تعالى:﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ

رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

والرؤيا في هذه الآية اختلف فيها.. ففي تفسير الطبري (١١٠/١٥): عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي رؤيا عين أُريها رسوله الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج وليست برؤيا منام.

وفي تفسير النسفي (٢٦٥/٢): ومَن قال إنها كانت في اليقظة فَسَّر الرؤيا بالرؤية، وإنما سماها رؤيا علي قول المكذبين حيث قالوا له لعلها رؤيا رأيتها استبعاداً منهم.

وفي تفسير التسهيل لعلوم التنزيل (٤٥٠/١):

وقيل: إنها رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في منامه هزيمة الكفار وقتلهم ومصارعهم بغزوة بدر..

وأما المرة السابعة التى وردت فيها الرؤيا في كتاب الله العزيز ففي سورة الصافات قال تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].. وقد فصَّلْتُ لكم جهدي القول فيها سابقاً ولله الحمد من قبلُ ومن بعدُ.

هذا وأما (البلاء) في قوله:﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦].

ففى المصباح المنير (٦٢).. يقال: بَلِي الثوب يَبلَى بِلًى وبلاءً أي: رثَّ وخَلِق وخَلُق وبلاه الله بخير أو بِشَرٍّ يبلوه بلوًا، وأبلاه، وابتلاه ابتلاءً بمعنى: امتحنه. والاسم منه (بلاء) والبلوى والبلِيَّة مثله.

وفى لسان العرب (٨٤/١٤): يقال: أبلى فلان: إذا اجتهد في صفة حرب أو كرم، يقال: أبلى ذلك اليوم بلاءً حسناً.

وفي المفردات (٧١): أبليتُ فلاناً: إذا اختبرتُه، وسُمِّي الهمُّ: بلاءً من حيث إنه يُبلِي الجسم ويضنيه.

وسُمي التكليف بلاء من عدة أوجه:

الأول: أنَّ التكاليف كلها مشاق على الأبدان. **والثاني:** أنها اختبارات.

والثالث: أنَّ اختبار الله تعالى للعباد، تارةً بالمسارِّ ليشكروا، وتارة بالمضارِّ

ليصبروا.. فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاءً.. قال الله تعالى:﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: نبتليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال. (تفسير ابن كثير ١٧٨/٣).

والله أسال أيها الأخوان أنْ يفتح.علي وعليكم في القرآن، وأنْ يجعلنا عبيد فضل وإحسان لاعبيد ابتلاء وامتحان.

إخوتى المسلمين:

أشارت الآيات الكريمات من سورة الصافات إلى أنَّ إبراهيم عليه السلام قد حقق ما أمره الله تعالى به من ذبح ولده.. وذلك بإضجاع ولده للذبح، وقد فاز الوالد والولد في هذا الابتلاء الرباني..

إذ استسلم الاثنان، وانقادا لأمر الله عزوجل، ورضيا بالتضحية الجليلة في سبيل الله الجليل.

تضحية الوالد الشيخ بولده اليافع البكر الوحيد، وتضحية هذا الولد الحليم المطيع بنفسه.

واستبشر الخليل عليه السلام بنداء ربه الجليل، وفرح بنجاة ولده إسماعيل، وجاء الفداء عقب النداء..

قال الله تعالى :(وفديناه بذبح عظيم)..

أي: فدى الله سبحانه وتعالى إسماعيل عليه السلام بذبح عظيم سمين ضخم الجثة.

فذبحه إبراهيم عليه السلام عوضاً عن ذبح ولده..

فجعل الذبح فداءً له، وخلصه من الذَّبح.

هذا وفي اللغة يقال: فداه يفديه فِدًى وفَدًى وفِداءً بمعنى: استنقذه بمالٍ أو غيره، فخلصه مما كان فيه..

والمنقِذ: فادٍ، والمستنقَذ: مَفدِي.

والفدية: هو المال ونحوه المدفوع لتخليص المفدي، ويسمى: الفداء.

قال تعالى:﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

والفدية أيضاً تُطْلَق على ما يقي به الإنسان نفسه من مال ونحوه يبذله في عبادة قصَّر فيها.. قال تعالي في كفَّارة الصيام:﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وقال تعالى في حَلْق الحاجِّ رأسَه:﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

ويقال: فدَّاه بنفسه وفدَّه، إذا قال له: جُعِلتُ فِداك..

وافتدى: إذا بذل عن نفسه.

والمفاداة: هي أنْ يَرُد أسرى العدى ويسترجع منهم مَن في أيديهم.

ويقال: فَدى: إذا أعطى مالاً وأخذ رَجُلاً.

وأفدى: إذا أعطى رَجُلاً وأخذ مالاً.

وفادى: إذا أعطى رَجُلاً وأخذ رَجُلاً.

(انظر المفردات في غريب القرآن ٣٧٦، والمصباح ٤٦٥، واللسان ١٤٩/١٥).

قال تعالى: (وفديناه بذبح عظيم).

الذِّبْح. بكسر الذال: اسم لما يذبح. جاء في التسهيل (١٩٦/٢):

(وأراد به هنا الكبش الذى فُدِي به إسماعيل عليه السلام، وروي: أنه من كباش الجنة).

والكبش: هو فحل الضأن في أي سِنٍّ كان، والجمع: أكبُش وكِباش وكُبوش (المعجم الوسيط ٧٧٤/٢).

وفى (الكشاف ٥٥/٤):(وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الكبش الذي قرَّبه هابيل فقُبل منه، وكان يرعى في الجنة حتى فُدِي به إسماعيل عليه السلام) وفي البحر المحيط ٣٧١/٧:

وقال الجمهور: هو كبش أبيض أقرن أقنى، ووصف بالعظيم، قال مجاهد: لأنه متقبل يقيناً، وقيل: لأنه كان من عند الله، وقيل: لأنه لم يكن عن نسل بل عن التكوين.

وفي تفسير ابن كثير ١٦/٤: (عن علي رضي الله عنه كان الكبش أبيض أعين أقرن قد رُبط بسَمُرة في ثبير).

وفي قصص الأنبياء لابن كثير: ١٣٥: (عن سعيد بن جبير: كان الكبش يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير، وكان عليه عهن أحمر، أي: صوف لونه أحمر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثُغاء.. فذبحه.

(وثبير): جبل بين مكة ومنى، ويُرى من مِنى، وهو على يمين الداخل منها إلى مكة (المصباح ٨٠).

وفي الكشاف ٥٦/٤: (لما نودي:(ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا).. فنظر فإذا جبريل عليه السلام معه كبش أقرن أملح، فأتى المنحر مِن منى فذبحه).

وروي.. أنَّ الكبش هرب من إبراهيم عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه.. فبقيت سُنَّة في الرمي.

وروي.. أنه عليه السلام رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده.

وروي.. أنه لما ذبح إبراهيم الكبش، قال جبريل: الله أكبر، الله أكبر.

وقال الذبيح: لا إله إلا الله، والله أكبر، فقال إبراهيم: الله أكبر، ولله الحمد، فبقي سُنة.

وقد استشهد الإمام أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية:(وفديناه بذبح عظيم).. فيمن نذر ذَبح ولده: أنه يلزمه ذبح شاة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لو تمَّتْ تلك الذبيحة - أي ذبح إسماعيل عليه السلام - لكانت سُنة، ولذبح الناس أبناءهم.

وفي مسند الإمام أحمد(١٦٢٠١): أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة قال لعثمان بن طلحة سادن الكعبة:

(إنِّي كنتُ رأيتُ قرنَيْ الكبش حين دخلتُ البيتَ، فنسيتُ أنْ آمرك أنْ تُخمرَهما فخمِّرْهما فإنه لا ينبغي أنْ يكون في البيت شيء يشغل المصلي) وخمرهما.. أى استرهما وغطهما بخمار.

وفى قصص الأنبياء لابن كثير ١٣٦ وفي التفسير ١٧/٤:

قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتي احترق البيت فاحترقا.

قال ابن كثير: وهذا وحده دليل مُستقِلٌ علي أنَّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام لأنه كان المقيم بمكة، وإسحاق عليه السلام لا يُعلم أنه قدِمها في حال صغره.

قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾.

تركنا هنا معناه: أبقينا، وهو فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بضمير الفاعلين وجمع للتعظيم إذ المراد به هو الله جلَّ جلاله.

والضمير فى (عليه) يعود على إبراهيم عليه السلام، و (الآخِرين) أي: الباقين إلى آخر الزمان، ومفعول (تركنا) عند جمهور المفسرين محذوف تقديره: ثناءً حسناً.

فالمعنى: أبقى الله تعالي على إبراهيم ثناءً حسناً جميلاً فى الباقين غابر الدهر إلي يوم الدين فالجميع يثْنون عليه.. فلا أحد من العالمين يذكره بسوء.

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾..

برفْع سلام على الابتداء فهو كلام مستأنف عند الجمهور، والمعنى:

سلام دائم عاطر كريم على إبراهيم، يقتدي به البشر.

وفى تفسير النسفي ١٣٣/٣: (جعل ﴿سَلَامٌ﴾ مفعولاً به لـ ﴿تركنا﴾ ورُفِع لأنه من الكلام المحكي، والمعنى: أن الأمم يسلمون عليه تسليماً ويَدْعُون له).

هذا و (الآخرون) مفرده: آخر.. بكسر الخاء وهو على وزن: فاعل والآخر خلاف الأول ومقابله قال تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

والآخر مصروف، ويطابق في الإفراد والتثنية، والتذكير والتأنيث، تقول مثلاً: أنتَ آخرٌ خروجاً ودخولاً، وأنتما آخران، وأنتم آخرون وأنتِ آخرة.. (والآخر) من أسماء الله تعالى.. ومعناه: الباقي بعد فناء خَلقه.. قال تعالى:﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو يمجد الله:

(أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنتَ الآخر فليس بعدك شيء...). (أخرجه مسلم وأحمد).

هذا وأمَّا الآخَر بفتح الخاء فهو على وزن أفعل إذ أصله: أأخر.

فمعناه: غير وهو غير مصروف قال تعالى:﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢].

وآخر يجمع للعقلاء على آخَرين ولغير العقلاء على أواخر، والأنثى: أخرى وجمعها: أُخَر وأخريات.

وفي آخِر قصة الذبح والفداء قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

فلم يذكر هنا (إنَّا) وذلك لتقدم ذِكره في قصة إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات فبعد ما تلَّ ولده للجبين قال تعالى:﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

هذا وفي هذه القصة تكرر ذِكر الجزاء مرتين مبالغة فى الثناء على أبي الأنبياء ثم علل ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: الراسخين فى الإيمان مع الإيقان والاطمئنان.

فالله سبحانه وتعالى يجزى عباده وفق سننه العادلة..

فلا يمنح تقديراً إلاَّ باختبار، ولا يرفع درجة إلاَّ بعد تحميص.

ولئن كان بلاء سيدنا إبراهيم فادحاً، وكان اختباره ثقيلاً.

فإن جزاء الله تبارك وتعالى كان عظيماً، وكان تكريمه سبحانه جزيلاً..

قال تعالى:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨ - ١١١].

صلوات ربى وسلامه على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثالثاً.. بناء بيت الله الحرام:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

المعنى: اذكر يامحمد لقومك رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعد البيت، بيت الله الحرام، وقيامهما ببنائه على أساسه وقواعده..

وهما يدعوان الله تعالى في خضوع وخشوع قائلين:

ياربنا تقبل منا عملنا هذا، وتقرُّبنا إليك ببناء هذا البيت، واجعل عملنا خالصاً لوجهك الكريم، فإنك أنت سبحانك السميع لدعائنا، وأنت العليم بنياتنا.

أيها الإخوة الأكارم.. وإذا تأملنا هذه الآية الكريمة وجدنا فيها عدداً من اللمحات اللغوية واللطائف التعبيرية.. أحاول جهدي وبتوفيق الله تعالى أن أتناول بعضها فيما يلي:

ففى قوله تعالى:﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ﴾ جاء التعبير بصيغة المضارع، وهو حكاية عن الرفع الواقع فى الزمن الماضى المتقدم على زمان نزول الوحي على نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم..

وهذا التعبير من محاسن البيان ولطائف الأسلوب.. إذ فيه استحضار الصورة الماضية، وكأنها مشاهدة بالعيان.

فكأنّ السامع أو القارئ ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع أمام عينيه،

والبنّاء هو إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام.

هذا و (القواعد) جمع.. واحدها (قاعدة) وهي الأساس والأصل لما فوقها وقواعد البيت أساساته.. وهي صفة بمعنى الثابتة، ثم صارت بالغلبة من قبيل الأسماء بحيث لا يذكر لها موصوف ولا يقدر (تفسير حدائق الروح والريحان ٢/٢٨٤).

وفي تفسير الكشاف ١/١٨٧:

(رَفْع القواعد أى: البناء عليها لأنها إذا بُني عليها نُقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، وتطاولت بعد التقاصر.. فيوجد الرفع حقيقة إلا أنَّ أساس البيت واحد.

وقد عبَّر القرآن الكريم عن الأساس بلفظ (القواعد) باعتبار أجزائه فكأنَّ كل جزء من الأساس أساس وقاعدة لما فوقه).

و (القواعد) كانت موجودة قبل بناء إبراهيم، وكانت غائصة فى الأرض إلى منتهاها.. والله تعالى قد أمر خليله إبراهيم أنْ يبني البيت، وبوَّأ جلَّ جلاله لإبراهيم مكان البيت بمكة حيث وضع ابنه إسماعيل وأمه هاجَر عليهما السلام من قبل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦] قال الإمام النسفى (٢/٤٣٥):

(وقد رفع البيت إلى السماء أيام طوفان نوح عليه السلام، وكان من ياقوتة حمراء - فأعلمَ الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها فكنست مكان البيت فبناه على أُسِّه القديم).

وقوله تعالى: ﴿الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ أى: بيت الله وهو الكعبة المشرفة.. والجار والمجرور يحتمل أنْ يكون متعلقاً بيرفع، ويحتمل أنْ يكون فى موضع الحال من القواعد.. أي يرفع إبراهيم القواعد حالة كونها من البيت.

هذا وجاء التعبير القرآني: ﴿الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ ولم يأت:(قواعد البيت) لأنَّ فى التعبير الأول.. إبهام (القواعد) ثم توضيح وتبيين (من البيت)..

والإيضاح بعد الإبهام يدل علي التضخيم والتعظيم وكيف لا؟ والقواعد قواعد بيت الله الحرام! فما أعظمها من قواعد وما أفخم شأنها!!

هذا (وإسماعيل) هو ابن إبراهيم البكر وأمه هاجر القبطية.. وفي حادثة بناء البيت صرّح القرآن الكريم باسم إسماعيل ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ على حين أنه في (حادثة الذبح والفداء) لم يذكر إسماعيل إلا تلميحاً وتضميناً.. مما جعل اليهود يزعمون أنَّ الذبيح هو إسحاق.. وقد فنَّدتُ زعمهم هذا من قبل ولله الحمد والمنة.

و(إسماعيل) في هذه الآية جاء معطوفاً على (إبراهيم) فهما مشتركان في رفع القواعد ولكنّ تأخير (إسماعيل) عن المفعول (القواعد) فيه إشارة إلى أنَّ الأصل فى الرفع هو إبراهيم، وأنَّ إسماعيل تبع له ومساعد.

وروي أن إسماعيل كان يناول إبراهيم الحجارة وهو يبنيها، والحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم لرفع البناء سماه الله تعالى في كتابه العزيز (مقام إبراهيم) دون إسماعيل فإبراهيم هو البنّاء وإسماعيل هو المساعد.. وقد جاء ذكر المقام مرتين..

الأولى.. في سورة البقرة ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

والمرة الثانية في سورة آل عمران ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وفى صحيح الإمام البخاري (٣١٨٤):

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ إبراهيم عليه السلام جاء بعد ذلك مكة، وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه، قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد- من المصافحة والعناق وبثِّ الأشواق..

ثم قال الوالد: ياإسماعيل إنَّ الله أمرني بأمر!

فقال الولد: فاصنع ما أمرك به ربك.

قال إبراهيم: وتعينني على ذلك؟ قال إسماعيل: وأعينك.

قال إبراهيم: فإنَّ الله أمرني أنْ أبني هنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها.

قال الراوي: فعند ذلك رفعا عليهما السلام القواعد من البيت..

فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وجعلا يبنيان وهما يقولان:

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

جاء التعبير هنا (تقبل) دون (اقبل) إشارة منهما عليهما السلام إلى اعترافهما بالعجز والانكسار والتقصير في العمل.. فهما يسألان من الله تعالى التفضل بقبول عملهما وعدم ردّه.

فوقوع العمل موقع القبول عند المخدوم ألذُّ عند الخادم العاقل من إعطاء الثواب عليه.

هذا وكان أحد الصالحين عندما يقرأ: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ يبكي وهو يقول: ياخليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق خائف أنْ لا يتقبل منك؟! عليك صلوات ربى وسلامه.

والإمام ابن كثير يقول: هذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخُلَّص في قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

أي: يعطون ما أعطَوا من الصدقات والنفقات والقربات، وقلوبهم خائفة أن لا يتقبل منهم.(تفسير ابن كثير ١/١٧٥).

وعن السيدة عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما قالت:

سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾: أهمُ الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال صلى الله عليه وسلم: لا يابنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلوّن ويتصدقون وهم يخافون أنْ لا تقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات) (سنن الترمذى ٢٥٣٧).

وختم إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام دعاءهما بقولهما:﴿ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ قال أبو حيان في البحر المحيط ١/٣٨٨:

وهاتان الصفتان مناسبتان هنا غاية التناسب إذ صدَر منهما عليها السلام عملٌ وتضرُّع فهو سبحانه (السميع) لضراعتهما وهو سبحانه (العليم) بنياتهما في إخلاص العمل.

وتقدمتْ صفة السميع على صفة العليم مع أنَّ سؤالهما التقبل كان متأخراً عن العمل وذلك للمجاورة.. أي لتجاور الصفة المتقدمة السؤال المتأخر.. وذلك نحو قوله تعالى:﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وتأخرتْ صفة العليم لكونها فاصلة فتوافق مابعدها من فواصل:﴿ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧ – ١٢٩].

فسبحان الله العظيم.. تجلت حكمته وتناهت بلاغة كلامه.. ليس كمثله شيء وليس كمثل كلامه كلام..

قال الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

أيها الإخوة الأكارم في الآية السابقة دعا إبراهيم وإسماعيل أنْ يتقبل الله منهما ما يقومان به من رفع قواعد بيته الحرام، وأنْ يجعل عملهما خالصاً لوجهه الكريم.. وفى آية اليوم توجَّها عليهما السلام إلى الله الكريم في خضوع وخشوع بأربع دعوات، لأنفسهما ولذريتهما.. وصدَّرا الدعاء بهذا النداء (ربنا) أي ياربنا.

والدعوة الأولى:

﴿ وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾.. أي: خاضعَين لك، منقادين لحكمك، مخلصين أوجهنا بالتوحيد والعبادة لك لا لغيرك، ولا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك.

قال أبو حيان في البحر المحيط ١/٣٨٨:

المعنى: أدِمْ لنا ذلك؛ لأنهما عليهما السلام كانا مسلمَين مستسلمين في

زمان صدور هذا الدعاء منهما.

وقال النسفي في تفسيره ١/ ١٣٠:

المعنى: زدنا إخلاصاً، وزدنا إذعاناً لك.

قلت: وهذه حال الأنبياء عليهم السلام في إرشاد الناس كيفية الدعاء، وفي تعليمهم صيغ الدعاء، فحُقَّ للناس أنْ يقتدوا بالرسل فيسألوا الله عزوجل الثبات على الإيمان، والزيادة في الخضوع وفي الإخلاص.

الدعوة الثانية:

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾.

أي: واجعل ياربنا من ذريتنا وأولادنا جماعة مسلمة لك، منقادة لإمرك، خاضعة لعظمتك.

و (من) هنا.. تبعيضة، ولم يعمِّما عليهما السلام وذلك بتعليم الله تعالى لهما وبتنويره قلوبهما أنَّ من ذريتهما المسلم المحسن، والكافر الظالم لنفسه، لذا دعَوَا هنا بالتبعيض ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا ﴾ ولم يعمما ﴿ وَاجْعَل ذُرِّيَّتِنَا ﴾ وخصَّا عليهما السلام الذرية بالدعاء لكونهم أحق بالشفقة وأولَى بالحنُو؛ ولأنَّ في صلاح نسل الصالحين نفعاً كثيراً لمتبعيهم؛ إذ النسل الخاص يكون سبباً لصلاح عامة الناس.. وبهذا يكثر ثواب الداعين.

قال أبو حيان: والذرية هنا قيل: أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: هم العرب لأنهم من ذريتهما.

وقال ابن جرير: والصواب أنه يَعُمُّ العرب وغيرهم؛ لأنَّ من ذرية إبراهيم بني إسرائيل وقد قال الله تعالى:

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

قال ابن كثير (تفسير ١/ ١٨٣): وتخصيص العرب بذلك لاينفي مَن عداهم، ولكن سياق الكلام هنا إنما هو في العرب، ولهذا قال بعد هذه الآية: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩] والمراد بذلك هو محمد صلى الله عليه وسلم.

والدعوة الثالثة:

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].. أي: بصِّرنا ياربنا شرائع عبادتنا، وعرِّفنا مناسك حجِّنا الأماكن منها والأفعال.

قال تاج القراء الكرماني: إنّ كان المراد (بالمناسك) أعمال الحج.. كالطواف والسعي والوقوف والصلاة.. فتكون (المناسك) جمع (مَنسَك) بفتح السين، وهو مصدر، وجاز جمع المصدر هنا لاختلاف الأعمال في الحج. وإنْ كان أراد [بالمناسك] المواقف والمواضع التي يقام فيها شرائع الحج، كمنى وعرفة والمزدلفة.. فتكون المناسك جمع [منسِك] بكسر السين وهو اسم مكان، وهو موضع العبادة.

قال ابن فارس في مقاييس اللغة ٢/٥٥٦:

نسك: النون والسين والكاف: أصل صحيح يدل على عبادة وتقرُّب إلى الله تعالى، ورجُل (ناسك): عابد، والذبيحة التى يتقرب بها إلى الله عزوجل تسمى (نسيكة). و (المنسَك) بفتح السين: الموضع يذبح فيه النسائك، ولايكون ذلك إلا في القربان.

قال: وزعم ناس أن المنسِك بكسر السين: المكان يألفه، وفيه نظر.

وقال (الراغب في المفردات ٤٩٣):

(النسُك): العبادة، و (الناسك): العابد، واختص بأعمال الحج، و(المناسك): مواقف النسك وأعمالها، و (النسيكة) مختصة بالذبيحة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

(نُسك) ذبيحة يذبحها وأقلها شاة.

وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧] منسكاً أي شريعة ومتعبداً ومنهاجاً.

وقال تعالى:﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] (نُسكي) أي: ذبحي وقيل: عبادتي.

هذا وروي عن علي كرم الله وجهه: أنَّ إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء البيت ودعا بهذه الدعوة، بعث الله إليه جبريل عليه السلام فحج به، وانطلق به إلى الصفا والمروة ومنى والمشعر الحرام وعرفات، وقال له: أعرفت ما أريتك؟ قال: نعم. (تفسير ابن كثير ١/١٨٤).

﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ تب: فعل أمر من تاب يتوب توباً وتوبة ومتاباً، وفي المقاييس ١/١٨٤:

التاء والواو والباء.. كلمة واحدة تدل على الرجوع، يقال: تاب عن ذنبه أي: رجع عنه. (وفي المفردات ٨٣):

التوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أنْ يتدارك من الأعمال بالإعادة.

(وفي التعريفات للجرجاني ٧٤):

التوبة: هي الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب.

(وفي مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٠٦):

التوبة: هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى التوبة، وبهذا استحق التائب أنْ يكون حبيب الله، فإنَّ الله يحب التوابين ويحب المتطهرين؛ ولهذا كانت التوبة غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته.

(وفي كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوني ١/٢٣١): التوبة أنواع:

فتوبة الإنابة: أنْ تخاف من الله؛ من أجل قدرته عليك.

وتوبة الاستجابة: أنْ تستحي من الله؛ لقربه منك.

والتوبة الصحيحة: هي إذا اقترف العبد ذنباً تاب عنه بصدق في الحال.

والتوبة الفاسدة: هي التوبة باللسان مع بقاء لذة المعصية في الخاطر.

والتوبة النصوح: هي تنزيه القلب عن الذنوب، وعلامتها: أنْ يكره العبد المعصية ويستقبحها فلا تخطر له على بال، ولاترد فى خاطره أصلاً.

(وقال الإمام النووى في رياض الصالحين ١١ بتصرف):

التوبة: واجبة من كل ذنب.. فإنْ كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى فلها شروط ثلاثة:

أنْ يقلع عن المعصية، وأنْ يندم على فعلها، وأنْ يعزم على ألاَّ يعود إليها أبداً، فإنْ كان الذنب يتعلق بحقِ آدمي فعليه أنْ يبرأ من حق صاحبه.. وذلك: بردِّه إليه، أو طلب عفوه، أو أنْ يستحله منه، إذا لم يترتب علي ذلك مفسدة أعظم.

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(إنَّ الله يقبل توبة العبد مالم يُغرغر) (رواه الترمذي ٣٥٣٧).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(كل ابن آدم خطَّاء، وخير الخطائين التوابون) (الترمذي ٢٤٩٩ وابن ماجه ٤٢٥١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

(والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة) (صحيح البخاري ٦٣٠٧).

(قال الراغب ٨٣):

والتائب: يقال لباذل التوبة، ولقابل التوبة.. فالعبد تائب إلى الله، والله تائب علي عبده.

والتواب: العبد الكثير التوبة، والله التواب أي كثير قبول توبة عباده حالاً بعد حال.

قال الله تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

(وتب علينا).. أي: سامحْ لنا تقصيرنا في طاعتك وتجاوزْ عنَّا..

وذلك لأنَّ العبد وإن اجتهد في طاعة ربه، فإنه لا ينفك عن التقصير من بعض الوجوه إما علي سبيل السهو أو علي سبيل تَرك الأولى.

فلأجل ذلك لا لذنبهما كان هذا الدعاء منهما (وتب علينا) فهما معصومان علي نبينا وعليهما الصلاة والسلام.

وقيل: تب على ظَلمة أولادنا حتي يرجعوا إلى طاعتك.

وقيل: إنهما أرادا أنْ يَسُنا للناس ويعرّفاهم أنَّ بيت الله وما يتبعه من المناسك والمواقف أمكنة التخلص من الذنوب، وطلب التوبة من علام الغيوب.

(إنك) ياربنا ﴿أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي كثير التوبة، عظيم المغفرة للتائبين، واسع الرحمة كثير الإنعام على عبادك.

(وفى البحر المحيط ٣٩٢/١): وهاتان الصفتان ﴿التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ مناسبتان هنا، لأنَّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام دعوا الله بأنْ يجعلهما مسلمين له، ومن ذريتهما أمة مسلمة له، وأنْ يريهما مناسكهما، وأنْ يتوب عليهما.. فناسب ذكر التوبة عليهما أو الرحمة لهما.

هذا وتقديم ذكر التوبة على الرحمة مناسب لمجاورة الدعوة الأخيرة ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ﴾، وتأخير صفة الرحمة مناسب لعمومها فالتوبة من الرحمة، والرحمة أعم منها.. وأيضاً لتتفق الفاصلة في هذه الآية مع ماقبلها (العليم) ومع مابعدها (الحكيم).

الدعوة الرابعة:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

المعنى العام: ياربنا وأرسل في الأمة المسلمة من ذريتنا أهل بلدك الآمن الحرم، رسولاً منهم من أنفسهم ونسبهم، يتلو عليهم آياتك القرآنية، ويبلغهم ما توحي إليه من دلائل وحدانيتك، ويعلمهم القرآن الكريم معانيه وحقائقه، ويعلمهم السُنة المطهرة والحديث الشريف، ويزكيهم ويطهرهم من دنس الشرك وسائر المنكرات، إنك ياربنا أنت العزيز الذى لايقهر ولا يغلب، الحكيم الذى لايفعل إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة والمصلحة العامة فأنت العزيز في ملكك، الحكيم في صنعك.

هذا وقد استجاب الله تبارك وتعالى دعاء خليله إبراهيم ببعثة السراج المنير سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي المضري العدناني، وعدنان ينتهي نسبه إلى سيدنا إسماعيل ابن سيدنا إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.. وقد اتصف صلى الله عليه وسلم بالأوصاف التى وصفة بها إبراهيم عليه السلام في دعوته.

(قال الإمام ابن كثير في التفسير ١/١٨٤):

وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدَر الله السابق فى تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجمين من الإنس والجن.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

والأميون هم العرب لأنهم لا يقرأون ولا يكتبون، فقد اشتهرت فيهم الأمية كما قال عليه الصلاة والسلام:(نحن أمة أمية لانكتب ولا نحسب) (رواه البخاري ومسلم). ولم يبعث الله تعالى إلى مكة وماحولها إلا حبيبه محمداً خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم.

جاء فى (البحر المحيط ١/٣٩٢):

قال الربيع: لما دعا إبراهيم (وابعث فيهم رسولاً منهم) قيل له: (قد استجيب لك وهو كائن في آخر الزمان).

وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:(أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التى رأت حين وضعتنى - وفي رواية حين حملت بي - أنه خرج منها نور ساطع أضاءت له قصور الشام) (أخرجه الإمام أحمد في مسنده).

هذا ونُسبت الدعوة إلى إبراهيم وحده، لأنه الأصل في الدعاء، وإسماعيل تبعٌ له، أو لأنَّ إبراهيم كان يدعو وإسماعيل يؤمِّن على دعائه،

والمؤمِّن داع أيضاً كما قال الله تعالى في موسى وهارون عليهما السلام ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩] وموسى كان يدعو وهارون يؤمّن فنسبت الدعوة إليهما.

وعندما بُعث عيسى ابن مريم عليه السلام بشَّر بالرسول العربي صلى الله عليه وسلم قال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

قال الألوسي في (روح المعاني ٨٦/٢٨):

وأحمد هذا الاسم الكريم علَم لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

صلى الإله ومن يحفُّ بعرشه ❖ والطيبون على المبارك أحمد

هذا وفي (الصحيحين) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قَدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب) والعاقب معناه: الذي لانبيَّ بعده.

قال المفسرون: بشَّر كل نبي قومه بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما أفرد تعالى ذِكر عيسى عليه السلام بالبشارة في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا صلى الله عليه وسلم.

فبيَّن تعالى أنَّ البشارة به عليه السلام عمت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى آخر أنبياء بني إسرائيل.

هذا وقد جاء التعبير القرآني:(وابعث فيهم رسولاً منهم) بذكر (منهم) وعدم الاقتصار على (فيهم) لأنَّ البعث فيهم لا يستلزم منهم، بل يكون منهم ومن غيرهم.

وجاءت (منهم) في موضع الصفة (لرسولاً) أي كائناً منهم يعرفون وجهه ونسبه ونشأته ويكون هو أشفق على قومه، ويكونون هم أعز به وأشرف، وأقرب

للإجابة.. وصدق الله العظيم القائل في محكم التنزيل ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال تعالى: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾.

أي: يقرأ آيات القرآن، من تلا يتلو تلاوةً يبيِّن حروفه، ويفصح عن ألفاظه، ويتأنى في أدائه، ويرتِّله عليهم ترتيلاً.. فيوقفهم بقراءته على كيفية تلاوته وأدائه.

وجملة (يتلو) في موضع نصب صفة (لرسولا)، وقيل: هي في موضع نصب حال من (رسولا) لأنه قد وصف بقوله (منهم) فتخصصت النكرة بالوصف فصحَّ مجيء الحال منها.

وقد أوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم وهو: الكلام المنزل من عند الله تعالى بواسطة جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر بلا شبهة فيه، المعجز بسورة من مثله المجمَع عليه (هداية القاري ٤٣).

وأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأنْ يتلو القرآن على نفسه وعلى قومه وعلى الناس.. قال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

قال تعالي في دعوة إبراهيم عليه السلام:

(ويعلمهم الكتاب) معطوف علي (يتلو عليهم) والمراد بالكتاب القرآن الكريم.. (قال الراغب ٣٩٩) والقرآن: مصدر مثل رجحان، وقد خُص بالكتاب المنزَّل على محمد صلى الله عليه وسلم فصار له كالعلم كما أنَّ التوراة لما أنزل على موسى، والإنجيل على عيسى عليهما السلام.

وتسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم.

فالرسول يعلّم قومه معاني القرآن، ويبين لهم وجوه أحكامه حلاله وحرامه، ومفروضه ومسنونه، ومواعظه وأمثاله، وترغيبه وترهيبه، والحشر

والنشر، والعقاب والثواب، والجنة والنار.

قال (أبو حيان في البحر المحيط ٣٩٢/١): وكان ترتيب التعليم بعد التلاوة لأنه أول مايقرع السمع هو: التلاوة والتلفظ بالقرآن، ثم بعد ذلك تتعلم معانيه، ويتدبر مدلوله، وأسند التعليم للرسول لأنه هو الذي يُلقي الكلام إلى المتعلم فيعلّمه ويفهّمه ويتلطف في إيصال المعاني إلى فهمه.

هذا وفي (التلاوة) إشارة إلى (فن القراءة) وما يتعلق به، وفي (التعليم) إشارة إلى (فن التفسير) وما يتعلق به من توضيح المجمل والمشكل والمبهم والمقادير والأعداد في الفرائض والنوافل قال تعالى:(والحكمة) أي: ويعلمهم الرسول السُنّة ويبين لهم أحكام الشريعة، وفي (الحكمة) إشارة إلى (فن الحديث) وما يتعلق به.

وكل كلمة وعظتك أو دعتك إلى مكرمة، أو نهتك عن قبيح فهي حكمة (البحر ٣٩٣/١).

أيها الأخوة الأكارم وأعود معكم إلى آية الحلقة لإكمال النظر فيها: قال تعالى:﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي: ويطهرهم الرسول باطناً وظاهراً.. باطناً من أرجاس الشرك وأنجاس الشك، وظاهراً.. بالتكاليف التي تمحص الآثام وتوصل الإنعام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: التزكية: الطاعة والإخلاص.

وقيل: يأخذ منهم الزكاة التي تكون سبباً لطهرتهم،

وقيل: يدعوهم إلي ما يصيرون به أزكياء أتقياء،

وقيل: يشهد لهم بالتزكية.. من تزكية العدول.

هذا وفي (ويزكيهم) إشارة إلى (علم العقائد).

وفي معاجم اللغة (المقاييس ٥٢٩/١، والمصباح ٢٥٤، واللسان ٣٥٨/١٤، والمفردات ٢١٨): زكا.. الزاي والكاف والحرف المعتل: أصل يدل على نماء وزيادة وطهارة.

يقال: زكا يزكو زكاءً وزكُوًا.. أى نما وزاد وصلح وطهر، وهو زكي وهُم أزكياء. وزكَّي يُزكي تزكية: أزكاه ونماه وأصلحه وطهره.

وأصل الزكاة: النمو الحاصل من بركة الله تعالى: ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية، وبزكاء النفس وطهارتها.. يصير الإنسان بحيث يستحق فى الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة.

وذلك بأنْ يتحرَّى الإنسان مافيه تطهيره، وذلك ينسب تارةً إلى: العبد؛ لكونه مكتسباً لذلك، وعليه قوله تعالى:﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩].

وتارة ينسب إلى الله تعالى؛ لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة قال تعالى:﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٩].

وتارة ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم قال تعالى:﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ جاء في (البحر المحيط ٣٩٣/١):

وهاتان الصفتان متناسبتان لما قبلهما لأنَّ إرسال رسول متصف بالأوصاف التي سألها إبراهيم الخليل عليه السلام لاتصدر إلا عمن اتصف بالعزة وهي: الغلبة أو القوة، أو عدم النظير، واتصف أيضاً بالحكمة التى هي: إصابة مواقع العقل.. فيضع الرسالة في أشرف خلقه وأكرمهم عليه: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

هذا وتقدمت صفة (العزيز) على (الحكيم) لأنها من صفات الذات، والحكيم من صفات الأفعال، ولكون (الحكيم) فاصلة كالفواصل قبلها: (العليم، الرحيم، الحكيم).

فسبحان الله العظيم منزل هذا القرآن الحكيم على قلب نبيه الكريم بلسان عربي مبين.

أول بيت وضع للناس:

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦]:

(إنَّ) حرف توكيد ونصب، وقد وردت في القرآن الكريم ألفا وستمائة وتسعاً وسبعين مرة، كما جاء في (معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم ١٢٥).

أولها في سورة البقرة قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦] وآخرها في سورة النصر قال تعالى:﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر: ٣].

و(أول) أفعل تفضيل وهو اسم (إن) وهو مضاف، و(بيت) مضاف إليه، وجملة (وضع للناس) في محل جر صفة لبيت.

(للذي) اللام للتوكيد، و(الذى) خبر إن في محل رفع، وصح الإخبار باسم الموصول (الذى) وهو معرفة عن (أول) وهو نكرة؛ لتخصصه بالإضافة وبالصفة.

وتقدير الكلام: إن أول بيت وضع للناس للبيتُ الذى ببكة.

و(ببكة) الباء ظرفية جارة، وعلامة الجر في بكة الفتحة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث جاء (في تفسير ابن كثير ١/٣٨٣):

بكة، من أسماء مكة على المشهور، قيل: سميت بذلك لأنها تَبُكُّ أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى: أنهم يُذَلّون بها، ويخضعون عندها.

وقيل: لأن الناس يتباكون فيها أي: يزدحمون للطواف والحج.

قال قتاده: إن الله بكَّ بها الناس جميعاً فيصلى النساء أمام الرجال، ولا يُفعل ذلك ببلد غيرها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (بكة) من البيت إلى البطحاء، و(مكة) من الفج إلى التنعيم.

وقال عكرمة: البيت وماحوله (بكة) وماوراء ذلك (مكة).

وقال مقاتل: (بكة) موضع البيت، وما سوى ذلك (مكة).

هذا وفي القرآن الكريم ورد كل من هذين الاسمين مرةً واحدة.

فبكة في آل عمران قال تعالى:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

ومكة في سورة الفتح قال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ [الفتح : ٢٤].

فإنْ كانت بكة: موضع المسجد، ومكة البلد، فمناسبة اختيار كل لفظ في الآية واضحة، إذ أول بيت وضع متعبداً للناس ببكة وهي المسجد ومكان البيت.

ثم الله تعالى بقدرته وتدبيره كفّ وصرف أيدي كفار مكة عن المسلمين بالحديبية القريبة من البلد الحرام، وكف أيدي المسلمين عن المشركين فلم يقع بينهماقتال ببطن مكة البلد الحرام.

هذا وإنْ كان (بكة ومكة) اسمين للبلد الحرام، وهما لغتان فيه والباء والميم يتعاقبان فى العربية فمناسبة الاختيار واضحة أيضاً مع سياق الكلام في كل سورة.

إذ استعمل التعبير القرآني في آية آل عمران (بكة) وفي آية الفتح (مكة) لأنَّ من معاني البك الزحام، (قال الراغب في المفردات ٦٧):

التباكُّ: الازدحام، والناس يزدحمون في المسجد الحرام للطواف بالبيت.

هذا وأكثر ما يكون ذلك في الحج، وآية آل عمران جاءت في سياق الحج قال تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦ – ٩٧].

فإنْ كان اسم بكة بمعنى الازدحام فهو مناسب لشدة ازدحام الناس في الحج للطواف حول البيت وإنْ كان بكة معناه بكٌّ ودقٌّ أعناق الجبابرة فهو مناسب لما ختمت به آية آل عمران:﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾..

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

ومن جحد فريضة الحج فقد كفر وتجبر والله غني عنه وبكة لهم بالمرصاد فهي بكة تبكّهم وتدق أعناقهم.

أما في آية الفتح فقد اختار التعبير القرآني (مكة بالميم، وذلك لأن

السياق هنا ليس في ذكر الحج ومافيه من الازدحام، ولا فيمن كفر وجحد الحج واحتاج إلى بك عنقه، وإنما السياق في سورة الفتح جاء في فك الازدحام وفى كف أيدي مسلمي المدينة المنورة وأيدي كفار مكة المكرمة عن بعضهم البعض عام الحديبية العام السادس من الهجرة النبوية فلم يقع يومها قتال بين المسلمين والمشركين ببطن مكة، فلم يحدث بكٌّ لا بازدحام ، ولا بدق الأعناق فسبحان الله العظيم تجلت حكمته في كل شيء، وتناهت دقة كلامه في كل لفظ، فهنا (مكة) وهناك (بكة) وكل لفظ ناسب سياق موضعه من القرآن الكريم كلام رب العالمين.

أيها الإخوة الأكارم، وإذا كان كثرة الأسماء تدل علي شرف المسمى فإن مكة زادها الله شرفاً وكرامة لها أكثر من خمسين اسماً في كتب التفسير والتاريخ وحسبكم الرجوع إلى (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام) لتقي الدين الفاسي المكي ٤٧/١.

وحسبى هنا أن أذكر لكم أسماء مكة الواردة في القرآن الكريم وهي تسعة أسماء:

(مكة، وبكة، وأم القرى، والقرية، والبلد، والبلد الأمين، والبلدة، ومعاد، والمسجد الحرام) قال الله تعالى:

في سورة الفتح:﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ [الفتح : ٢٤].

وذلك لأنها تملك الجبارين وتذهب نخوتهم، وقيل: لأنها تجذب الناس إليها.

وفي سورة آل عمران:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦].

وذلك من الإزدحام أو بك ودق أعناق الجبابرة.

وفي سورة الأنعام:﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : ٩٢].

وذلك لأنَّ مكة هي وسط الدنيا، وقد دُحيت الأرض من تحتها، فمكة

أعظم القرى شأناً وفي سورة النحل:﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ [النحل : ١١٢].

قال الرازي (١٢٨/٢٠): وهذا مثل أهل مكة كانوا في أمن ورزق وأنعم الله عليهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فكفروا بالنعم وبالرسول.

وفي سورة البلد :﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ [البلد : ١ ، ٢].

أراد بالبلد مكة باتفاق، وأقسم بها تشريفاً لها،وقيّده بحلول وإقامة الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إظهاراً لمزيد فضله، وإشعاراً بأنَّ شرف المكان بشرف أهله.

وفي سورة التين:﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ [التين : ١ – ٣].

أقسم الله هنا بمحالّ ثلاث هي مواضع الديانات السماوية الكبرى:

(النصرانية) حيث بيتُ المقدس ومنبت التين والزيتون حيث ولد المسيح ابن مريم عليه السلام، (واليهودية) حيث طور سيناء الجبل الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام، (والإسلام) حيث البلد الأمين الذى ولد فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم وتلقى فيه الوحي المكي.

وفي سورة النمل:﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ [النمل : ٩١].

فهذه البلدة هى مكة جعلها الله حرماً آمناً، لايسفك فيها دم، ولايظلم فيها أحد، ولايصاد صيدها ولايختلى خلاها.

وفى سورة القصص:﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص : ٨٥].

معاد : مكة وهذا وَعدٌ، من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بفتح مكة ورجوعه إليها بعد أن أُخرج منها وهاجر.

وفي سورة التوبة:﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة : ٢٨].

قصد بالمسجد الحرام الحرم كله، وأريد مَنع المشركين عن الحج والعمرة

بعد عام تسع من الهجرة لأنهم نجس لخبث باطنهم، وفساد عقيدتهم، وكفرهم بالله تعالى فكأنهم النجاسة بعينها مبالغة في الوصف.

قال تعالى:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

في معجم اللغة (المصباح ٦٧، والمقاييس ١٦٨/١، والمفردات ٧٥، واللسان ١٤/٢):

(بيت) من: بات يبيت، ومن بات يبات، ففعله من بابي: ضرب وتعب، والبيت: هو المأوى والمآب والمقر ومجمع الشمل، وأصل البيت: مأوى الإنسان بالليل، لأنه يقال: بات فلان يفعل كذا، أي: أقام بالليل وسهره يفعل طاعة أو معصية، كما يقال: ظل بالنهار يفعل كذا، ثم قيل للمسكن: بيت من غير اعتبار الليل فيه.

وجمع بيت: أبيات وبيوت، لكن البيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشِّعر. قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النور: ٢٧] وجمع الجمع: بيوتات، ويغلب على بيوت العز والشرف.

هذا والبيت، يتُخَذ من حجر أو مدر أو صوف أو وبر أو جلود أو زجاج وغير ذلك وقد يكون البيت أيضاً للعنكبوت وللضب وغيره من ذوات الحجر.

قال تعالى:﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

هذا ويطلق البيت أيضاً على: فَرش البيت ومتاعه، وعلى القبر، وعلي الكعبة، وعلى مكة، وبيت الرجل: امرأته، وبيته: عياله، وبيت الله: المسجد.

قال تعالى:﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [النور: ٣٦].

هذا وكلمة (بيت) وردت في القرآن الكريم ثماني وعشرين مرة، منها خمس عشرة مرة قصد بها بيت الله الحرام.

أولها في سورة البقرة قال تعالى:﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة: ١٢٥].

مثابة، أي: لايقضي الناس فيه وطراً وحاجةً فينتهون، بل هم يأتون بيت الله من كل صوب ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون ويثوبون إليه وهكذا فهو مثابة لهم.

وآخر المرات في سورة قريش قال تعالى:﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش: ٣، ٤].

الأمر فى (فليعبدوا) موجه إلى قريش جيران بيت الله الحرام، وقد يسّر الله لهم ما كانوا يألفونه من رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام للتجارة، لأنهم في بلاد لا زرع فيها ولاضرع، وكانوا فى رحلتهم آمنين لايتعرض لهم أحد بسوء، فالله تعالى رب هذا البيت أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد، وآمنهم في الرحلتين من خوف عظيم كانوا فيهما من قبل الرحلتين.

فهذه نعمة عظيمة من الله تعالى توجب عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وأن يشكروه ولا يكفروا له نعمة.

قال (الفخر الرازى في تفسيره الكبير):

(اعلم أن الإنعام على قسمين: أحدهما: دفع ضر، وهو ماذكره الله في سورة الفيل من ردّ كيد أصحاب الفيل فى نحورهم، وإرساله عليهم من جنوده طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فأهلكهم عن بكرة أبيهم، والقسم الثاني من إنعام الله تعالى هو جلب النفع، وهو ما ذكره في سورة قريش، فلما دفع الله عن أهل بيته الضر وجلب لهم النفع وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية وأداء الشكر:﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾.

هذا وقوله:(وضع للناس) أي جعل متعبداً لعموم الناس، وفي اللغة (الناس): اسم جمع لبني آدم، واحده: إنسان من غير لفظه، وهو مشتق من: ناس ينوس إذا تدلى وتحرك، وقيل لبعض ملوك حمير: ذو نُواس: لضفيرتين كانتا تنوسان على عاتقيه، وقد تطلق كلمة ناس على الجن أيضاً، ولكن غلب استعمالهما فى الإنس وقد يراد بها الفضلاء دون

غيرهم مراعاة لمعني الإنسانية.

(وأول الناس) هو آدم عليه السلام وهو أبو البشر الأول، وأول بيت وضع للناس للذى ببكة.

وفي (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (٨١٨): كلمة الناس وردت في كتاب الله العزيز ٢٤٢ مائتين واثنتين وأربعين مرة، أولها في سورة البقرة قال تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨].

وآخرها في سورة الناس قال تعالى:﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [الناس: ٦].

والمراد (بأول بيت) هو: الكعبة المشرفة بالمسجد الحرام في مكة المكرمة.

قال الإمام ابن كثير في التفسير (٣٨٣/١):(أول بيت وضع للناس أي لعموم الناس لعبادتهم ونُسكهم يطوفون به، ويصلون إليه، ويعتكفون عنده للذي ببكة يعنى: الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل عليه السلام).

هذا وقوله تعالى:(مباركاً وهدًى): حالان من الضمير فى (وضع) والذى هو في الحقيقة صلة الموصول تقديره: الذي استقر في بكة مباركاً وهدًى.

(قال الإمام أبو حيان في تفسير البحر المحيط ٦/١):

أما بركة البيت: فلما يحصل فيه من الثواب، وتكفير السيئات لمن حجه واعتمره، وطاف به، وعكف عنده.

وقيل يجوز أنْ تكون بركته ما ذكر في قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧].

وقيل: بركته: أنَّ من دخله أمن.

وأما كونه (هدى) فمعناه: قبلة، وقيل: رحمة، وقيل: صلاح، وقيل: بيان ودلالة للعالمين على الله تعالى وذلك بما في البيت من الآيات التى لايقدر عليها غير الله تبارك وتعالى).

هذا وروى الإمام أحمد (المسند ١٦٠/٥-١٦٦): عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال عليه الصلاة والسلام: (المسجد الحرام) قلت: ثم أي؟ قال: (المسجد الأقصى) قلت: كم بينهما؟ قال:

(أربعون سنة) قلت: ثم أي؟ قال:(ثم حيث أدركتك الصلاة فصلِّ فكلها مسجد).

(وفي تفسير البحر المحيط ٣/٥): واختلف في معني كونه (أول بيت وضع للناس) على عدة أقوال:

فقيل: هو أول بيت ظهر على وجه الماء حين خلقت السموات والأرض، وخلقه الله قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدةً بيضاء على الماء، فدحيت الأرض تحته.

وقيل: هو أول بيت بناه آدم في الأرض.

وقيل: لما أهبط آدم، قالت له الملائكة: طف حول هذا البيت، فقد طفنا به قبلك بألفي عام.

وذكر: أنَّ شيث بن آدم هو الذى بنى الكعبة بالطين والحجارة علي موضع الخيمة التى كان الله تعالى وضعها لآدم في الأرض من الجنة.

فعلى هذه الأقاويل يكون قوله تعالى:(إنَّ أول بيت وضع للناس) على ظاهره فهو مذ كان الناس في الأرض، وأول الناس هو أبونا آدم عليه السلام.

هذا وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنه أول بيت حُج بعد الطوفان، فتكون الأولية باعتبار هذا الوصف.

وروي عن علي بن أبى طالب رضي الله عنه: أنه سأله رجل، أهو أول بيت؟ فقال علي: لا قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً، فيه الهدى والرحمة والبركة، فأخذ الأولية بقيد هذه الحال.

هذا وفى قول الله تعالى:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

إشارة ضمينة إلى أنَّ هذا البيت كان موجوداً من قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام لأنَّ الناس كانوا منذ أنْ أُهبط سيدنا آدم عليه السلام إلى الأرض.

وفي قوله تعالى:﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ [البقرة: ١٢٧].

إشارة قوية إلى أنَّ هذا البيت كان مبنياً قبل بناء سيدنا إبراهيم، ثم

درس وبقيت قواعده، وإبراهيم رفع القواعد من البيت.

وإذا كان أيها الإخوة الكرام في هذه الآية ذكر صريح بأنَّ إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى بيت الله الحرام، فاعلموا رحمكم الله وإياي أنْ ليس فى القرآن الكريم ذكر للذى بنى البيت قبل إبراهيم الخليل.

ولكن فى كتب التاريخ وشروح الحديث عدة روايات تذكُر بناة البيت وعُمّاره قبل إبراهيم عليه السلام.

من ذلك ماجاء فى (القسطلاني على البخارى) وما جاء فى (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام) أنَّ الكعبة المشرفة بنيت عشر مرات، ثلاث منها قبل بناء إبراهيم وهي:

الأولى: بناء الملائكة، والثانية: بناء آدم عليه السلام، والثالثة: بناء شيث ابن آدم.

فلم يزل البيت معموراً حتي أغرقه الطوفان أيام نوح عليه السلام، أو رفعه الله إلى السماء وأبقى قواعده.

ومن ذلك أيضاً ماجاء فى (أخبار مكة لأبي الوليد الأزرقى ٣٢/١):

قال مجاهد: لقد خلق الله عزوجل موضع هذا البيت قبل أنْ يخلق شيئاً والأرض بألفي سنة، وإنَّ قواعده لفي الأرض السابعة السفلى.

وفيه (٤٠/١) قال كعب الأحبار: إنَّ البيت الحرام أنزله الله تعالى من السماء ياقوتةً مجوفة مع آدم عليه السلام، فقال له: ياآدم إنَّ هذا بيتي أنزلته معك، يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلَّى حوله كما يصلى حول عرشي، ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة ثم وُضع البيت عليها.

فلما أغرق الله قوم نوح رفعه الله إلى السماء وبقيت قواعده.

وفيه (٣٦/١): عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض من الجنة، قال آدم: يارب ما لي لا أسمع أصوات الملائكة؟ قال: خطيئتك ياآدم، ولكن اذهب فابن لى بيتاً، فطُف به واذكرني حوله كنحو ما

رأيت الملائكة تصنع حول عرشي، فأقبل آدم عليه السلام يتخطّا، فطُويت له الأرض حتى انتهى إلى مكة فبنى البيت الحرام.

وإن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أُسٍ ثابت إلى الأرض السفلى فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لايطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلاً، وأنه بناه من خمسة أجبل:

من لبنان، وطور زَيتا، وطور سينا، والجوديّ، وحراء، حتى استوى على وجه الأرض.

(قال الفاسي ١/ ٩١: وفى (مصنف عبد الرزاق: أن آدم عليه السلام بنى البيت من هذه الخمسة الجبال، وأن مَربِضه كان من حراء.

قال المحب الطبري: المربض هنا هو الأساس المستدير بالبيت).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فكان أول من أسس البيت، وصلى فيه، وطاف به آدم عليه السلام، حتى بعث الله الطوفان، فدرس موضع البيت في الطوفان، حتى بعث الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فرفعا قواعده وأعلامه، والبيت بحذاء البيت المعمور لوسقط البيت المعمور ماسقط إلا عليه.

إخوتى الكرام، وقد وردت عدة روايات تحكى تفاصيل بناء إبراهيم وإسماعيل للبيت أذكر لكم هنا خلاصة موجزة لها مأخوذة من عدة مراجع أهمها:

(تفسير ابن كثير ١/ ١٧٨، وأخبار مكة للأزرقى ١/ ٣٨، وشفاء الغرام للفاسي ١/ ٩١، وإعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام لمحمد صالح الشيبي العبدري ١٠٣، والتاريخ المفصل للكعبة المشرفة قبل الإسلام لعبد القدوس الأنصاري ٢٣).

فأقول والله المستعان:

قال وَهبُ بن مُنَبِّه: فلما بعث الله تعالى إبراهيم خليله عليه السلام طلب الأساس الأول للبيت، فلما وصل إليه ظلل الله تعالى له مكان البيت بغمامة فكانت

حفاف البيت الأول، ثم لم تزل راكدة علي حفافه تُظِلُّ إبراهيم وتهديه مكان القواعد.

وفي رواية:

وفي الغمامة مثل الرأس يتكلم فقال: ياإبراهيم ابنْ على ظلى أو علي قَدري ولا تزد ولا تنقص حتى رفع القواعد قامة، ثم انكشفت الغمامة وانكشطت فذلك قوله الله تعالى:﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ [الحج: ٢٦].

وعن الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه: أن إبراهيم عليه السلام أُمر ببناء البيت، فضاق به ذرعاً فلم يَدر كيف يبني، فأرسل الله تعالى إليه السكينة، وهى ريح حجوج لها رأس، حتي تطوقت على موضع البيت كطي الحجفة أي: التُرس – فبنى عليها، وكان يبني كل يوم ساقاً، ومكة يومئذ شديدة الحر.

قال رضي الله عنه:

فلما بلغ إبراهيم موضع الحَجر قال لإسماعيل: اذهب فالتمس حجراً حسناً أضعه هاهنا، ليهتدي الناس به.

وفى رواية: ليكون علَماً للناس يبتدئون منه الطواف.

فانطلق الغلام إلي باطن الوادي فأتاه بحجر فلم يَرضَه إبراهيم، ووجده قد ركَّب (الحجر الأسود) في مكانه، فقال: ياأبت من أتاك بهذا الحجر؟

قال: أتاني به من لا يتّكل على بنائي وبنائك.

وفي رواية: من لم يكلني علي حَجرك! جاء به جبريل عليه السلام من الجنة، وفي رواية: وكان الله قد استودعه جبل أبي قبيس زمن الطوفان.

هذا وكان الحجر يتلألأ تلألؤاً من شدة بياضه، وكان ياقوتةً بيضاء مثل الثَّغامة وإنما اسودَّ لأنه أصابه الحريق مرة بعد مرة في الجاهلية والذى أصاب الكعبة.

قال: فأتما عليهما السلام بناء البيت بالرَّضَم أي: بحجارة بعضها فوق بعض من غير طين ولا جِص ولا قَصَّة أى ولا نورة، ولم يجعلا للكعبة سقفاً.

الجانب الثاني عشر: مقام سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام:

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾

[آل عمران: ٩٦، ٩٧].

(فيه) أي: في هذا البيت الحرام المبارك (آيات بينات) أي: علامات واضحات لا تُلتبس على أحد، ودلالات ظاهرة تدل على شرف البيت، وفضله على سائر المساجد. و(مقام إبراهيم):

أعربه الزمخشري (في الكشاف ١/٣٨٧): عطف بيان لآيات بينات،

وردَّ عليه أبو حيان (في البحر المحيط ١/٧) لأنَّ (آيات) نكرة، و(مقام إبراهيم) معرفة، ولايجوز التخالف في عطف البيان عند الكوفيين والبصريين.

(وفي إعراب القرآن لابن النحاس ١/٣٩٥): حكي عن محمد بن يزيد قال:(مقام) بدل من (آيات) مع أنَّ مقام مفرد وآيات جمع، وصحَّ ذلك من وجهين:

أحدهما: أنْ يجعل (مقام) بمنزلة آيات كثيرة؛ لظهور شأنه، وقوة دلالته علي قدرة الله تعالى، وعلى نبوة إبراهيم عليه السلام من تأثير قدمه في حجر صلد.

والوجه الآخر: اشتمال المقام على آيات متعددة.

قال الرازي في تفسيره: لأنَّ أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاءه دون سائر آيات الأنبياء الحسية، آية خاصة لإبراهيم عليه السلام، وحفظه مع كثرة أعدائه من اليهود والنصاري والمشركين والملحدين ألوف السنين آية.

(وجاء في الكشاف ١/٣٨٨): ويجوز أنْ يكون (فيه آيات بينات: مقام إبراهيم، وأمن مَن دخله) فهما كثرة؛ لأنَّ الاثنين نوع من الجمع كالثلاثة والأربعة.

وقال ابن عطية: المترجح عندي أن المقام وأمن الداخل جعلا مثالاً ممَّا

في حرم الله من الآيات وخُصا بالذكر لعظمهما، وأنها تقوم بهما الحجة على الكفار، إذ هم مدركون لهاتين الآيتين بحواسهم.

(قال صاحب البحر ٩/١): والأولى والأصوب في إعراب (مقام إبراهيم) أنْ يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره: أحد تلك الآيات البينات مقام إبراهيم، أو أنْ يكون (مقام) مبتدأ خبره محذوف والتقدير: منها مقام إبراهيم.

قلت: وهذا الإعراب هو الأرجح عندي.

هذا ولفظ (مَقام) بفتح أوله هو: اسم مكان من قام يقوم قوماً وقياماً.

وأما (المُقام) بالضم فهو من أقام يقيم إقامة، فمُقام: للمصدر ولاسمي المكان والزمان واسم المفعول (قال الراغب في المفردات ٤١٨):

لكن الوارد في القرآن الكريم من المُقام هو المصدر فقط نحو قوله تعالى:

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

قلت: و(مقام إبراهيم) ذكر في القرآن الكريم مرتين فقط.

الأولى: في سورة البقرة قال تعالى:﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

والأخرى: في آل عمران قال تعالى:﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

هذا واختلفوا في تفسير (مقام إبراهيم) على عدة أقوال (البحر ٩/١).

فقال الجمهور: هو الحَجَر الذى قام عليه إبراهيم عليه السلام يرفع بناء الكعبة.

وقيل: الحجر كله مقام إبراهيم، وقيل: البيت كله مقام إبراهيم لأنه بناه وقام في جميع أقطاره، وقال قوم: مكة كلها مقام إبراهيم، وقال آخرون: الحرم كله مقام إبراهيم.

(وفي تفسير ابن كثير ١٦٨/١): قال ابن عباس رضي الله عنهما: مقام إبراهيم الحج كله. هذا والمقام الذى قام عليه سيدنا إبراهيم ليرفع بناء

الكعبة، أشهر ماورد فيه كما جاء في (أخبار مكة للأزرقي، وشفاء الغرام للفاسي، وإعلام الأنام للشيبى. وتفسير ابن كثير، وتفسير التسهيل):

أن إبراهيم عليه السلام عندما كان يبنى الكعبة، وارتفع الجدار، وشقَّ عليه تناوله، قرَّب إليه إسماعيل عليه السلام هذا الحَجر - يعني المقام - فكان إبراهيم يقوم عليه، وإسماعيل يناوله الحجارة، فيضعها الخليل رضماً بعضها فوق بعض؛ ليرفع الجدار، وكلَّما كمّل ناحية حوّل إسماعيل الحجر إلى الناحية الأخرى، يطوف به حول الكعبة، وإبراهيم قائم على ذلك الحجر يبني.

وروي أنه عليه السلام كلما طال البناء، ارتفع به الحجر في الهواء حتى أكمل البناء من جميع نواحي البيت وانتهى إلى وجه البيت، وقد جعل للكعبة ركنين فقط: ركن الحجر الأسود، والركن اليماني وجعلها من جهة الحِجر علي هيئة نصف دائرة، فكانت على خلقة الكعب؛ فلذلك سميت بالكعبة وقيل: لنتوئها وارتفاعها. وجعل إبراهيم للكعبة باباً واحداً حيث هو الآن في وجهها وجعل الباب لاصقاً بالأرض وغير مُبوَّب ولم يجعل لها سقفاً ولا ميزاباً ولا كسوة، وجعل الحِجر إلى جانبها الشامي عريشاً من أراك تقتحمة غَنم إسماعيل، فكان قسم من الحجر داخلاً في الكعبة، وقريش أخرجت هذا القسم من الكعبة عندما أعادت بناءها لقصور النفقة بهم يومذاك، والحالة التي عليها الكعبة الآن هي على بناء قريش وليست على قواعد إبراهيم من جهة الحِجر.

وقد جعل إبراهيم عليه السلام ارتفاع الكعبة من الأرض نحو السماء تسعة أذرع، وجعل عرض جدار وجهها الذى فيه الباب اثنين وثلاثين ذراعاً.

وعرض ظهرها المقابل لوجهها واحداً وثلاثين ذراعاً.

وجعل عرض الجدار من جهة حجر إسماعيل اثنين وعشرين ذراعاً.

والجدار المقابل له بين الركنين عشرين ذراعاً (والذراع الشرعي يقدر بنصف متر إلا أربع سنتيمتراً تقريباً).

هذا وقد غاصت قدما إبراهيم عليه السلام في ذلك الحَجَر الذى قام عليه يبني الكعبة وكأنها في طين وكانت آثار قدميه ظاهرة في المقام وهي

آية بينة واضحة، ولم يزل هذا الأثر معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها، وقد قال فيه أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة.

وموطىء إبراهيم في الصخر راطبة ❖ على قدميه حافياً غير ناعل.

هذا وقد أدرك المسلمون ذلك فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:(رأيت المقام فيه أثر أصابع قدمي إبراهيم عليه السلام وأخمَص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم عليه).

قال ابن جرير: والمسلمون أُمروا أنْ يصلُّوا عند مقام إبراهيم، ولم يؤمروا بمسحه، وقد تكلَّفَت هذه الأمّة شيئاً مما تكلفته الأمم قبلها، فكان بعضهم يمسحون أثر عَقِب وأصابع إبراهيم من على المقام حتي اخلولق وانمحى.

هذا وذَرع مقام إبراهيم عليه السلام: ذراع، وارتفاعه من الأرض: ذراع إلا ثُمُن ذراع، وأعلى المقام مربّع ومن كل جهة فيه ذراع إلا ربع.

والقدمان داخلان فى المقام سبعة أصابع، وموضع غوص القدمين لُبِّس بفضة، وأول من حلَّى المقام من أعلاه وأسفله هو: الخليفة العباسي المهدي ابن المنصور سنة إحدى وستين ومائة من الهجرة النبوية.

هذا وروى الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنَّ الحَجَر والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنَة، طمس الله نورهما، ولولا أنْ طمس نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب).

ومقام إبراهيم مكانه اليوم معلوم أمام الكعبة المشرفة وإلى ناحية الحِجر أقرب.

وقد تعددت الروايات فيمن وضعه في مكانه هذا هل هو إبراهيم الخليل عليه السلام بعد بناء البيت؟ أو هو رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم عام الفتح؟ أو هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيام خلافته؟!

جاء في تفسير ابن كثير [١/ ١٧٠]: وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من

بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة، أو أنه انتهى عند البناء فتركه هناك..
قال: وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أحد الأئمة المهديين، والخلفاء الراشدين، اللذين أمرنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ: (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر). وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده؛ ولهذا لم ينكر أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

وفيه:

وأخرج الحافظ البيهقي عن السيدة عائشة رضي الله عنها: أنَّ المقام كان زمان رسول الله ﷺ، وزمان أبي بكر رضي الله عنه ملتصقاً بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وجاء في تفسير ابن كثير أيضاً [٥١٦/١] عند تفسير قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

أنَّ رسول الله ﷺ يوم فَتح مكة فتَح باب الكعبة، وغمس بالماء التماثيل التي كانت فيها، وأخرج مقام إبراهيم وكان في الكعبة، فألزقه في حائط الكعبة.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري:

وكان المقام من عهد إبراهيم عليه السلام لزق البيت إلى أنْ أخَّره عمر رضي الله عنه إلى المكان الذي هو فيه الآن.

ولم ينكر الصحابة فعل عمر ولا من جاء بعدهم فصار إجماعاً.

وعن مجاهد رحمه الله تعالى روايتان:

الأولى: أنَّ أول مَن أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والأخرى: أنَّ المقام كان عند البيت فحوله رسول الله ﷺ إلى موضعه هذا.

قال ابن كثير [التفسير ١٧١/١]: والرواية الأولى أصح مع اعتضادها

بما تقدم، والله أعلم.

هذا وفي [شفاء الغرام لتقيّ الدين الفاسي ٢٠٦/١]:

ونقل المحب الطبري عن الإمام مالك رحمه الله في [المدوّنة] أنه قال: كان المقام في عهد إبراهيم عليه السلام في مكانه اليوم، وكان أهل الجاهلية ألصقوه بالبيت خيفة السيل، فكان كذلك في عهد النبي ﷺ، وعهد أبي بكر، فلما ولي عمر ردّه بعد أنْ قاس موضعه بخيوط قديمة قيس بها حين أخروه.

وفي [أخبار مكة لأبي الوليد الأزرقي ٣٥/٢]:

عند أبي مليكة: أنَّ موضع المقام هذا الذي هو به اليوم هو موضعه في الجاهلية، وفي عهد النبي ﷺ، وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، إلا أنّ السيل ذهب به في خلافة عمر، فجُعل في وجه الكعبة حتى قدم عمر فردَّه بمحضر الناس.

وروى السنجاري في [منائح الكرم] عن الإمام النووي أنه قال: هذا الموضع الذي فيه المقام اليوم هو الموضع الذي كان فيه في الجاهلية، وفي زمن رسول الله ﷺ وبعده، إلا أنه جاء السيل زمن عمر رضي الله عنه.. ثم ذكر قصة سيل (أم نهشل)..

قال الأزرقي [٣٣/٢]: كانت السيول تدخل المسجد الحرام من باب بني شيبة الكبير قبل أنْ يردم عمر الردم الأعلى، فكانت السيول ربما دفعت المقام عن موضعه، وربما نحَّته إلى وجه الكعبة، حتى جاء سيل (أم نهشل) الذي ذهب (بأم نهشل ابنة عبيدة بن أبي أحيحة سعيد بن العاصي) فماتت فيه، وذلك في خلافة عمر رضي الله عنه - في شهر رمضان سنة ١٧هـ - فاحتمل السيل مقام إبراهيم من موضعه هذا فذهب به، حتى وجد بأسفل مكة، فأُتي به فربط إلى أستار الكعبة في وجهها..

وكُتب في ذلك إلى عمر رضي الله عنه، فأقبل عمر فزعاً، فدخل بعمرة في شهر رمضان وقد غبِّي موضع المقام وعفاه السيل..

فدعا عمر بالناس فقال: (أنشد الله عبداً عنده علم في هذا المقام)؟!

فقال المطلب بن أبي وداعة السهمي رضي الله عنه: أنا ياأمير المؤمنين عندي ذلك، فقد كنت أخشى عليه هذا، فأخذت قدره من موضعه إلى الركن، ومن موضعه إلى باب الحجر، ومن موضعه إلى زمزم بمقاط - أي خيط مفتول - وهو عندي في البيت. فقال له عمر: فاجلس عندي - زيادة في الاحتياط والتثبت - وأرسل إليها - أي ابنة السهمي - فأُتي بها - بالمقاط - فمدّها فوجدها مستوية إلى موضعه هذا. فسأل الناس وشاورهم فقالوا: نعم هذا موضعه..

فلما استثبت عمر رضي الله عنه ذلك وتحقق منه. أمر رضي الله عنه ببناء ربضة - قاعدة- تحت المقام ثم وضع المقام عليها، فهو في مكانه هذا إلى اليوم ومقدار ارتفاعه عن الأرض نحو نصف متر تقريباً..

وردم عمر رضي الله عنه الردم الأعلى - بالمدّعى - بالصخر وحصّنه قال ابن جريج: فلم يعل الردم سيل بعد عمر رضي الله عنه..

هذا وبُعد مقام إبراهيم عن الكعبة المشرفة حدده الأزرقي في (تاريخ مكة) ٢/٨٥ بقوله: (وذرع ما بين الركن الأسود إلى مقام إبراهيم عليه السلام تسعة وعشرون ذراعاً وتسع أصابع وذرع ما بين جدار الكعبة من وسطها إلى المقام سبعة وعشرون ذراعاً، وذرع ما بين شاذروان الكعبة إلى المقام ست وعشرون ذراعاً ونصف، ومن الركن الشامي إلى المقام ثمانية وعشرون ذراعاً وتسع عشرة أصبعاً.

هذا وقد وفق الله تعالى حكومتنا الرشيدة إلى إزالة المقصورة الخشبية والشبابيك الحديدية، والأعمدة الحجرية، والقبة والأستار التي كانت موضوعة منذ مئات السنين فوق مقام إبراهيم وخلفه، وكانت تشغل ٦×٣م^2 من مساحة المطاف.

وأبقت الحكومة حفظها الله المقام في مكانه الأصلي وعملت حول قاعدة المقام من الأرض إلى أعلى المقام قاعدة من الرخام على شكل سداسي تقريباً.. ووضعت على نفس المقام غطاء زجاجياً من الكريستال السميك

الفاخر ثبت على القاعدة الرخامية وعليه حاجز حديدي مطلي بالذهب.

وهذا الغطاء الجديد طوله متر وستون سنتيمتراً، وعرضه متر وعشرة سنتيمتراً، وارتفاعه إلى هلاله ثلاثة أمتار..

وقد أدى هذا العمل العظيم إلى توفير عدة أمتار في مساحة المطاف، كما تسنّى بذلك لكل من زار المسجد الحرام أنْ يرى بعينيه مقام إبراهيم على حقيقته مع حفظه وصونه.

وقد كان الاحتفال برفع الستار عن هذا الغطاء الزجاجي مساء السبت ١٨ رجب سنة ١٣٨٧هـ في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز - رحمه الله -.

وفي عام ١٤١٩هـ في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز - حفظه الله - استبدل الغطاء القديم بغطاء جديد أكثر ملاءمة للأشكال الإسلامية.

وهكذا بقي مقام إبراهيم عليه السلام بجوار الكعبة المعظمة منذ آلاف السنين معجزة ظاهرة خالدة فيه آيات بينات، وزيادة في تشريفه أمر الله تعالى نبيه سيدنا محمداً ﷺ والمسلمين: أنْ يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى.. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ...﴾ [البقرة: ١٢٥]..

المعنى العام:

يقول الله تعالى في صدر هذه الآية لرسوله ﷺ: واذْكُر يا محمد حين جعلنا البيت الحرام مثابة ومعاذاً وملجأ ومجمعاً ومرجِعا للُحجاج والعمار، يقبلون عليه من البلدان كلها، ويتفرقون عنه، ثم يثوبون إليه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يقضون فيه وطراً، يأتونه ثم يرجعون إلى أهاليهم ثم يعودون إليه.

[وأمناً].. أي: وجعلنا يامحمد هذا البيت الحرام أمناً للناس وأماناً لكل من لجأ إليه؛ وذلك لما أودع الله تعالى في قلوب العرب من تعظيمه وإجلاله.. وكان أهل الحرم في الجاهلية يُتخطف الناس من حولهم، وهم آمنون لا يُسْبَون.

قال أبو حيان في [البحر المحيط ٣٧٩/١]:

والبيت في هذه الآية هو: الكعبة على قول الجمهور، وقيل: المراد البيت الحرام لا نفس الكعبة؛ وذلك لأنه وصفه بالأمن، وهذه صفة جميع الحرم لا صفة الكعبة فقط.. ويجوز إطلاق البيت ويراد به كل الحرم..

وأما الكعبة فلا تطلق إلا على البناء الذي يطاف به..

هذا والتاء في قوله: [مثابة] للمبالغة؛ وذلك لكثرة من يثوب ويرجع إلى بيت الله. [جاء في المصباح المنير ٢٤] و [الأمن] مصدر فعله: أَمِن يأمَن.. والأصل.. أن يُستعمل في سكون القلب والفعل [أمِن] يتعدى بنفسه وبالحرف.. يقال: أمِن فلان الأسد، وأمن من الأسد.

وقولهم: (أمِن البلد) بمعنى: اطمأن به أهله فهو: آمِن وأمين، وقولهم: (هو مأمون الغائلة) أي: ليس له غَوْر ولا مكْر يُخشى.

وفي [مقاييس اللغة ٧٢/١]:

أمن.. الهمزة والميم والنون: أصلان متقاربان.. أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها: سكون القلب، والآخر: التصديق.

قال الخليل: الأمنة من الأمن، والأمان: إعطاء الأمنة، والأمانة: ضد الخيانة.. والعرب تقول: رَجُلٌ أُمّان: إذا كان أميناً.

وقال اللحياني وغيره: رَجُلٌ أُمَنة - بضم الهمزة - إذا كان يأمنه الناس، ولا يخافون غائلته وغدره. ورجل أمنة - بفتح الهمزة - أي: يثق بالناس، ويصدِّق ما سمع، ولا يكذّب بشيء.

وفي المثل: [مِن مأمَنِه يؤتَى الحَذِر].

[وفي لسان العرب ٢١/١٣]:

الأمن: ضد الخوف، والأمانة: ضد الخيانة، والإيمان: ضد الكُفر، والإيمان بمعنى التصديق: ضده التكذيب.. وآمنته المتعدي: صد أخفته.

[وفي المفردات للراغب ٣٥]: أصل الأمن: طمأنينة النفس، وزوال الخوف، والأمن والأمانة والأمان: في الأصل مصادر.

ويُجعل [الأمان] تارة اسماً للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، ويجعل تارة اسماً لما يؤمن عليه ويؤتمن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. قيل: هي كلمة التوحيد، وقيل: العدالة، وقيل: حروف التهجي، وقيل: العقل وهو الصحيح. وبالعقل فُضّل البشر على كثير ممن خلق الله.

هذا وكلمة [الأمن] وردت في القرآن الكريم خمس مرات.. الأولى في سورة النساء ٨٣: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ...﴾ والأخيرة في سورة النور ٥٥: ﴿... وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ...﴾.

وفي [البحر المحيط ١/٣٨٠]: وجُعل البيت الحرام أمناً هكذا بالمصدر.. على سبيل المبالغة؛ وذلك لكثرة ما يقع به من الأمن، أو هو على حذف مضاف: أي جعلنا البيت ذا أمن، أو هو على معنى: آمناً.

هذا واختلفوا هل أمْنُه في الدنيا أو في الآخرة..

فمن قال: إنه في الدنيا فمعناه: أنَّ الناس حول مكة كانوا يقتتلون، ويغير بعضُهم على بعض، ومكة آمنةٌ من ذلك، ويلقى الرجُل قاتل أبيه فلا يهيجه...

وقيل: معناه أنه آمنٌ لأهله يسافر أحدهم الأماكن البعيدة فلا يروعه أحد، وقيل: معناه أنه يؤمن من أنْ يحول الجبابرة بينه وبين مَن قصَده.

ومن قال: هذا الأمن في الآخرة.. فقيل: أمْنٌ من المكر عند الموت، وقيل: من عذاب النار، وقيل: من بَخْس ثواب مَن قصَده.

قلت: ولا مانع من أن يكون البيتُ الحرام أمناً في الدنيا والآخرة.

هذا وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ معنى الكلام في هذه الآية: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ على الأمر.. والتقدير: نحن جعلنا البيت مثابة للناس، فاجعلوه أيها الناس آمناً أمناً.. فلا يتعدّى فيه أحدٌ على أحد بغارة أو قتل أو ظلم، وكان البيت محرَّماً بحكم الله تعالى،

وقال الإمام ابن كثير في التفسير ١/١٦٨: ومضمون ما فسَّر به الأئمة

هذه الآية: أنَّ الله تعالى يذكر شرف البيت، وما جعله موصوفاً شرعاً وقدْراً.. من كونه مثابة للناس.. أي: جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح، وتحنُّ إليه، ولا تقضي منه وطراً، ولو ترددتْ إليه كل عام..

وذلك استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ... ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقال رحمه الله:

ويصف الله تعالى البيت بأنه جعله أمناً.. فَمن دخَله أَمِن، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً.

قال الإمام النسفي ١/١٢٨: (وأمناً) أي: موضع أمن، فإن الجاني يأوي إليه، فلا يُتعرض له حتى يخرج منه، وهو دليل لنا في الملتجئ إلى الحرم.

وقال الإمام أبو حيان [في البحر ١/٣٨٠]: وأمَّا مَن أحدث حَدثاً خارجَ الحرم، ثم أتى الحرم.. ففي أمنه مِن أن يهاج فيه خلاف مذكورٌ في الفقه..

قال الله تعالى: ﴿ ... وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ... ﴾ [البقرة: ١٢٥].

(واتخذوا) على هذه القراءة بكسر الخاء.. هو فعلُ أمر، مبنيٌّ على حذف النون؛ لاتصاله بواو الجماعة.. فالأمر يُبنى على ما يُجزم به مضارعه.

هذا واختُلف في المخاطب بهذا الأمر على عدة أقوال أرجحها عندي.. النبي محمد ﷺ وأُمّتُه.. ويؤيد ذلك ما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

وافقتُ ربي في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث.. فذكر منها:

قلت: يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلًّى؟!

فنزلت: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾.

وروى أبو نعيم عن النبي ﷺ: أنه أخذ بيد عمر رضي الله عنه فقال: (هذا مقام إبراهيم) فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى؟ فقال: (لم أُومَر بذلك).. فلم تغَب الشمس حتى نزلت: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [الكشاف

١٨٥/١] [ورواه ابن أبي داود في المصاحف [كنز العُمال ٣٨١٠٧].

قال البيضاوي في تفسيره:

(واتخذوا) الخطاب لأمة محمد ﷺ وهو أمرٌ استحباب.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه روايتان في زمن حدوث ذلك..

الأولى.. في حجة الوداع أي في العام العاشر من الهجرة، والأخرى: يوم فتح مكة أي في العام الثامن. وحديث جابر رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ استلم الركن فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت فصلَّى ركعتين. [تفسير ابن كثير ١٦٩/١].

و[مقام إبراهيم] فيه عدة أقوال أرجحها: هو الحَجر الذي كان الخليل عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة ورفع جدارها وفيه أثر قدميه.. قال ابن عباس رضي الله عنهما:

(أما مقام إبراهيم في هذه الآية فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد) [تفسير ابن كثير ١٦٨/١].

قال صاحب الكشاف ١٨٥/١: وقول عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: (أفلا نتخذ مقام إبراهيم مصلى؟ يريد أفلانؤثره لفضله بالصلاة فيه تبرُّكاً به، وتيمُّناً بموطئ قدم إبراهيم؟!

هذا و[من] في قوله: [من مقام إبراهيم] يجوز أنْ تكون تبعيضية، وأنْ تكون بمعنى (في)، وعلى مذهب الأخفش هي زائدة..

والأظهر المعنى الأول أي تبعيضية والمعنى: اتخذوا عند مقام إبراهيم مصلى.

وفي البحر المحيط ٣٨١/١: [مصلى] أي: قِبلة، أو موضع صلاة، أو موضع دعاء والأولى حمله على الصلاة الشرعية لا على الصلاة لغة.

[وفي المصباح المنير ٣٤٦]:

الصلاة في اللغة مشتركة بين الدعاء والتعظيم والرحمة والبركة، وتُجمع

على صلوات.. والمصلَّى.. بصيغة اسم المفعول: هو موضع الصلاة أو الدعاء.

[وفي الفروع لابن مفلح ١/٢٨٥]:

الصلاة في الاصطلاح: أقوال وأفعال مفتتحةً بالتكبير ومختتمةً بالتسليم بشرائط مخصوصة. قلت: ولم يَرِد لفظ [المصلَّى] في القرآن الكريم إلا مرةً واحدة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقال ابن فارس [في مقاييس اللغة: ٢/١٥]:

صَلَى.. الصاد واللام والحرف المعتل أصلان: أحدهما: النار وما أشبهها من الحمَّى، والآخر: جنس من العبادة.. فأما الأول: فقولهم: صَلَيْتُ العود بالنار. وأما الثاني: فالصلاة وهي الدعاء. وقال رسول الله ﷺ: [النهاية ٣/٥٠]. (إذا دُعِي أحدُكم إلى طعام فليُجِب، فإنْ كان مُفْطِراً فليأكل، وإنْ كان صائماً فليُصلِّ) أي فليدْعُ لأرباب الطعام بالبركة والخير.

قال: والصلاة.. هي التي جاء بها الشرع من الركوع والسجود وسائر حدود الصلاة قلت: قال الله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. في صحيح البخاري قال أبو عالية: صلاة الله تعالى: ثناؤه عليه ﷺ عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء.

وفي الترمذي عن سفيان الثوري: صلاة الرب: الرحمة، وصلاة الملائكة: الاستغفار.

وعن كعب بن عجره قال: لما نزلت هذه الآية قلنا: يارسول الله قد علمنا السلام عليك، فيكف الصلاة؟ قال ﷺ: (قولوا اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد).

هذا وقد أورد ابن كثير في التفسير ٣/٥٠٧ عدة روايات بعدة صيغ لهذا الحديث.

قال ابن الأثير في النهاية ٣/ ٦٥٠: وأما قولنا: اللهم صلّ على محمد فمعناه: عظّمه في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دعوته وإبقاء شريعته.. وفي الآخرة بتشفيعه في أُمته وتضعيف أجرته ومثوبته.

وقيل: المعنى لما أمرنا الله سبحانه بالصلاة عليه، ولم نبلُغ قدر الواجب من ذلك أحلناه على الله تعالى وقلنا: اللهم صلِّ على محمد لأنك أعلم بما يليق به ﷺ.

وفي لسان العرب ١٤/ ٤٦٤:

قال ابن الأعرابي: الصلاة من الله: رحمة، ومن المخلوقين الملائكة والإنس والجن: القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح، والصلاة من الطير والهوامّ: التسبيح وقال الزجاج: الأصل في الصلاة اللزوم.

وقال أهل اللغة: إنَّ الصلاة من الصَّلَوَيْن، وهما مكتنفا الذَّنَب من الناقة وغيرها، وهُما مَوْصل الفخِذَيْن من الإنسان.

والمصلِّي من الخيل: هو الذي يجئ بعد السابق المجلِّي وذلك لأنَّ رأسه يلي صلا المتقدم، ثم يتلو المصلِّي الخيلُ الثالث المسلِّي بالسين وهكذا.

قال الأزهري: والقول عندي هو الأول.. إنما الصلاة لزوم ما فرض الله تعالى، والصلاة من أعظم الفَرْض الذي أُمرنا بلزومه.

وقال الجوهري: الصلاة اسم يوضع موضع المصدر تقول: صليتُ صلاة، ولا تقل: صليت تصلية.

وقال ابن الأثير.. أصل الصلاة في اللغة: التعظيم، وسُميت الصلاة المخصوصة صلاة لما فيها من تعظيم الرب تعالى وتقدّس.

وفي المفردات [٢٨٧]: الصلاة هي: الدعاء والتبريك والتمجيد والتزكية، والصلاة التي هي العبادة المخصوصة أصلها: الدعاء، وسُميت هذه العبادة صلاة كتسمية الشيء باسم بعض ما يتضمنه.

وقال بعضهم: أصل الصلاة من الصِلاء وهو الوقود، ومعنى صلّى الرجل: أي أنه أزال من نفسه بهذه العبادة الصِلاء الذي هو نار الله الموقدة.

هذا وموضع العبادة يسمى الصلاة؛ ولذلك سميت الكنائس: صلوات ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ..﴾ [الحج: ٤٠].

وقال السُّهيلي: إن أصل الصلاة انحناء وانعطاف من المصلّين، ثم قالوا صلّى عليه بمعنى انحنى عليه، ثم سمّوا الرحمة: حُنوًّا وصلاة إذا أرادوا المبالغة في الرحمة.. والصلاة أصلها في المحسوسات وعُبِّر بها عن هذا المعنى مبالغة وتأكيداً ومنه قيل: صليت على الميت أي: دعوت له دعاء من يحنو عليه؛ ولذلك لا تكون الصلاة بمعنى الدعاء على الإطلاق.. فلا تقول: صلّيت على العدوّ بمعنى: دعوت عليه وإنما يقال: صليت عليه في معنى الحنوّ والرحمة والعطف..

ولذلك عُدِّيت الصلاة في اللفظ بـ(على).

هذا و[المصلَّى] في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ هو موضع الصلاة.. قال الشيخ حسين باسلامة في كتابه [تاريخ عمارة المسجد الحرام: ١٤١]:

واتخاذ الصلاة من المقام هي: الصلاة خلفه بأن يُجعل المقام بين المصلِّي والكعبة المعظمة، بحيث يكون المقام أمام المصلِّي، كما فعل رسول الله ﷺ حيث هو المشرِّع الأعظم، وليس المراد باتخاذ المقام مصلًّى بأن يستقبله المصلِّي من أي جهة كانت.. فيستدبر الكعبة في صلاته ويجعل المقام قبلته، أو يجعل الكعبة على يمينه أو شماله حال استقباله المقام.

وذلك لأن قبلة المصلِّي هي الكعبة المعظمة، وليس غيرُها قبلة لعموم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.. فمن استقبل غير الكعبة في صلاته فصلاته غير صحيحة وهو آثم، ومن تعمد ذلك فقد خرج من الإسلام لأن الله سبحانه وتعالى قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿.. فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ..﴾ [البقرة: ١٤٤]. فالقبلة المقصودة بالذات هي الكعبة المعظمة.

❖❖❖❖

الجانب الثالث عشر: تطهير بيت الله الحرام:

في القرآن الكريم جاء أمر الله تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام بتطهير بيته الحرام مرتين:

الأولى.. وُجِّه الأمر إلى إبراهيم وحده.. وذلك في سورة الحج قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

والمرة الثانية، وُجِّه الأمر لإبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام بعد أن بنيا البيت وعُرف المقام، وكثر الناس في مكة وذلك في سورة البقرة قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

ففي الآية الأولى أُمر إبراهيم عليه السلام بتطهير بيت الله للطائفين به، والمصلين إليه، قال الإمام القرطبي [٣٧/١٢]: ذكر الله تعالى في هذه الآية من أركان الصلاة أعظمها، وهو القيام والركوع والسجود.. وهذه هيئات الصلاة.

هذا وفي الثانية أُمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بتطهير بيت الله للطائفين حوله، والمعتكفين الملازمين له، والمصلين فيه..

فآية سورة الحج جمعت صنفين من العابدين في البيت الحرام.. (طائفين، ومصلّين).. أمّا سورة البقرة فقد جمعت ثلاثة أصناف منهم: (طائفين، ومعتكفين، ومصلين).

هذا وفي اللغة.. قال ابن فارس في المقاييس [١٨٩/٢]:

عَهد: العين والهاء والدال.. أصلٌ هذا الباب عندنا، دالٌّ على معنى واحد، وقد أومأ إليه الخليل بن أحمد قال: أصله الاحتفاظ بالشيء وإحداث العهد به.. والذي ذكره من الاحتفاظ هو المعنى الذي يرجع إليه فروع الباب.. فمن ذلك قولهم: عهد الرجل يعَهد عهداً - أي أوصى وصيةً.. وإنّما سميت

الوصية بذلك؛ لأنَّ العهد مما ينبغي الاحتفاظ به.

ومنه اشتقاق (العهد) الذي يكتب للولاة من الوصية، وجمعه: عُهود.. ومن الباب (العَهد) الذي معناه الالتقاء والإلمام، وذلك أنَّ إلمامه بالشيء احتفاظ به وإقبال.

وفي المصباح المنير [٤٣٥] واللسان [٣/٣١١]:

(العهد): الأمان والمَوْثِق والذمة والوفاء والالتقاء، و(المعاهدة) المعاقدة والمحالفة وعهدي به قريب أي: لقائي وعلمي وحالي به قريب.

وفي المفردات [٣٥٣]: (العهد): حِفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال.. وسُمِّي الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً قال تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وعهد فلانٌ إلى فلان.. أي ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه.. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ.. ﴾ [يس: ٦٠].

قال عبد الرحمن بن زيد: والظاهر أنَّ الفعل (عهد) إنما عُدِّي (بإلى) لأنَّ فيه معنى: تقدّمنا وأوحينا.

قال تعالى: ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ.. ﴾

أي: أوصى الله تعالى وأمر وأوحى إلى إبراهيم الخليل وولده إسماعيل (أن طهرا) (أن) هنا يجوز أن تكون تفسيرية فلا محل لها من الإعراب والمعنى: أي طهرا، ويجوز أن تكون مصدرية وصلت بفعل الأمر فهي وما بعدها في محل نصب أو جر بمحذوف والتقدير: بأن طهرا.

هذا والتطهير المأمور به هو: التنظيف من كل مالا يليق ببيت الله.

وفي تفسير الإمام ابن كثير [١/١٧١]: عن ابن عباس رضي الله عنهما: طهِّراه من الأوثان، وقال مجاهد وابن جبير: طهراه من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس، وقال عطاء وقتادة وغيرهما: طهراه بلاإله إلا الله من الشرك.

وفي البحر المحيط [٣٨٢/١]:

قال السُدِّي: التطهير بالبناء والتأسيس على الطهارة والتوحيد، وقال يمان: معناه: بخِّراه ونظفاه وخلِّقاه، وقيل: طهراه من الآفات والرِّيب وقيل: طهراه من الكفار، وقيل: من الفرث والدَّم الذي كان يُطرح فيه، وقيل: أخلصاه لهؤلاء العابدين فلا يغشاه غيرهم.. قل أبو حيان صاحب البحر المحيط: والأولى حمله على التطهير مما لا يناسب بيوت الله.. فيدخل فيه الأوثان والأنجاس وجميع الخبائث، وما يمنع منه شرعاً كالحائض.

قال ابن كثير [١٧٢/١]: فتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة، ومن السُّنة من أحاديث كثيرة تأمر بتطهير المساجد وتطييبها وصيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك.

وقال رحمه الله ١٧١/١:

وأما القول بأنه كان يعبد عند البيت أصنام وأوثان قبل إبراهيم عليه السلام فيحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم ﷺ ولا دليل.

هذا وفي اللغة: [المصباح ٣٧٩، والمقاييس ٨١/٢ واللسان ٥٠٤/٤ والمفردات ٣١٠]: [الطهارة].. مصدر فِعلُه طَهَر وطَهُر.. والطاء والهاء والراء.. أصل صحيح واحد يدل على نقاء وزوال دنَس، والاسم [الطُهر]: وهو خلاف الدَّنس والنجاسة، و[التطهُّر]: التنزُّه عن الذم وعن الإثم وعن كل قبيح، يقال: فلان طاهر الثوب وطاهر العِرض أي: بريء مِن العيب والدنس، ومنه قيل للحالة المناقضة للحيض: (طهراً) ويقال: امرأة (طاهرة) أي مِن الأدناس، وهي (طاهر) أي مِن الحيض، لأنَّ الصفات الخاصة بالأنثى لا تلزمها تاء التأنيث ومنها: حامل ومرضع وحائض ويقال: ((تطهرت) أي: اغتسلت و(الطَّهور) بالفتح هو: الماء النظيف قال ثعلب: هو الطاهر في نفسه المُطهِّر لغيره، و(الطُّهور) بالضم هو: التطهُّر ذاته.

قال ابن الأثير: وما لم يكن مطهِّرا فليس بطَهُور.. فكلُّ طَهور طاهر، وليس كلُ طاهرٍ طَهوراً. ويقال: طهَّرتُه فطهَّر وتطهّر فهو طاهرٌ ومُتَطهِّر ومُطهَّر.

قال الراغب: والطهارة ضَربان:

طهارة جسم أي: حسية برفع حدث أو إزالة نجس، وطهارة نفس أي: معنوية بترك الذنب وتنقية النفس من المعايب وحُمل عليهما عامة الآيات.

قال تعالى: ﴿.. وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [بيتي] أي: بيت الله في مكة، وهذه إضافة تشريف.. لا أنَّ هذا المكان محل لله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيراً، ولكنْ لما أُمِر ببنائه وتطهيره، وتوجُّه الناس إليه وإيفادهم إليه للعبادة.. صار له بذلك اختصاص؛ فحسُنت إضافته إلى الله سبحانه وتعالى [للطائفين].. الطواف بالبيت معروف، يدور الطائف حول الكعبة من خارج الحِجْر سبعة أشواط، يبدأ من الركن الأسود وينتهي عنده، جاعلاً الكعبة على يساره، فيكون قلبه مجاوراً للبيت، وإذا استلم الركن استلمه بيمينه فيتوجه بجسده كله شطر الكعبة.. ويكون طوافه مع دوران الأرض.

وفي اللغة [المقاييس ٨٣/٢، المصباح ٣٨٠، اللسان (طوف). المفردات ٣١٣].

طوَف: الطاء والواو والفاء أصل صحيح واحد يدل على دوران الشيء على الشيء، ثم يُحمل عليه.. يقال: [طاف] بالشيء يطوف طوفاً وطوافاً.. أي.. استدار به، وتطوَّف بالبيت، واطَّوَّف بالبيت على البدل والإدغام، قال تعالى [سورة الحج ٢٩] ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي القديم الكريم وهو الكعبة، سمِّي به: لأنه أول بيت وضع للناس، وهو أكرم بيت على الأرض.. وقيل: لأنه أُعتق من الطوفان، أو أعتق من الجبابرة المعتدين، أو أعتق من أنْ يدَّعيه أحد فهو بيت الله تعالى وحده.

هذا و[المطاف] موضع الطواف، واسم الفاعل من طاف [طائف]، وجمعه [طائفون] و[طوّاف] صيغة مبالغة وكثرة، وجمعه [طوّافون].. وفي قوله تعالى في سورة النور: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النور: ٥٨] يريد خدَمكم الذين يطوفون عليكم للخدمة فيمضون ويجيئون ويدخلون عليكم في المنازل

غدوة وعشية بغير إذن إلا في الأوقات الثلاث المذكورة في الآية و[الطائف] يُطلق أيضاً على العاسّ الذي يدور حول البيوت حافظاً، ويُطلق أيضاً على ما أطاف بالإنسان من الجن والخيال وغيرهما.

[والطائفة] من الناس: جماعة منهم، ومن الشيء: القطعة منه.

هذا وفي تفسير ابن كثير ١/١٧١: عن سعيد بن جبير: [للطائفين] يعني مَن يأتي البيت من غربة حُجاجاً وزُوَّاراً فيرحلون عن قريب، وفي البحر المحيط ١/٣٨٢ عن عطاء وغيره: أنهم كل من يطوف بالبيت من حاضر وباد.

قال أبو حيان: ويؤيد قول ابن جبير ذِكر [العاكفين] فالطائفون هم الغرباء الطارئون على مكة، والعاكفون هم أهل البيت الحرام المقيمون فيه، والمقيم مقابل المسافر..

قال ابن كثير وعن عطاء [العاكفون] هُم مَن انتاب الحرم من الأمصار فأقام عنده وجاوره فهم عاكفون لا يبرحون عنه.

قال النَّسَفي ١/١٢٩: وقيل: [للطائفين] النُّزَّاع إلى البيتِ من البلاد، (والعاكفين) المقيمين في الحرم من أهل مكة.

قلتُ: ويؤيِّد هذا التفسير قوله تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ..﴾ [الحج: ٢٥].

قال المفسرون: [العاكف]: المقيم الحاضر الملازم في مكة، و[البادِ]: القادم من البادية أي من خارج مكة.

هذا ولفظ [العاكفين] في آية سورة البقرة ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾.. فُسِّر بالمقيمين في مكة، وفسِّر أيضاً بالمعتكفين في الحرم.

وهو مشتق من عكف.. قال اللغويون:

العين والكاف والفاء: أصلٌ صحيح يدل على مقامة وحَبس، يقال: عكَف يعكُف، وعكَف يعكِف.. عكفاً وعكوفاً، والعاكف هو المعتكف، والعكوف معناه: الإقبال على الشيء والإقامة فيه وملازمته على سبيل التعظيم، والاعتكاف

معناه: الاحتباس في المسجد على سبيل القُربة إلى الله تعالى.

ويقال: عكفت الشيء أعكُفه وأعكِفه. بمعنى: حَبستُه ومنعتُه، فهو معكوف أي: محبوس.. قال تعالى في سورة الفتح: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ..﴾ [الفتح: ٢٥] أي: محبوساً وممنوعاً.

قال تعالى: (والركع السجود) وهمّ المصلون الذين يركعون ويسجدون لله تعالى متجهين في صلواتهم شطر بيت الله الحرام.

وفي كتب اللغة [المقاييس ١/٤٨٤، ٥٨٦ والمصباح ٢٣٧، ٢٦٦ واللسان ركع، سجد والمفردات ٢٠٨، ٢٢٨]..

ركع: الراء والكاف والعين.. أصل صحيح واحد يدل على انحناء في الإنسان وغيره، يقال: ركع الرجُل يركع ركوعاً: إذا انحنى، وركع الهَرِم: انحنى من كِبَر أو ضَعف، وكل مُنحن فهو راكع (وفي الحديث ذكر: المشايخ الركع).. يريد الذين انحنوا، وركع أيضاً: قام إلى الصلاة، وكل قومة يتلوها الركوع والسجدتان فهي ركعة.. وركع المصلي: انحنى بعد قومة القراءة حتى تنال راحتاه ركبتيه، ويطمئن ظهره ويستوي ثم تصرف الكلام فقيل للمصلي: راكع، وجمعه: راكعون وركَّع..

وقيل للساجد شكراً أيضاً: راكع، قال تعالى في شأن سيدنا داود عليه السلام: ﴿.. وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].. أي: علَمِ داود وتيقن أنما اختبرناه بالحادثة المذكورة فاستغفر الله وتاب إليه وخرَّ ساجدًا لله تعالى.. هذا وركع أيضاً بمعنى افتقر بعد غِنًى قال الشاعر الجاهلي:

لا تُهينَ الفقيرَ علَّكَ أنْ ❖ تركع يوماً والدهرُ قد رفعه

هذا وأما [سجد]: فالسين والجيم والدال أصل واحد يدل على تطامُن وتذلُّل.. يقال: سجد يسجُد سجوداً إذا تطامن، وكل شيء ذلَّ فقد سجد، فالسجود عامٌّ في الإنسان والحيوانات والجمادات.

وهو ضربان: سجودٌ باختيار.. وليس ذلك إلا للإنسان والجنِّ وبه

استحقَّا الثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والضَّرب الثاني: سجودُ تسخير، وهو الدلالة الصامتة الناطقة المنبِّهة على كون هذه الأشياء مخلوقة، وأنها خَلْق فاعل حكيم.. وهذا السجود للإنسان والحيوانات والنبات.. وعليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]. ويقال: سجد الرجل في الصلاة: أي ذلَّ وخضع ووضع جبهته على الأرض.. وأعضاء السجود سبعة هي: الجبهة مع الأنف والكفان والركبتان وأطراف أصابع القدمين والوصف منه: ساجد وجمعه: ساجدون وسُجَّد وسجود.

وقد يُعبَّر بالسُّجود عن الصلاة ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]. أي عقب الصلاة.

هذا وفي القرآن اللفظان [الركع السُّجود] جاءا على هاتين الصيغتين مقترنين مرتين.. الأولى في سورة البقرة: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. والثانية في سورة الحج.. ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]. وجاءت صيغة [الركع] مقترنة مع [السُّجَّد] مرة واحدة فقط وذلك في سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وجاء اللفظان مقترنين على صيغة جمع المذكر السالم مرة واحدة أيضاً وذلك في سورة التوبة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ..﴾ [التوبة: ١١٢]. قال عطاء رحمه الله: (الركع السجود) هم المصلون عند الكعبة، وقال الحسن رحمه الله: هم جميع المؤمنين.. هذا وخُصَّ الركوع والسجود بالذكر من جميع أحوال المصلي لأنهما أقرب أحواله إلى الله جل جلاله.. وقدَّم الركوع على السجود لتقدُّمه عليه في الزمان..

هذا والسِّرُّ في جمع [الركع السجود] جمع تكسير في آية التطهير، وفي

عدم العطف بينهما وفي ترتيب الأصناف الأربعة كما جاء في هذه الآية: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وما إلى ذلك من الأسرار اللغوية فسأعرض بعون الله بعضاً منها فيما يلي:

أولاً:

(الركع السجود) جمعا في هذه الآية جمع تكسير وذلك ليقابلا ما قبلهما من جمعي السلامة (للطائفين والعاكفين)، والمقابلة بين الجموع في الجملة الواحدة تنويع في الفصاحة عند البلاغيين، والمخالفة بين وزني التكسير (الركع السجود) يعدُّ أيضاً تنويعاً في الفصاحة.. وكان آخرهما (فُعُول) وليس (فُعَّل) وذلك لأجل كون (السجود) فاصلةً أي نهاية الآية ولو رجعت أخي الكريم إلى الفواصل في آيات سورة البقرة قبل هذه الفاصلة وبعدها لوجدتها على كثرتها قبل آخرها حرف مدّ ولين.. فجميع الفواصل منسجمة صوتيًا بعضها مع بعض والتعبير القرآني يُعنى عناية كبيرة بهذا الانسجام لما له من تأثير كبير على السمع، ووقع مؤثر في النفس..

ولكن اعلم - أخي الكريم - أن القرآن الكريم لا يُراعي في توافق الفواصل الانسجام الصوتي وحده، بل يراعي أيضاً ما يقتضيه المعنى وما يتطلبه السياق..

ففي هذه الآية قال: (والركع السُجود) ولم يقل: (والركع السُّجَّد) لأن السجود - في أصل موضوعه - عبارة عن الفعل، وهو في معنى الخشوع والخضوع، وهو يتناول السُجود الظاهر والباطن، ولو قال [السُّجَّد] لم يتناول إلا المعنى الظاهر مثل: [الركع] ألا تراه يقول في سورة الفتح: ٢٩: [تراهم ركعاً سجّداً] يعني: رؤية العين وهي لا تتعلق إلا بالظاهر.

وفي آية البقرة: [والركع السجود] المقصود هنا الركوع الظاهر وذلك لعطفه على ما قبله مما يراد به قصد البيت [للطائفين والعاكفين والركع] والبيت لا يتوجَّه إليه إلا بالعمل الظاهر..

وأما السجود.. فمن حيث أنبأ عن المعنى الباطن؛ جُعل وصفاً للركع

ومُتمماً لمعناه، إذ لا يصح الركوع الظاهر إلا بالسجود الباطن مع تناول لفظ السجود للمعنى الظاهر أيضاً والذي يشترط فيه التوجُّه إلى البيت.. ومن أجل هذا اختار التعبير القرآني هاتين الصيغتين (والركع السجود) دون غيرهما.

قال الإمام السُهيلي في كتابه [نتائج الفكر] ص ٢٧٣-٢٧٥ بتصرف:

ولم يقل: [والراكعين] على صيغة جمع السلامة إذ لا يُحتاج في [الركع] إلى بيان لفظ الفعل كما احتيج في [الطائفين والعاكفين].

وبيان ذلك.. أنَّ جمع السلامة يدل على لفظ الفعل الذي هو علَّة يتعلق بها حُكم التطهير، ولو قال: [للطُّوَّاف] لم يكن في هذا الجمع من بيان قصد الفعل ما في قوله: [للطائفين] إذ أنَّ قولك: طائفون يشبه يطوفون.. فاللفظ مضارع للفظ، وكذلك عاكفون يشبه يعكفون.. والطواف بالبيت والعكوف عنده يختصان بالقرب من البيت لهذا تعلق حكم التطهير بهذين الفعلين فناسب أنْ يجيء الوصف منهما على صيغة الجمع المسلَّم، [للطائفين والعاكفين].

أما المستقبلون البيت بالركوع فلا يختصون بالقرب منه كالطائفين والعاكفين، لهذا لم يتعلق حكم التطهير بهذا الفعل الذي هو الركوع، وأنه لا يلزم أن يكون الركوع في البيت ولا عند البيت.. من أجل ذلك لم يجيء الوصف منه بلفظ الجمع المسلم (الراكعين) إذ لا يُحتاج فيه إلى بيان لفظ الفعل كما احتيج فيما قبله..

بل جاء الوصف على صيغة جمع التكسير (والركَّع) ثم وصف (بالسجود).

قلت: وهكذا كل وصف من الأوصاف الأربعة في هذه الآية الكريمة جاء بالصيغة المناسبة لموقعه ومعناه، وهي شاهدة على الإعجاز اللغوي الدقيق في القرآن الكريم كلام الله تعالى الحكيم الخبير..

هذا وقال أبو حيان في تفسيره البحر المحيط ١/٣٨٢:

وفي قوله تعالى: (الركع السجود) في آية تطهير بيت الله الحرام دلالة على جواز الصلاة في البيت العتيق فرضاً ونفلاً إذ لم تُخصِّص الآية واحداً منهما فشملت الاثنين الفرض والنفل.

ثانياً:

الوصفان الأوَّلان في الآية [للطائفين والعاكفين] عُطف بينهما بالواو، بينما الوصفان الأخيران فيها [الركع السجود] لم يُعطف بينهما.. فما السِّرُّ في ذلك؟!

السر هو - والعلم عند الله - أن الطواف والاعتكاف بينهما تباينٌ كبير واختلاف - على كل تفسير لهذين اللفظين - فكل واحد منهما عبادة على حدة.. فناسب العطف بينهما بالواو الدالة على مطلق الجمع والاشتراك.

أما (الركع السجود) فالمقصود بهما المصلُّون.. والركوع والسجود وإن اختلفت هيئاتهما فإنهما يشملهما فعلٌ واحد وهو الصلاة فهما عبادة واحدة.. لذا ناسب ألا يعطف بينهما لئلا يتوهم أحد أن كل واحد منهما عبادة على حيالها..

قال السُّهيلي [نتائج الفكر ٢٧٤]: (الركع) هم (السجود) والشيء لا يعطف بالواو على نفسه، ولسبب آخر، وهو أن (السجود) في الأغلب عبارة عن المصدر، والمراد به في هذه الآية هو الجمع، فلو عطف بالواو (الركع والسجود) لتوهَّم أنه يريد السجود الذي هو المصدر، دون الاسم والذي هو النعت..

وفائدة ثالثة في عدم العطف، هي أنَّ الراكع إنْ لم يسجد فليس براكع في حكم الشريعة فلو عطف بالواو (الركع والسُّجود) لتُوهم أنَّ الركوع يجري على حيال السجود ويتميز عنه.

ثالثاً:

أصناف العابدين في هذه الآية رُتِّبوا فيها هكذا [للطائفين والعاكفين والركَّع السجود) فما السِّرُّ في هذا الترتيب؟!

السِّرُّ هو - والله أعلم - أنَّ إبراهيم عليه السلام باني بيت الله الحرام، أمره الله تعالى بتطهير بيته لهؤلاء العابدين.. وجاء ترتيبهم حسب قُربهم من البيت، وحسب القلة والخصوص في كل صنف منهم لما بعده.

قال ابن قيم الجوزية في كتابه [بدائع الفوائد ٨١/١] بتصرف:

فبدأ [بالطائفين] وهم أقرب العابدين إلى بيت الله، وهم أقل المذكورين في الآية إذ لا يُشرع الطواف إلا حول هذا البيت المعظم.

وتلاهم [بالعاكفين] وهؤلاء يكونون في المسجد الحرام كلِّه، بل وفي كل مسجد، ويختص الاعتكاف الشرعي بالمساجد لا يتعداها.. فالعاكفون أكثر عدداً من الطائفين، وهم أبعد رتبة منهم عن البيت الحرام.

ثم ذكر [المصلين] والصلاة بركوعها وسجودها تكون في البيت وعنده وفي المسجد كله وفي كل مسجد بل تعمُّ سائر بقاع الأرض سوى ما منع منه مانع، أو استُثنى شرعاً، فالمصلُّون أكثر من العاكفين، وهم أبعد رتبة عنهم من البيت..

قلت: ولدخول المذكورين في نوع عامٌّ وهو عبادة الله صحَّ أيضاً أنْ نقول: إنَّ التقديم والتأخير في هذه الآية ترقِّي من الأخصِّ وهو الطواف، إلى العام وهو الاعتكاف، إلى الأعمِّ منه وهو الركوع إلى الأعمِّ وهو السجود..

إذ في كل ركعة سجدتان بل قد يكون السجود بلا ركوع كسُجود التلاوة، وسجود الشُكر ونحوهما.

أيها الإخوة الأكارم.. وهذا التدُّرج من الأقلِّ الأخص إلى ما هو أكثر منه وأعمُّ طريقةٌ معروفة عند اللغويين والبلاغيين والأمثلة عليها من كتاب الله العزيز كثيرة، أختار لكم منها هنا قوله تعالى في سورة الحج:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]. فبدأ (بالركوع) وهو أخص وأقل الأربعة المذكورة إذ لا يكون الركوع إلا في الصلاة، ثم ذكر (السجود) وهو أعمُّ وأكثر من الركوع.. إذ في كل ركوع سجودان وهناك سجود بلا ركوع، ثم ذكر [العبادة] وهي أكثر

وأعم مما قبلها إذ هي أنواع كثيرة كالصلاة والصيام والزكاة والحج والنذر والذبح وغير ذلك، وختم بذكر (فعل الخير) وهو أكثر وأعم الأشياء المذكورة في الآية إذ يشمل كلَّ ما يقرِّب العبد من الله تعالى من أفعال الخير والمبرات كصلة الأرحام، ومواساة الأيتام، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام، وغير ذلك مما يحبِّه الله ويرضاه.

هذا والقرآن الكريم: قد بلغ في فنِّ التقديم والتأخير بجميع أقسام التقديم وأنواعه - كما في غيره من فنون الكلام - بلغ الذِّروة التي لا تُجاري، والإعجاز الذي لايُنكر.. ومن قرأ كلام الله تعالى بتأن، وتدبّر في آياته بعلم وذوق.. علم أنَّ التعبير القرآني ما قدم هذه الكلمة إلا لمناسبة دقيقة، وما أخَّر تلك الجملة إلا لسرٍّ لطيف، وكما أنَّ الله سبحانه ليس كمثله شيء، فإنَّ كلام الله تبارك وتعالى ليس كمثله كلام.

والله أسأل أنْ ينفعنا ويرفعنا جميعاً بالقرآن العظيم.

وأنْ يجعل جميع أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

❖❖❖
❖❖
❖

الجانب الرابع عشر: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾:

لما فرغ سيدنا إبراهيم عليه السلام من بناء بيت الله الحرام، بأمر من الله ذي الجلال والإكرام، وبإرشاده وعونه سبحانه وتعالى.. أمره الله جل جلاله بأنْ يؤذن في الناس بالحج إلى هذا البيت العتيق.. وورد هذا الأمر الإلهي في سورة الحج.. قال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ

كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]..

المعنى العام لهذه الآية الكريمة: ناد ياإبراهيم في الناس كل الناس بالحج إلى بيت الله، يأتوك مشاة على أرجلهم وركباناً على كل مركوب ضامر من طول المسافة وبُعد الشقة، قادمين من كل فج عميق، وطريق بعيد قاصدين البيت الحرام لأداء النُسُك. قال الإمام ابن كثير [التفسير ٣/١١٦]:

ذُكِر أنَّ الخليل عليه السلام قال: يارب كيف أُبلِّغ الناس، وصوتي لا يَنفُذهم؟! فجاءه الردُّ: عليك الأذان، وعلينا الإبلاغ!!

فقام عليه السلام على مقامه - وهو الحَجر الذي قام عليه عند بناء الكعبة، ولعله أخَّره آنذاك عن جدار الكعبة إلى المكان الذي هو عليه اليوم!

قال ابن كثير: وقيل: قام إبراهيم على الصَّفا، وقيل: على أبي قُبيس، وأذَّن قائلاً: يأيها الناس إنَّ ربكم قد اتَّخذ بيتاً، وقد أمركم بحجه؛ ليثيبكم به الجنة، ويُجيركم من عذاب النار فحجُّوا..

فيقال: إنَّ الجبال تواضعتْ حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، فأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، وأجابه مَن كان في أرحام النساء، وأصلاب الرجال ممن كتب الله له الحج إلى يوم القيامة: لبيك الله لبيك.

قال ابن كثير: هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير رحمهم الله، وغير واحد من السلف، والله أعلم.

هذا وروي أنَّ آذان إبراهيم عليه السلام بالحج.. أنْ وقف بالمقام فنادى: أيها الناس أجيبوا الله، ياعباد الله أطيعوا الله، ياعباد الله اتَّقوا الله.. فوقرت في قلب كل مؤمن ومؤمنة، وأسمع ما بين السماء والأرض، فأجابه مَن في الأصلاب ممن كتب له الحج، فكان مَن حج فهو ممن أجاب إبراهيم عليه السلام. هذا (وأذِّن) فعلُ أمر مبني على السكون، والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره [أنت] والمراد به المخاطب وهو إبراهيم عليه السلام على أصح أقوال المفسرين بدليل الآية التي قبل آية الأذان بالحج في سورة الحج وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ

بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ﴾ [الحج: ٢٦، ٢٧].

وفعل الأمر طلبٌ و[يأتوك] فعل مضارع واقع في جواب هذا الطلب فصحَّ جزمه لصحة المعنى بتقدير الشرط: إنْ تؤذن في الناس بالحج يأتوك.. وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأمثلة الخمسة وأصله (يأتونك).

وفي اللغة [المقاييس ٤٥/١، المصباح ٩، اللسان ٩/١٣، التعريفات ٢٣]: (أذَّن) من أذن.. والهمزة والذال والنون.. أصلان متقاربان في المعنى: أحدهما: أُذُنٌ كل ذي أذن، والآخر: العلم والإعلام.. وعنهما يتفرَّع الباب كله.. أما [الأُذُن] بضمتين، وقد تُسكَّن الذال تخفيفاً [الأُذْن] فهي حاسة السمع في الإنسان والحيوان، وهي مؤنثة مجازاً وجمعها [آذان] ومنه قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

ويقال: هو أُذُنٌ: أي يُكثِر الاستماع من كل أحد، ويُصدِّق كلَّ ما يسمع سُمِّي بالجارحة التي هي آلة السماع كأنَّ جُملته أُذنٌ سامعة وهذا من فنون البيان.. ويستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد وغيره ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ [التوبة: ٦١]. أي نعم هو ﷺ أُذُنٌ، ولكنه نِعم الأذُن فاستماعه للحقِّ ولما يعود بخيركم. ويقال: أذن له بمعنى: استمع، قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾ [الانشقاق]. أي: استمعت لأمر ربها وانقادت لحكمه وحق لها أنْ تسمع وتطيع.

ويقال: أذِنتُ بهذا الأمر إذناً وأذَناً وأذانةً.. بمعنى علمتُ به.

وفعل الأمر بإذني أي بعلمي، ويجوز: فعله بإرادتي وأمري.

والإذن في الشيء: إعلام بإجازته والرخصة فيه.. فأذن له فيه: أي أباحه له.

ويتعدى أذن بالهمزة.. آذنته بالأمر إيذاناً أي: أعلمته به.

و(أذَّنت) بالأمر.. معناه: أكثرت الإعلام به.. والاسم منه: الأذان..

(فالأذان) نداء للصلاة، وإعلام بدخول الوقت. و(المِئذنة) المنارة يؤذَّن

عليها. و(المؤذِّن) كل من يُعلم بشيء نداء.

قال تعالى: ﴿ .. ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ [يوسف: ٧٠].

وقال سيبويه: [أذّنت وآذنت]..

من العرب من يجعلهما بمعنى واحد، ومنهم من يقول: أذّنت للتصويت بإعلان، وآذنتُ: أعلمت بلا تصويت.

هذا والتعبير القرآني استعمل [أذّن] في قوله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾.. فنادى عليه السلام بأعلى صوته: أيها الناس وأعلمهم بحج بيت الله ودعاهم إليه.

هذا وقوله: [في]:

قال ابن هشام [في مغني اللبيب ١/١٤٤]: في حرف جر، وله عشرة معان، أولها الظرفية المكانية والزمانية. وقال المرادي في [الجني الداني ١٠٠]: مذهب سيبويه والمحققين من أهل البصرة أنَّ [في] لا تكون إلا للظرفية حقيقة أو مجازاً، وما أوهم خلاف الظرفية ردَّ بالتأويل إليه..

قلت: وعليه (فالناس) في الآية ظرفٌ مجازاً وكأنَّ الأذان مُنصبٌّ فيهم.. وهذا من أفانين البلاغة.. وفي القرآن الكريم ورد الحرف [في] ١٦٩٢ ألفاً وستمائة واثنتين وتسعين مرة، أولها في سورة البقرة: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]. وآخرها في سورة الناس: ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ [الناس: ٥].

قال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾:

(الحَج) بفتح الحاء: مصدر، حَج يحُج من باب نصر، ومعناه: قَصَد، وكل قَصد فهو حَج. والحِج بكسر الحاء هو الاسم منه، وقيل هما لغتان في المصدر.

ثم قُصِر استعمال الحج في الشرع على قَصْد الكعبة البيت الحرام بصفة مخصوصة في وقت مخصوص لأداء النُسك..

وقالوا: الحَج: القصد للنسك، والدَّج: القصد للتِّجارة.. فالحاجُّ: مَن يحج البيت الحرام، وقد يُفَك الإدغام: الحاجج، وجمعه: حُجاج وحجيج، والأنثى: الحاجَّة، وجمعها: حواجّ. قال تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ.. ﴾ [التوبة: ١٩].

ويقال: أحججتُ فلاناً: أي: بعثته ليحج.

والحِجة: المرة الواحدة من حَجَّ حِجة، وهو من الشواذ لأنَّ القياس في اسم المرة الفتح.. وبه سُمِّي الشهر [ذو الحجة] وهو آخر الشهور القمرية وجمعه: ذوات الحجة.. قال الكسائي: كلام العرب كله على فَعَلْتُ فَعْلة إلا: حججت حِجة. والحِجة بالكسر أيضاً السَّنة، وجمعها: الحجج، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ...﴾ [القصص: ٢٧]. أي على أنْ تكون ياموسى أجيراً لي ثماني سنين ترعى فيها غنمي.

هذا والحُجة بالضم: الدليل والبرهان ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]. والجمع: حُجَج. والحَجُّ إلى بيت الله حَقٌّ واجب لله تعالى في رقاب الناس قال تعالى: ﴿.. وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ..﴾ [آل عمران: ٩٧]. والحَج: أحد أركان الإسلام الخمسة و(الحج الأكبر) هو الذي يسبقه الوقوف بعرفة قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ..﴾ [التوبة: ٣].. (والحجُ الأصغر) الذي ليس فيه وقوف بعرفة ويُسمَّى العُمرة.. قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ..﴾ [البقرة: ١٩٦].

أي: أدُّوهُما تامَّين بشرائطهما وأركانهما لوجه الله تعالى بلا تَوانٍ ولا نقصان، وقيل: الإتمام بإكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما، وقيل: إتمامهما: أنْ تُحرم بهما من دُويرة أهلك، أو أنْ تفرد لكل واحد منهما سفراً، أو أنْ تنفق فيهما حلالاً، أو ألاَّ تتَّجر فيهما. وقال مكحول: إتمامهما إنشاؤهما جميعاً من الميقات.

ورُوي عن عمر الفاروق رضي الله عنه: من تمام الحج والعمرة أنْ تُفرد كلَّ واحد منهما من الآخر، وأنْ تعتمر في غير أشهر الحج قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]. هذا وأشهر الحج معروفات عند الناس قال ابن عمر رضي الله عنهما: هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة (أخرجه البخاري)..

وسمِّي بعض ذي الحجة شهراً مجازاً تسمية للبعض باسم الكل وهذا من

أفانين الكلام عند العرب، كما يطلقون الكل ويراد به البعض مجازاً ومنه قوله تعالى: ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ.. ﴾ [نوح: ٧].

وقال ابن جرير: ومن ذهب إلى أنَّ أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة، فإنَّما أراد أنَّ هذه الأشهر ليست أشهر العمرة إنما هي للحج، وإنْ كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منًى.

وفي تفسير ابن كثير ١/٢٣٦: قال محمد بن سيرين رحمه الله: ما أحدٌ من أهل العلم يشكُّ في أنَّ عمرة في غير أشهر الحج أفضل من عمرة في أشهر الحج.

وعن القاسم بن محمد: أنَّ العمرة في أشهر الحج ليست بتامة.

قال ابن كثير ١/٢٣٠: وهذا القول فيه نظر؛ لأنه قد ثبت أنَّ رسول الله ﷺ اعتمر أربع عُمَر كلها في ذي القعدة:

عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست، وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، وعمرة الجعرَّانة في ذي القعدة سنة ثمان، وعُمرته ﷺ التي مع حجَّته أحرم بهما معاً في ذي القعدة سنة عشر..

وعلى أي فالحج له وقت واحد معلوم في السَّنة، والعمرة تكون في السنة كلِّها. والحج فُرض في الإسلام سنة خمس من الهجرة والصواب عند طائفة من العلماء أنه فرض في السنة التاسعة.

هذا والفعل (يأتوك) في قوله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ.. ﴾ مضارعٌ أصله: [يأتي] معتلُّ الآخر بالياء.. أُسند إلى واو الجماعة العائدة إلى [الناس] فحذُفت ياؤه وضُمَّ ما قبلها لمناسبة الواو [يأتونك] فثبوت نونه علامة الرفع.. وهنا حُذفت النون علامة الجزم فهو مجزوم في جواب الطلب الأمر [أذِّن]..

وماضي [يأتي]: أتى.. ويستعمل لازماً فلا ينصب المفعول به نحو قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ [النحل: ١]. ونحو قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [البقرة: ١٠٩]. ويُستعمل متعدِّياً بنفسه إلى المفعول، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ

أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ﴾ [الحج: ٢٧].

هذا والأمر من أتى: ائتِ، قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

وبعض العرب يقول في الأمر: [تِ] بحذف الهمزة تخفيفاً فيقال: تِني بفلان أي: ائتني به.

وأتى يأتي معناه: جاء يجيء.. ومصدره: الأتْيُ والإتيان.

ويقال: أتى عليه معناه: مرَّ به، وأتى عليه الدهرُ أي: أهلكه، وأتاه آت أي: جاءه ملك، وأتى الرجل زوجته: كنايةٌ عن الجماع، ويقال: أتى الرجل قوم بني فلان، أي: انتسب إليهم وليس منهم، فهو [أتيٌّ] على وزن فعيل أي: غريب في قوم ليس منهم.

ومنه قيل للسَّيل الذي يأتي من بلد غير بلدك ولا يُصيب تلك البلاد: أتِيٌّ. وكثير من الناس يظن أنَّ [أتى] مرادف [جاء] والمحققون يرون بينهما فروقاً منها:

● (أتى) أعمُّ من (جاء) لأن الإتيان مجيءٌ بسهولة فهو أخصُّ من مطلق المجيء.

● و[الإتيان] قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول، أما [المجيء] فيقال اعتباراً بالحصول.

● (أتى) يشير غالباً إلى البعيد، و(جاء) يُستخدم مع القريب ومنه قوله تعالى: على لسان قوم موسى عليه السلام:

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا..﴾ [الأعراف: ١٢٩].

يعنون قتل فرعون أبناءهم من قبل مولد موسى إلى أن استُنبىء، وإعادة ذلك التعذيب عليهم من بعد مجيئه عليه السلام رسولاً من الله إليهم.

● وفرقٌ آخر بين الفعلين: [أتى] عامٌّ يقال في المعاني والأزمان، وفي الخير والشر وفي الأعيان والأعراض.. من ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]. وقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

أما (جاء) فهو غالباً مع الجواهر والأعيان.. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ [القصص: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ﴾ [يونس: ٢٢].. وإن استعمل مع بعض المعاني [جاء] فلكونها متحققة فهي كالمشاهدة المرئية.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

هذا و[رجالا] في قوله تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ..﴾ منصوبٌ على أنه حال من واو الجماعة في [يأتوك] والعائد على [الناس].. [وعلى كل ضامر] في محل نصب حال معطوفة على [رجالاً] والتقدير: يأتي الناس للحج رجالاً وركباناً.

وكلمة رجال.. جمع تكسير وله مفردان: أحدهما: [رَجُل] وهو الذكر البالغ من بني آدم وهو مختص بالناس، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ [الأنعام: ٩].

وهذا المعنى ليس هو المقصود في آية الأذان بالحج.

والمفرد الآخر لرجال هو: [راجل] وهو الماشي على رجليه، وهو خلاف الفارس الراكب وهذا المعنى هو المقصود في هذه الآية..

وإذا كان لفظ [رجال] على المعنى الأول قد ورد في القرآن الكريم ستاً وعشرين مرة منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]. وقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤].

فإنَّ [رجالاً] بمعنى ماشين على أرجلهم أو واقفين عليها لم يَرِد في القرآن الكريم. إلا مرتين الأولى في سورة البقرة في صفة الصلاة حال

الخوف: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا..﴾ [البقرة: ٢٣٩]. والمرة الثانية في سورة الحج في صفة القادمين للحج: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: ٢٧]. فرجالاً هنا أي: ماشين على أرجلهم.. والأرجُل مفردها: [الرجل] بكسر الراء وهي: من أصل الفخذ إلى القدم، وهي مؤنث مجازي.. وليس لها جمع غير [أرجُل] قال تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا..﴾ [الأعراف: ١٩٥].

ويقال: رجُلٌ راجل أي: قويٌّ على المشي، والأرجَل هو: العظيم الرِجل، والأنثى: رجلاء ويقال: ترجّل الفارس: أي نزل عن دابته ومشى.

وترجّلت المرأة أي: تشبهت بالرجال في المشية والملبس وهذه مذمومة.. أما المُتشبهةُ بالرجال في الرأي والمعرفة فهي: رَجُلَة.. وهذه محمودة.

ويقال: ترجّل النهار أي: ارتفع وانحطت شمسه عن الحيطان فكأنّها ترجلت على الأرض. ورجَّل شعره أي: سرّحه كأنه أنزله إلى حيث الرِجل فقوي.

وارتجل الكلام: أورده وابتدعه قائماً بلا تدبُّر. والمِرجَل هو: القِدر المنصوبة يُطبخ فيها فكأنما أقيمت على رجل.

هذا وفي قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾. قدّم الرجال على الركبان إظهاراً لفضيلة المشاة في الحج.. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ما آسى على شيء فاتني إلا أني وددتُ قد كنت حَججتُ ماشياً.

قال ابن كثير رحمه الله [٢١٦/٣]: والذي عليه الأكثرون أنَّ الحج راكباً أفضل، اقتداءً برسول الله ﷺ فإنه حجَّ راكباً مع كمال قُوَّته عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾

[على] هنا عند أكثر اللغويين هي حرف جرٍّ ولها تسعة معان أشهرها: الاستعلاء حِساً أو معنًى.. نحو قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]. ونحو قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ [الشعراء: ١٤].

ومن لطائف الحرف [على] ما جاء في [الإتقان ٥٢٠/١]: إذا ذُكرت

النعمة في الغالب مع الحمد لم تقترن (بعلى)، وإذا أُريدت النعمة أتى (بعلى)، ولهذا كان النبي ﷺ إذا رأى ما يعجبه قال: (الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات)، وإذا رأى ما يكره قال: (الحمد لله على كل حال).

[أخرجه ابن ماجه في فضل الحامدين رقم ٣٨٠٣]

وفي القرآن الكريم جاء الحرف [على] ألفاً وأربعمائة وتسعاً وثلاثين مرة.. أولها في الفاتحة: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ..﴾ [الفاتحة: ٧]، وآخرها في سورة الماعون: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٣].

هذا و(ضامر) في [مقاييس اللغة ٥٢/٢]:

الضاد والميم والراء.. أصلان صحيحان: أحدهما: يدلُّ على غيبة وتستُّر ومنه: أضمرتُ في ضميري شيئاً.. لأن ذلك سرٌّ يُغيِّبه في قلبه وصدره وخاطره.

والأصل الآخر: يدل على دقة في الشيء ومنه: ضمر الفرس والجمل وغيرهما ضُموراً، وذلك: من خفة اللحم، وقد يكون من الهُزال.

وفي [المعجم الوسيط ٥٤٣/١]: يقال: جملٌ ضامِر، وناقةٌ ضامرٌ وضامرةٌ، والجمع: ضُمر، وضامرة وضوامر.

ويقال: أضمرتُ الحيوان: جعلته يضمُر، ويقال: ضمَّر الفرس وأضمره بمعنى: أعدَّه للسِّباق، بأن ربطه وعلفه وسقاه كثيراً مُدةً من الزمن، ثم ركضه في الميدان حتى يخفَّ ويَدِقَّ جسدُه، ومدةُ التضمير عند العرب: أربعون يوماً.. والمضمار: هو المكان الذي تُضمَّر فيه الخيل أو تتسابق.

[وفي المفردات ٣٠٢]: والضامر من الفرس: الخفيف اللحم من الأعمال لا من الهُزال. [وفي اللسان ٤٩١/٤]: والضَّمر من الرجال: الضامر البطن اللطيف الجسم، والأنثى: ضمرة. هذا وفي كتاب الله العزيز مادة [ضمر] لم يرد منها إلا كلمة واحدة هي [ضامر] وجاءت مرة واحدة وذلك في آية الأذان بالحج: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي يأتون لحج بيت الله الحرام مُشاة على أرجُلهم وركباناً على كل

مركوب ضامر مُنهك من طول المسافة إبلاً كانت أو خيلاً أو غير ذلك من وسائل النقل والمواصلات، والله يخلق مالاتعلمون؟!

[يأتين] فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة العائدة على [كل ضامر] ولم يقل [تأتي] وذلك كما قال الإمام القرطبي [٣٩/١٢]: تكرمة لها لقصدها الحج مع أربابها كما أتى بجمع الإناث في قوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ ولم يقل والعادية.. وذلك - كما قال أبو السعود [٢٨٠/٥] - أن المقصود بها هنا خيل الجهاد فجمعها تكرمة لها حين سعت مع أصحابها في سبيل الله. وقال أبو حيان في البحر [٣٦٤/٦]:

ويجوز أن يكون الضمير في [يأتين] يشمل [رجالاً وكلَّ ضامر] على معنى الجماعات والرفاق. هذا وجملة [يأتين] في محل جر صفة [لكل ضامر].. والجُمل بعد النكرات صفات.

هذا و[الفَج] بفتح الفاء هو الشُقَّة يكتنفها جبلان، ويُستعمل الفج في الطريق الواسع وجمعه [فِجاج] و[عميق] معناه: بعيد من عَمُق أي بَعُد معنى ووزناً.

وفي القرآن الكريم [الفَجُّ] مفرداً ورد مرة واحدة.. وذلك في سورة الحج: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

و[الفِجاج] جمعاً ورد مرتين.. إحداهما في سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]..

والمرة الأخرى في سورة نوح قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح].

أيها الإخوة الأكارم وفي هاتين الآيتين قدَّم التعبير القرآني الفجاج على السبل في الأولى منهما وذلك لأن الفج في الأصل هو الطريق في الجبل أو بين الجبلين.. وفي الآية الأولى منهما ذُكرت الجبال ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ والرواسي هي الجبال الثوابت جعلها الله في الأرض لئلا تضطرب

الأرضُ بالناس (وجعل فيها فجاجاً سُبلاً) فقدَّم الفِجاج على السُبل لتقدُّم ذِكر الجبال الرواسي في هذه الآية.. بينما الآية الثانية لم يرد فيها ذكر الجبال ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ لذا أخر الفجاج عن السُبل ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾.

(وفجاجاً) في الآية الأولى حال مقدمة وصاحب الحال (سبلاً).. وفي الآية الثانية (فجاجاً) صفة (سُبلاً).

ومنذ أنْ أذّن الخليل عليه السلام في الناس بالحج وإلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله والناس ممن كتب الله لهم الحج يأتون مشاة وركباناً من كل فج عميق قاصدين بيت الله الحرام مُلبِّين نداء ربهم الجليل: لبيك اللهمَّ لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والمُلك، لاشريك لك.

الجانب الخامس عشر: ضيف إبراهيم المكرمين:

قصة ضيوف إبراهيم المكرمين جاءت في ثلاث سور من القرآن الكريم وهي: [هود، والحجر، والذاريات].

وقد صُرِّح بسلام الضيوف على إبراهيم في [السور الثلاث]، وذُكر ردُّ إبراهيم عليهم في [الحجر، والذاريات] وفي هاتين [السورتين] أيضاً صُرِّح بكلمة [ضيف إبراهيم].. وفي [الذاريات] فقط وصُفوا [بالمكرمين].

أما الطعام الذي قدمه إبراهيم لضيفه هؤلاء وهو (العجل السمين الحنيذ) فقد جاء ذكره في سورتي [هود والذاريات].. وفي هاتين (السورتين) أيضاً ذُكر إحساس إبراهيم بالخوف من ضيوفه، وفي [سورة الحجر] وحدها صرح إبراهيم بأنه وجلٌ خائفٌ منهم..

قال تعالى في [الذاريات]: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الذاريات] المعنى العام بإيجاز لهذه الآيات:

هل وصل إلى سمعك يامحمد ﷺ خبر ضيوف إبراهيم المكرمين؟ حين دخلوا عليه بيته فألقوا عليه السلام وردَّ عليهم التحية بأحسن منها وقال في نفسه أو بصوته: هؤلاء قومٌ مُنكرون غُرباء عن البلد..

وأسرع إبراهيم في خُفية إلى أهله فجاء لضيوفه بعِجل سمين مشويٍّ، ودعاهم في لطف وتأدب إلى الأكل منه، فلم يأكلوا، فأحس إبراهيم في نفسه منهم خيفةً وفزعاً، فطمأنوا قلبه وأزالوا خوفه وأخبروه وبشروه بأنه سيولد له غلامٌ عليم.

أحبتي الكرام وبالتأمل في آيات ضيوف إبراهيم عليه وعليهم السلام نجد عدداً كبيراً من اللطائف التعبيرية، واللمحات اللغوية، أقتطف لكم بعضاً منها.. فأقول والله المستعان: [هل أتاك].. هل: أداة استفهام، وأدوات الاستفهام أسماءٌ إلا اثنتين منها فهما حرفان، وهما [الهمزة وهل].. والهمزة: هي أصل أدوات الاستفهام لأنها عريقةٌ فيه وضعاً، بخلاف أسمائه فالاستفهام فيها طارئٌ عليها بالتضمن، ثم الهمزة أبسط من (هل) وأخف منه في الاستعمال.

وا هل ا تختص بالتصديق، فيجاب عليها بالإيجاب أو بالنفي عند قولك: هل هذا كتابك؟ ولا تدخل [هل] على نفي فلا يقال: هل لم يحضر أخوك؟

ويراد [بهل] النفي إن وقع بعد ا إلاّ] نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] المعنى ما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

هذا وكلمة (هل) وردت في القرآن الكريم ثلاثاً وتسعين مرةً.. أولها في سورة البقرة قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وآخرها في [سورة الفجر] قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥].

و[هل أتاك] هذا التركيب جاء في القرآن الكريم ست مرات: أولها في [سورة طه ٩]: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾؟ وآخرها في [سورة الغاشية ١]: ﴿هَلْ أَتَاكَ

حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾؟.

هذا والمخاطب في ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ هو رسول الله سيدنا محمد ﷺ وغرض الاستفهام هنا: التشويق وتفخيم شأن هذه القصة، وفي العبارة تقرير.. وذلك لتجتمع نفس المخاطب ليسمع ما يُلقى عليه، وفيه تنبيهٌ على أن هذا ليس من علم الرسول وإنما عرفه بالوحي ﷺ.

وفي [سورة الحجر ٥١] جاء التعبير: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: أخبر يامحمد قومك وعبادي المؤمنين ما أُخبرك به من حديث وقصة ضيوف إبراهيم.

هذا و[الحديث] هو ما يتحدث به ويُنقل (المصباح ١٢٤).

وفي [المفردات ١١٧]: وكلٌّ كلامٍ يبلُغُ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه يقال له: (حديث).

وكلمة [ضيف] تعني النزيل.. وأصله: الميل، فضيفك من مال إليك نازلاً بك، وضيفٌ أصله مصدرٌ من: ضافه يضيفه ضيفاً [المصباح ٣٦٦].

ولهذا يستوي فيه الواحد وغيره فيقال: ضيفٌ، وهذه ضيف، وهذان وهاتان ضيف وهؤلاء ضيف.

وتجوز فيه المطابقة فيقال: ضيفٌ، وضيفة، وضيفان وأضياف وضِيفان وضُيوف.

ولكن التعبير القرآني لم يستخدمه إلا بلفظ الواحد على الأفصح.. وجاء ذلك في خمسة مواضع: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١]، ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الذاريات: ٢٤]، ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ [القمر: ٣٧]، ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود: ٧٨]، ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ [الحجر: ٦٨].

و[إبراهيم] هو خليل الله أبو الأنبياء عليه الصلاة والسلام وقد اشتهر بالكرم فهو أبو الضيفان. وهنا وصف [ضيف إبراهيم بالمُكرمين] فدل الوصف على أنهم جمعٌ لا واحد ووصفوا بالمكرمين لكرامتهم وعُلُوّ منازلهم عند الله تعالى.. فقد كانوا ملائكة، والله وصف الملائكة بهذا الوصف في

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ضيف إبراهيم هم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام. [تفسير القرطبي ١٧/٤٤].

وقيل: كانوا اثني عشر ملكاً على صورة غلمان حسان الوجوه.. والتعبير القرآني أطلق عليهم [ضيف] لكونهم في صورة الضيوف، أو لحسبان إبراهيم كذلك.

[إذ دخلوا عليه] (إذ) هنا اسمٌ للزمن الماضي، ومعناه: حين، وجملة (دخلوا) في محلِّ جرٍّ مضاف إلى إذ، أي: حين دخولهم عليه بيته.

[فقالوا سلاماً قال سلامٌ]..

هُم بدأوه بالسلام لأنهم ضيوفٌ وهو صاحب البيت، وجاء سلامهم منصوباً [سلاماً] وجاء سلامه مرفوعاً [سلامٌ].

وأرجح أوجه الإعراب في هاتين الكلمتين:

أن [سلاماً] مفعولٌ به أي: نُسلِّم عليك سلاماً، وأما [سلامٌ] فهو مبتدأٌ خبره محذوفٌ والتقدير: سلامٌ عليكم.

أيها الإخوة الأكارم وبالمقارنة بين السلامين: نجد أن رد إبراهيم الخليل كان أحسن من سلام الملائكة..

وذلك لأن سلامهم جاء منصوباً [قالوا سلاماً]. والمنصوب يعني أنه مُحدَثٌ أي أنه لم يكن موجوداً من قبل، بل القائلون هم الذين أوجدوه وأحدثوه وقالوه. فجاء قولهم متضمناً جملةً فعلية، والتقدير: نُسَلِّم عليك سلاماً.

وأما ردُّ إبراهيم فجاء مرفوعاً: [قال: سلامٌ]، والمرفوع معناه موجودٌ قبل أنْ يقوله القائل، وجاء قوله متضمناً جملةً اسمية، والتقدير: قال: سلام عليكم والجملة الإسمية: إخبارٌ عن موجودٍ ثابتٍ مستمر..

فإذا عرفت أخي الكريم إعراب الكلمتين [سلاماً] و[سلامٌ] فهمت الفرق الدقيق بين السلامين، وتبين لك أنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيَّا الملائكة عليهم السلام بتحيةٍ خيرٍ وأحسن من تحيتهم.. فكان له من مقامات

الفضل ما يليق بمنصبه عليه السلام.

هذا وفي [بدائع الفوائد ١٥٨/٢] أضاف ابن القيم رحمه الله معنًى لطيفاً آخر وقد وجدت هذا المعنى عند الإمام السهيلي رحمه الله في كتابه [نتائج الفكر في النحو ص٤١٥] والمعنى هو: أنَّ قول إبراهيم: [سلامٌ] أي: سلامٌ عليكم هو من دين الإسلام المُتلَقَّى عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء، وأنه من ملة إبراهيم التي أمر الله بها وباتباعها، فحكى لنا قوله: [قال سلام]ليحصل الاقتداء به والاتباع له.

قال تعالى على لسان الخليل بعد رده السلام على ضيوفه: ﴿قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾ أي: أنتم أو هؤلاء قومٌ منكرون. قال ابن كثير رحمه الله في التفسير [٢٣٥/٤]:

قَدِم أضياف إبراهيم عليه في صورة شُبانٍ حِسَانٍ عليهم مهابةٌ عظيمة، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾.

قال الإمام النسفي رحمه الله [٣٧٦/٣]: والمعنى: فعرِّفوني مَن أنتم.

قال أبو عالية: أنكر إبراهيم سلامهم في تلك الأرض، وذلك الزمان، [البحر المحيط ١٣٩/٨] وقال أبو حيان: والذي يُناسب حال إبراهيم عليه السلام أنه لا يخاطب ضيفه بذلك؛ إذ فيه من عدم الأُنس مالايخفى، وإنّما قال ذلك في نفسه أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه بحيث لا يسمع ذلك الأضياف.

قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾.. في المصباح ٢٤٦، وفي المفردات ٢١٣، وفي تفسير ابن الجوزي ٣٦/٨:

(راغ) معناه: مال ومضى إلى أهله في سرعة وخفية عن ضيفه مُخفياً مضيه مستعجلاً وهو من: راغ الثعلب يروغ روغاً وروغاناً أي: ذهب يمنةً ويسرةً في سرعةٍ وخديعة، وراغ فلانٌ إلى كذا: مال إليه سراً، والرَّوغ: الميل على سبيل الاحتيال قال ابن قتيبة: ولا يكون الرواغ إلا أنْ تُخفي ذهابك ومجيئك.

هذا وكلمة [راغ] وردت في القرآن الكريم ثلاث مرات، وكلُّها عن إبراهيم عليه السلام مرتين في سورة الصافات، قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٩١]، وقال تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣].

والمرة الثالثة في الذاريات قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]. (إلى أهله) أي: زوجته سارّة، (فجاء) هو إبراهيم أي رجع إلى ضيوفه بسرعة إذ عطفٌ (جاء) على (راغ) بالفاء (فراغ فجاء) يدل على سرعة مجيئه بالقِرا الذي قدمه لضيفه وأنه كان مُعَداً عنده لمن يرِدُ عليه فهو أبو الضيفان.

وفي [سورة هود] جاء التعبير: ﴿قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ﴾ [هود: ٦٩] أي: ما أبطأ ولا تأخر مجيئهُ.

و[العجل] هو ولد البقر ويُسمى (الحسيل) وذلك مادام له شهرٌ، وبعد الشهر ينتقل عنه الإسم فهو [بقرةٌ أو ثورٌ] وقيل أُنثى العِجل: العِجلة، وبقرةٌ مُعجِل أي: ذات عجل، وجمع العجل: عجولٌ وعِجلَة.

ولفظ [العجل] ورد في كتاب الله العزيز عشر مرات.. مرتين منها عن (عجل إبراهيم) والمرات الثمانية الأخرى كانت عن [عجل بني إسرائيل قوم موسى] والذي اتخذوه من حُليِّهم (عجلاً جسداً له خوار) فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فعبدوه أخراهم الله.

هذا وإبراهيم عليه السلام جاء ضيوفه (بعجلٍ سمين) أي: دَسِم يقطر دسَمُه قال قتادة: وكان عامة مال إبراهيم البقر، واختاره لهم سميناً زيادةً في إكرامهم. وكان العجل حنيذاً كما وصف في [سورة هود ٦٩].. وفي البحر المحيط ١٣٩/٨: والحنيذ: هو المشوي بالحجارة المحماة، وفيه دليلٌ على أنَّ العجل كان سابقاً شَيُّه قبل مجيء الضيوف، فإبراهيم الخليل كان مضيافاً طعامه دوماً مُعَدٌّ وجاهزٌ لمن ينزل به (فقربه إليه قال ألا تأكلون) المعنى: أدنى إبراهيم العجل السمين الحنيذ من ضيوفه ووضعه بين أيديهم، وقال لهم في

لطفٍ وبشاشة: ألا تأكلون هذا الطعام؟ (ألا) هنا معناها: العرض والطلب برفقٍ ولين.

وقيل: الهمزة في (ألا) للإنكار و(لا) نافية.. وكأن التقدير: فامتنعوا عن الأكل فأنكر عليهم ترك الأكل قال الكفوي في [الكليات ٩٨] إنْ قاله أول ما وضع الأكل احتمل العرض وإنْ قاله حينما رأى إعراضهم احتمل الإنكار.

وفي (سورة هود ٧٠) جاء التعبير: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ أي: فلما لم ير لضيفه همة إلى الأكل بالكلية وذلك لأنه ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام نَكِرَهُم.

وفي البحر ١٣٩/٨: وروي أنَّ الضيوف قالوا لإبراهيم: إنا لا نأكل إلا ما أدينا ثمنه! فقال لهم: وإني لا أبيح طعامي لكم إلا بثمن! قالوا: وما ثمنه؟ قال عليه السلام: أنْ تُسَمُّوا الله عز وجل عند الابتداء، وتحمَدوه عند الفراغ من الأكل!!

فقال بعضهم لبعض: لقد اتخذ الله إبراهيم خليلاً بحق! [وفي الكشاف ٤٠٢/٤] وعن عون بن شداد: أنَّ جبريل عليه السلام مسح العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه؟!

قال الإمام ابن كثير في التفسير ٢٣٥/٤: هذه الآية: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات] قد انتظمت آداب الضيافة وهي:

- أنَّ إبراهيم جاء ضيوفه بطعام من حيث لا يشعرون.
- ولم يمتنَّ عليهم بقوله: هل آتيكم بطعام؟ بل جاء به من ذاته وبسرعةٍ وخفاء.
- وأتى بأفضل ما وجد من ماله: عِجلٌ فتيٌّ سمينٌ مشويٌّ.
- ولم يضعه بعيداً عنهم وقال: تقدَّموا، بل قرَّبه إليهم ووضعه بين أيديهم.
- ولم يأمرهم أمراً يشق عليهم بصفة الجزم [كلوا] بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾

على سبيل العرض والتلطف.

هذا وزاد أبو حيان [في البحر ١٣٩/٨]:

أنَّ في العرض على الأكل تأنيساً للآكل، بخلاف مَن قدَّم طعاماً ولمْ يحث على أكله، فإنَّ الحاضر قد يتوهم أنه قدمه على سبيل التجمُّل وعسى أنْ يمتنع الحاضر من الأكل فيبقى الطعام لصاحب البيت.. وهذا موجودٌ في طباع بعض الناس.

عافانا الله أيها الإخوة وإياكم من البُخل والشُّحِّ.

قال تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.. قال ابن فارس في مقاييس اللغة ٦٢١/٢: وَجَسَ: الواو والجيم والسين.. كلمةٌ تدل على إحساسٍ بشيءٍ وتسمُّعٍ له. وتوجس الشيء: أحس به فتسمع له.

وفي المفردات للراغب ٥٢٨: (أوجَسَ) من الوجس، وهو الصوت الخَفيُّ، والتوجُّسُ، والإيجاسُ: وجود ذلك في النفس..

فالوجس: هو حالة تحصل من النفس بعد الهاجس؛ لأنَّ الهاجس هو: مبتدأ التفكير، ثم يكون الواجس وهو الخاطر.

فلما استمر ضيوف إبراهيم على الامتناع من الأكل أوجس إبراهيم عليه السلام وأحسَّ في نفْسه وخاطره منهم خيفة وفزعاً؛ وذلك أنَّ أكْل الضيف أمنةٌ ودليلٌ على انبساط نفسه، وللطعام حُرمةٌ وذمام، والامتناع عنه وحشة.. [البحر المحيط ١٣٩/٨].

فخشي إبراهيم عليه السلام أنَّ امتناعهم مَن أكْل طعامه إنما هو لشر يريدونه!! قال قتادة: كان العرب إذا نزل بهم ضيفٌ فلم يطعم من طعامهم، ظنوا أنه لم يجئ بخير، وأنه جاء يُحدِّث نفسه بشرٍّ.

هذا وفي [سورة الحجر] أباح إبراهيم عليه السلام لضيوفه بما في قلبه من خوفٍ ووجل منهم قال تعالى على لسانه عليه السلام: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢]. قال الراغب [المفردات ٥٢٨]: الوجَل: استشعار

الخوف، يقال: وَجِلَ يَوْجَلُ وجلاً فهو: وَجِلٌ وهي: وَجِلَةٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

فطمأن الضيوف إبراهيم عليه السلام وقالوا له.. في [سورة الذاريات]: ﴿لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] وفي [سورة الحجر] ﴿قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣] وجاء كل فعل في الآيتين مناسباً ما قبله، في الأولى(فأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف) وفي الثانية: (قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل).. فسبحان الله العظيم مُنزِّل هذا القرآن العظيم!!

وفي هاتين السورتين [الذاريات والحجر] بشَّر الضيوفُ إبراهيم بأنه سيولد له من زوجه سارَّة غلامٌ عليم، عظيم الذكاء، واسع العلم، وهو إسحاق عليه السلام وعرَّفوه بأنهم ملائكةٌ وأنهم رسل الله، وقيل عَلِمَ إبراهيم أنهم ملائكة من حيث أنهم بشَّروه بغيب.. وفي هاتين السورتين.. بعد أنْ تلقَّى إبراهيم من الملائكة البشارة بإسحاق سألهم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الذاريات: ٣١، ٣٢] و[الحجر: ٥٧، ٥٨] أي إلى قوم لوط عليه السلام.

أما في سورة هود فقد جاء التعبير هكذا: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود].

فهنا في [سورة هود] جاء ذكر مهمة هؤلاء الملائكة متقدماً على ذكر البشارة بالولد.. والسبب – والعلم عند الله –أنَّ آيات [سورة هود] بدأت بقوله تعالى: [ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى] فهذه البداية الصريحة أعلنت أنهم رُسُلُ الله، لهذا قالوا لإبراهيم عندما أوجس منهم خيفةً: (قالوا لا تخف إنا أُرسلنا إلى قوم لوط) دون أنْ يسألهم هو عن خطبهم وشأنهم الذي أرسلوا من أجله.

وهكذا كل تعبيرٍ قرآني جاء مناسباً السياق الذي جاء فيه..

فسبحان الله العظيم مُنزل هذا القرآن الحكيم، دقت حكمته في كل شيءٍ خلقه، وتناهت بلاغة كلامه في كل تعبير في قرآنه.

❖❖❖
❖❖
❖.

الجانب السادس عشر: البشارة بمولد إسحاق عليه السلام:

عرفنا في الجانب السابق أن الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إلى إهلاك قوم لوطٍ المجرمين مَرُّوا على إبراهيم عليه السلام مجتازين، ودخلوا عليه بيته في صورة أضياف.. ولم يأكلوا من طعامه الذي قدمه لهم فأوجس في نفسه منهم خيفةً.. فطمأنوه وأزالوا خوفه وبشروه بأنه سيولد له غلامٌ عليم، ولم يذكروا اسم هذا الغلام لا في [سورة الحجر ولا في الذاريات] أما في [سورة هود] فقد صرح الملائكة باسمه في بشارتهم به لامرأة إبراهيم وهي سارة، قال تعالى: ﴿ ... قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ [هود: ٧٠، ٧١]..

أي: وكانت امرأة إبراهيم قائمةً معه على خدمة أضيافه، أو كانت قائمةً في زاويةٍ تنظر إليهم وتسمع كلامهم.. (فضحكت) مُبتسمة استبشاراً بغضب الله على قوم لوطٍ الغافلين عن العذاب النازل بهم على يد هؤلاء الرسل المكرمين!

أوضحكت سروراً بزوال الخوف عن بعلها، والنساء في باب الفرح أطرب من الرجال، وفي تفسير ابن كثير [٤٥٢/٢] عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: (فضحكت) أي حاضت.. وفي تفسير البحر المحيط [٢٤٢/٥]: أي: وجدت حرارة الدم في جسدها فلطمت وجهها من الحياء.. (فبشرناها) أي: فبشرها الله عز وجل على لسان ملائكته بإسحاق ولداً، وبيعقوب ولدولد.. وخُصَّت بهذه البشارة الصريحة والمُضاعفة حيث لم يكن لها ولدٌ، وكان لإبراهيم ولده إسماعيل من هاجر..

فكأنَّ الملائكة بعد بشارتهم إبراهيم بالولد، بشروا امرأته بالولد وبولد الولد وبشارتهم إنما هي بأمر الله تعالى ووحيه..

قال ابن كثير في قصص الأنبياء [١٤١]: وهذه البشارة فيها دليلٌ على أنها تستمتع بوجود ولدها الذكر إسحاق ثم من بعده يُولد ولده يعقوب أي يُولد الحفيد في حياة إبراهيم وسارة لتقرَّ أعينهما بهما، ولو لم يُرَد هذا

المعنى لم يكن لذكر يعقوب، وتخصيص النص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة..

فلما عُين بالذِكر دلَّ على أنهما عليهما السلام يستمتعان به، ويُسران بمولده كما سُرا بمولد أبيه إسحاق من قبله.

وقال أبو حيان في البحر: [٥/٢٤٣]: وبُشرت سارة بيعقوب من بين أولاد إسحاق لأنها رأته ولم تر غيره.

هذ وقد امتنَّ الله تعالى على خليله إبراهيم بمنة الولد وولد الولد في أكثر من موضع في كتابه العزيز من ذلك قوله تعالى في [سور الأنعام]: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ [الأنعام: ٨٤].

وقوله تعالى في [سورة مريم]: ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٤٩].

وقوله تعالى [في سورة الأنبياء]: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

قال الإمام ابن كثير في التفسير:

ذكر الله تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أنْ طعن في السن، وأيس من الولد، وبُشر بنبوته، وبأنَّ له نسلاً وعَقِباً، وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة..

وكان هذا مجازاةً من الله تعالى لخليله عليه السلام حين اعتزل قومه وأباه، وهاجر من بلادهم بابل العراق إلى حيث أمره الله من بلاد الشام؛ لعبادة الله والدعوة إلى الله، وسأل إبراهيم ربه ولداً صالحاً فوهبه إسحاق ولداً، وزاده يعقوب نافلةً زيادةً على ما سأل وفضلاً منه تعالى من غير سؤال..

وولد الولد كالولد، وجعل الله الكريم الولد والحفيد أولاداً صالحين مهديين أنبياء مباركين.

هذه هبة الله تعالى لإبراهيم وامرأته سارة عليهما السلام بُشِّرا بها على

لسان (ضيف إبراهيم المكرمين) ولكن إبراهيم الشيخ الكبير وسارّة المرأة العقيم قابلا هذه البشرى بتعجب شديد وورد تعجب إبراهيم في [سورة الحجر] قال تعالى: ﴿قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾[الحجر:]؟!!

أي: قال إبراهيم على وجه التعجب والاستبعاد: أبشرتموني بالولد على حالة الكبر والهرم فبأي أعجوبةٍ تُبشروني؟! إنَّ الولادة أمرٌ مُستنكرٌ مع كِبر السن!!

هذا وأما تعجب امرأة إبراهيم ببشارة الولد فقد جاءت في سورتين.. (الذاريات) و(هود) قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]!!

فالآية الأولى حكت فعلها، والآية الثانية حكت قولها.. والمعنى العام بإيجاز: لما سمعت سارّة امرأة إبراهيم بشارة الملائكة لإبراهيم بالولد وهي بشارةٌ لها أيضاً لأنَّ الولد المبشر به سيتولد منهما.. أقبلت نحوهم في صرخةٍ عظيمة وضجة، تريد أنْ تستفسر عن الخبر، فلطمت وجهها ببسط كفيها، أو ضربت بيدها على جبينها تعجباً، كما تتعجب النساء من الأمر الغريب، وقالت: ياويلتي ويالهفي وياعجبي وحسرتي أألد وأنا امرأةٌ عجوزٌ مُسنَّة!، وقد كنت في حال الصِّبا عقيماً لم أحبل ولم ألد قط، فكيف ألد اليوم وقد يئست من المحيض؟!! وهذا بعلي إبراهيم شيخٌ كبيرٌ هَرِم، فكيف يأتينا الولد؟!! إنَّ هذا الأمر لشيءٌ عجيبٌ غريب لم تَجرِ به العادة..

قال مجاهد: كان عُمُر سارة يومئذٍ تسعاً وتسعين سنة، وعُمرُ إبراهيم مائةً وعشرين. [البيضاوي ٢٥٣]..

وسمع الملائكة ورأوا تعجب إبراهيم واستغراب امرأة إبراهيم.. فردوا على كلٍ منهما تعجبه واستغرابه في لهجة صريحةٍ حازمةٍ وتعبيرٍ دقيق..

هذا وقد جاء ردهم على إبراهيم في سورة الحجر قال تعالى: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥]..

أي: ياإبراهيم ياخليل الله إنا بشرناك باليقين الثابت الذي لا لبس فيه، فلا تكن من القانطين اليائسين من رحمة الله.

قال الفخر الرازي [التفسير الكبير ١٥٧/١٩]: نهيُ الإنسان عن الشيء لا يدل على كون المنهي فاعلاً للمنهيّ عنه..

هذا وأجابهم سيدنا إبراهيم مستنكراً نهيهم وموضحاً مراده قال تعالى على لسانه: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]..

المعنى: عجباً لكم ياملائكة الله فإنني لم أستنكر بشارتكم بالولد قُنوطاً من رحمة ربي فلا يقنط من رحمة الله إلا الكافرون الضالون والمخطئون طريق الصواب، الجاهلون برب الأرباب.. أما القلب العامر بالإيمان، المتصل بالرحمن فإنه لا ييأس ولا يقنط.. واعلموا يارسل الله أنَّ تعجبي بما بشرتموني إنما كان استبعاداً لأمر لم يجيء في العادة.. والعادة الجارية بين الناس أنَّ الولد لا يحصل حال الشيخوخة التامة وإنما يحصل في حال الشباب؟!

قال الإمام البيضاوي على الجلالين [٢٨٦]:

وكان تعجب إبراهيم عليه السلام باعتبار العادة دون القدرة، فإنَّ الله تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين فكيف من شيخ فانٍ، وعجوز عاقر؟!

ولذلك أجابهم خليل الله بهذا الجواب:

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

وعندما تعجبت سارة امرأة إبراهيم بقولها في [سورة هود]: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].

رد الملائكة عليها تعجبُها في [هود]:

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

أي: أتعجبين ياامرأة خليل الله من قدرة الله، ومن حكمة الله في خلق الولد من زوجين هَرِمين؟ وأنت في بيت النبوة، ومُتنزَّل الآيات، ومهبط المُعجزات، والأمور الخارقة للعادات فكيف يليق بك التعجب؟! وإنَّ رحمة الله عليكم متكاثرة، وبركاته لديكم متوالية ياأهل بيت إبراهيم..

وهذي البُشرى ليست بعجيبةٍ ولا غريبة، بل هي وأمثالها مما يُكرمكم به رَبُّ العزة، ويخُصُّكم بالإنعام بها.

وإنه جلَّ جلاله (حميدٌ) محمودٌ بتعجيل النِّعم، (مجيدٌ) ماجدٌ مُمَجَّدٌ في صِفاته وذاته وهِباته، مُستحقٌّ للحمد والتمجيد من جميع عباده على جميع أفعاله..

فكان عليك ياأمَةَ الله حَمْدُ الله، وتمجيده لا التعجب من صنيعه!!

كما رَدَّ الملائكة على تعجب إمرأة إبراهيم مرة أخرى وذلك في [الذاريات] ولكن بإيجاز.. قال تعالى: ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠].

أي: أنَّ الأمر كما أخبرناك به، وقد حكم وقضى ربُّكِ به من الأزل، ونحن إنما نُخبرك عن الله القادر على إيجاد ما يُستبعد إيجاده، فلا تعجبي ولا تَشكِّي منه.. إنَّ ربكِ هو (الحكيم) في أقواله وأفعاله، (العليم) بمصالح خلقه، وبما يستحقونه من الكرامة ياأهل البيت.

هذا ورُوي أنَّ سارَّة قالت لجبريل عليه السلام: وما آية ذلك؟ فأخذ عُوداً يابساً فلواه بين أصابعه فاهتزَّ العود أخضرَ، فسكن رُوعُها وزال عجبُها [البحر ٥/٢٤٥].

هذا و[أهل البيت] منصوبٌ على النداء، أو الاختصاص الدال على المدح، والتقدير: ياأهل البيت، أو نخص أهل البيت.

قال أبو حيان في البحر المحيط [٥/٢٤٥]: وفي خطاب الملائكة امرأة إبراهيم بقولهم: (أهل البيت) دليلٌ على اندراج الزوجة في أهل بيت الزوج.. ويؤيد ذلك قوله تعالى في [سورة الأحزاب] مخاطباً نِساء النبي ﷺ:

﴿ .. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وذلك بخلاف الشيعة فإنهم يُخرجون الزوجة من أهل بيت زوجها.

وزال العجب عن سارة وظل إبراهيم عليه السلام يحمد الله على ما وهب له من الولد قال تعالى على لسان خليله عليه السلام: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وفي روايةٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما: وُلد لإبراهيم إسماعيل وهو ابن تسعٍ وتسعين، ووُلد له إسحاق وهو إبن مائةٍ واثنتي عشرة سنة. [زاد المسير ٣٦٨/٤].

وأفاض الله تعالى على إبراهيم وعلى ولده إسحاق عليهما السلام بركات الدُّنيا والدِّين قال تعالى: ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴾ [الصافات: ١١٣].

قال الإمام النسفي [١٣٤/٣]: بارك الله على إبراهيم في أولاده وعلى إسحاق بأن أخرج من صُلبه ألف نبيٍّ أولهم يعقوب وآخرهم عيسى عليهم السلام..

قال تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصافات: ١١٣].. أي: وجعل من ذرية إبراهيم ومن ذرية إسحاق مؤمناً وكافراً..

قل الإمام أبو حيان [٣٧٢/٧]: وفي هذه الآية وعيدٌ لليهود ومَن كان من ذريتهما ممن لم يؤمن بمحمد ﷺ، وفيها أيضاً دليلٌ على أنَّ البَرَّ قد يلدُ الفاجر، ولا يلحقه من ذلك عيبٌ ولا منقصة.

أحبتي الكرام وأما كلمة [إسحاق].. فالمشهور أنه اسمٌ أعجميٌّ غير منصرف وقال الفيروز ابادي في [بصائر ذوي التمييز ٤٢/٦]: وقيل: إسحاق اسمٌ عربيٌّ مشتقٌّ من السحق والإسحاق.

قال ابن فارس في [مقاييس اللغة ٥٨٩/١]: سحق: السين والحاء والقاف أصلان، أحدهما: البعد، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١١]، والأصل الآخر: إنهاك الشيء حتى يبلغ إلى حال البِلى، والسحق:

هو الثوب البالي.. والتعبير القرآني استخدم [إسحاق] على الاستعمال المشهور أي: أنه اسمٌ أعجميٌ لا يُنوَّن، ويُجر بالفتحة وذلك للعلمية والعُجمة من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [النساء: ١٦٣]. هذا وقد ورد إسحاق في القرآن الكريم في سبعة عشر موضعاً..

أولها: في [سورة البقرة]: ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وآخرها: في [سورة ص]: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [ص: ٤٥].

قال الإمام الطبري في [تفسيره ٢٣/١٠٩]: (أولي الأيدي والأبصار أي: أهل القوة في عبادة الله، وأهل العقول المبصرة في الدين).

هذا ولم يقع اسم إسحاق مُنادى في كتاب الله العزيز البتة.

هذا وأما كلمة [ياويلتا] في قول امرأة إبراهيم عليهما السلام.. فمعناها: ياحسرتا ويالهفتا وياعجبا فالألف في آخرها بدلٌ من ياء الإضافة عند غير سيبويه والأصل: ياويلتي وانقلبت كسرة التاء فتحة لمناسبة الألف (ياولتا) وقرأ الحسن البصري: ياويلتي [البحر ٥/٢٤٤] قال أبو حيان: وأصل الدعاء بالويل في التفجع؛ لشدة مكروه يدهَم النفس، ثم استعمل بعد في عجب يدهم النفس، قال: و(ياويلتَي) كلمةٌ تَخِفُّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه.

وفي القرآن الكريم جاءت كلمة [ياويلتا ثلاث مرات]:

الأولى: على لسان (قابيل) قاتل أخيه (هابيل): ﴿ .. قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١].

المرة الثانية: على لسان الظالم لنفسه الذي فارق طريق الرسول ﷺ، فيقولها يوم القيامة حسرةً وندامة ولاتَ ساعةَ مَندَم. قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ

فُلاناً خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي.. ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

والمرة الثالثة والأخيرة: جاءت الكلمة على لسان امرأة إبراهيم عليهما السلام قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].

هذا و[العجوز] هي المرأة المسنة، قال ابن السِّكِّيت: ولا يؤنث بالهاء.

وقال ابن الأنباري: ويقال أيضا: (عجوزة) بالهاء، وذلك لتحقيق التأنيث، وجمع عجوزٍ: عجائز، وعُجُز بضمتين (المصباح المنير ٣٩٤).

وفي [المفردات ٣٢٦]: و(العجوز) سميت لعجزها في كثير من الأمور.

قلت: وكلمة (عجوز) وردت في كتاب الله العزيز أربع مرات..

مرتين على لسان سارة امرأة إبراهيم الخليل تصف نفسها:

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢]. و﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩].

ومرتين جاءت الكلمة في امرأة لوط عليه السلام: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الشعراء]. و﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الصافات].

هذا وفي اللغة [المصباح ٥٥ - المفردات ٦٤]:

[البَعْل]: هو الزوج، يقال: بَعل يبعُل بُعُولةً.. إذا تزوج، والمرأة (بعل) أيضاً، وقد يقال فيها (بعلة) بالهاء كما يقال فيها زوجٌ وزوجة تحقيقاً للتأنيث وجمع البعل: بُعُولة، قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ..﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ويقال: (باعَل) الرجل امرأته (مباعلةً وبِعالاً) أي: لاعبها.

ولما تُصور من الرجل الاستعلاء على المرأة، فجُعل سائسها والقائم عليها؛ سُمِّي باسمه كل مستعل على غيره.

فسمى العرب معبودهم الذي يتقربون إلى الله تعالى (بعلاً) لاعتقادهم ذلك فيه، قال تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥].

ويقال: أتانا بعل هذه الدابة أي: المُستعلي عليها، وقيل للأرض المُستعلية على غيرها (بعل)، ويقال لفحل النخل: بعل، ولما عظم من النخلات حتى

يشرب بعروقه يقال له (بعل).

هذا وكلمة (بعل) مفردة وردت في كتاب الله العزيز ثلاث مرات..

مرة في [سورة النساء ١٢٨]: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾.

ومرةً في [الصافات ١٢٥]: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾.

والمرة الثالثة في [هود ٧٢]: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾.

و[الشيخ] يقال لمن طعن في السن، والجمع: شيوخٌ وشِيخان وأشياخ وشِيخةَ والمصدر [شيخوخة] من شاخ يشيخ، والمرأة (شَيخة) و[المشيخة]: اسم جمع للشيخ وجمعها: [مشايخ] وقد يطلق (الشيخ) على من يكثر علمه..

وكلمة [شيخ] مفردةً جاءت في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

في [سورة القصص ٢٣]: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، وفي [سورة يوسف ٧٨]: ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾. وفي [سورة هود ٧٢]: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾.

وأهل النحو يقولون:

(هذا): اسم إشارة في محل رفع مبتدأ، و(بعلي) خبر المبتدأ مرفوعٌ بضمة مقدرة لاشتغال المحل بالكسرة المناسبة لياء المتكلم. و[شيخاً] على قراءة النصب هو: حالٌ عند البصريين والعامل في الحال هنا معنوي.. والمراد [بالعامل المعنوي] في الحال: هو ما تضمن معنى الفعل دون حروفه.. كأسماء الإشارة، وحروف التمني، والتشبيه، والظرف والجار والمجرور.. (فهذا) في الآية اسم إشارة وهو يتضمن معنى أشير دون حروفه ولفظه. و(شيخاً) نُصب على الحال والعامل فيه (هذا).

ومثل هذا: (هذه وتلك).. في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وفي قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا..﴾ [النمل: ٥٢].

(فأمةً) حال، و[خاويةً] حال والعامل فيها اسم الإشارة [هذه وتلك] المتضمنا معنى أُشير.

❖❖❖

الجانب السابع عشر: [الفرق بين المرأة والزوجة]:

التعبير القرآني قال عن (سارَّة) قرينة إبراهيم عليه السلام: [وامرأته قائمةٌ] ولم يقل: [زوجه] ولا [زوجته] على حين أنه قال عن (حواء): (زوج) ولم يقل: (امرأة) في نحو قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ...﴾ [البقرة: ٣٥].

وقد يبدو للبعض أنَّ ذلك يسير فأحد اللفظين (المرأة والزوج) يقوم مقام الآخر فنقول مثلاً: امرأة آدم، وزوج إبراهيم، وزوج فرعون، وزوج العزيز، وزوجة أبي لهب.. ولكنَّ الحقيقة أنَّ التعبير القرآني المعجز يأبى ذلك..

أما لماذا يأباه؟! فللفرق الدقيق بين [المرأة والزوج]، والتعبير القرآني له القِدح المعلَّى في التفريق بين ما يظنه الناس من المترادفات.. فجاء كل لفظ في القرآن الكريم في مكانه المناسب الدقيق بحيث لا يمكن أنْ يقوم غيره مقامه حتى ولو كان مرادفه عند الناس..

وهذا ما أدركه العرب الخُلَّصُ الفُحصاء الذين نزل فيهم القرآن.

وللتوضيح أقول: في اللغة:

[المرء]: هو الرَّجُل، فإنْ لم تأت بأل قلت: (هو امرؤٌ) وجمعه: (رجال) على غير لفظه.. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

والأنثى: [امرأة] بهمزة الوصل، وفيها لغةٌ أخرى: [مرأة] ويجوز فيها: [مَرَة]... والجمع: [نساء، ونسوة] على غير لفظها..

والتعبير القرآني لم يستعمل مع الأنثى (مرأةً ولا مرةً) بل استعمل [امرأة] وذلك في ستةٍ وعشرين موضعاً.. أولها في [آل عمران ٣٥]: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ..﴾ وآخرها في [القصص ٢٣]: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ..﴾.

هذا ومن عجائب رسم المصحف الشريف أنَّ كلمة [امرأة] إنْ جاءت مفردة غير مضافة رسمت تاؤها مربوطة نحو: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ﴾ [النساء: ١٢٨] و﴿امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٣] و ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ [الأحزاب: ٥٠].

فإن جاءت مضافة إلى قرينها رسمت تاؤها مبسوطة نحو: [امرأت نوح - امرأت لوط - امرأت العزيز- امرأت فرعون - امرأت عمران].

أما [الزوج] فهو ما يكون له نظير كالأصناف والألوان، أو يكون له نقيضٌ كالرطب واليابس، والذكر والأنثى، والليل والنهار، والحلو والحامض.

قال ابن الأنباري: والعامة تخطىء فتظن أن [الزوج] اثنان، والصواب [الزوج]فردٌ وكل اثنين فهما: [زوجان]، وكل واحد من القرينين مماثلاً له أو مضاداً فهو [زوج] قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩]. وقال تعالى: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [هود: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥].

(فالرجل) زوج المرأة، و(المرأة) زوج الرجل.. هذه هي اللغة العالية وبها جاء القرآن الكريم في نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا... ﴾ [النساء: ٢٠].. والجمع فيهما [أزواج] قال الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ﴾ أي نساؤكم [النساء: ١٢]. وقال تعالى: ﴿ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ أي: رجالهن [البقرة: ٢٣٢]

وأهل نَجد يقولون في المرأة [زوجة] بتاء التأنيث، وأهل الحرم يتكلمون بها وجمعها (زوجات)، والفقهاء يقتصرون في الاستعمال على [زوجة] وذلك للإيضاح وكيلا يلتبس الذكر بالأنثى في أحكامهم الفقهية.

هذا وقوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فيه إشارةٌ واضحةٌ إلى أنَّ كل ما في الكون (زوج) من حيث أنَّ له ضداً أو مثلا مًّا ، فإنْ لم يكن له ضد ولا مثلٌ فإنه لا ينفك من تركيب جوهرٍ وعَرَض، وذلك زوجان.. والله تعالى هو وحده الواحد الأحد الفرد الصمد (ليس كمثله شيءٌ) فليس هو زوجاً وليس له زوج، سبحانه وتعالى عما يصفون.

إخوتي الكرام.. أما متى يُطلق على الأنثى (زوج) ومتى يُطلق عليها (امرأة) فإنْ أردتم الاستعمال الدقيق لكل كلمة فلنرجع إلى كتاب العربية الأكبر وهو القرآن.

كلمة [امرأة] تدل على مجرد الأنوثة، أما كلمة [زوجة] فتدل على المزاوجة والمشاكلة، والتعبير القرآني استخدم كلمة (زوج) حيث تكون مواصفات المزاوجة بين الرجل والمرأة متوفرة وكاملة.. وأعلاها: الإيمان بالله تعالى، وأدناها: قبول الحمل والولادة..

[فحواء] قرينة [آدم] عليهما السلام هي على دينه الصحيح وهي أم بنيه لذا فهي زوجه؛ قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ.. ﴾ [البقرة: ٣٥].

إذ تحققت حكمة الزوجية بينهما بطرفيها الأعلى والأدنى.

أما [واعلة] قرينة [نوح] عليه السلام فقد خانته في الإيمان فلم تكن على دينه.. إذًا فهي [امرأته] وليست [زوجه].

وكذلك [واهلة] امرأة [لوط] عليه السلام خانته في الإيمان فهي [امرأةٌ] لا [زوج] قال الله تعالى فيهما: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم: ١٠].

وأما [آسية] قرينة فرعون فقد كانت هي المؤمنة بالله وحده، وفرعون كان الكافر فهي إذاً امرأته وليست زوجه، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ [التحريم: ١١]. ففي هؤلاء النسوة الثلاث مخالفةٌ في الدين مع رجالهن لهذا فلا زوجية بينهم..

و[أم جميل] قرينة أبي لهبٍ الكافر هي كافرةٌ أيضاً فالموافقة بينهما في الدين موجودة لكنها موافقة على دين فاسد لا على إيمان صحيح إذن فهي إمرأته لا زوجه، قال تعالى: ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ [المسد: ٤].

أما [السيدة سارَّة] قرينة سيدنا إبراهيم عليهما السلام.. فهما مؤمنان بالله تعالى ولكنها كانت عقيماً لا تحمل ولا تلد.. فالصفة العليا في الزوجية [الإيمان] موجودة، والصفة الدنيا [التوالد] مفقودة.. لذا فهي امرأته لا زوجه وصدق الله العظيم القائل في محكم التنزيل: ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ﴾ [هود: ٧١] صحيحٌ أنها حملتْ بإسحاق عليه السلام لكنَّ القرآن الكريم عندما أطلق

عليها [امرأة] كانت في حالة العقم.. وعند الحمل لم يرد ذكرها..

بينما [قرينة نبي الله زكريا] ذكرها القرآن الكريم في الحالين: في حال العقم وفي حال الحمل ففي الحالة الأولى أطلق عليها (امرأةً) على لسان (زكريا) عليه السلام.. قال تعالى في [آل عمران ٤٠]. ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ... ﴾.

وضرع زكريا عليه السلام إلى الله سبحانه بأنْ يهبه ذرية طيبة من امرأته العاقر فيكون له ولدٌ صالح يرث عنه وعن آبائه النبوة والعلم قال تعالى في [مريم ٥]: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥]. فلما استجاب الرَّبُّ الكريم لنبيه زكريا، وحقَّقت الزوجية حكمتها سمَّى القرآن الكريم امرأته (زوجه) قال تعالى في [الأنبياء ٨٩-٩٠]: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ... ﴾.

وهكذا فهذه كانت عاقراً لا تحمل فهي (امرأة) وبعد أنْ أصلحها الله ووهبها يحيى الولد أصبحت [زوجاً].. فسبحان الله العظيم مُنزل هذا القرآن الحكيم بلسانٍ عربي مبين!!

أما [حنَّة] قرينة عمران.. فقد مات بعلها (عمران) فترمَّلت.. والقرآن الكريم عندما تحدَّث عنها قال: (امرأة عمران) ولم يقل (زوج عمران) لأنها عند ذلك ليس لها زوج فهي امرأة لا زوج قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ [آل عمران: ٣٥].

وأما [زُليخا] قرينة عزيز مصر فهي لم تحمل ولم تلد منه، ثم هي خانته بمراودتها فتاها يوسف عليه السلام لذا فهي (امرأة) في الحالتين وليست زوجاً قال تعالى: [يوسف ٢١]: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا... ﴾ [يوسف: ٢١] وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف: ٣٠].

أيها الإخوة:

تلكم نساء متزوجات وكُلٌّ منهن (زوج) عند اكتمال مواصفات الزوجية بينها وبين رَجُلها وأعلاها الإيمان الصحيح وأدناها قبول الحمل والولادة..

فإن اختلف الدين بينهما أو كانا على دين فاسد أو كانت هي عقيماً فهي إمرأة..

فإذا لم تتزوج الأنثى بعدُ فهي من باب أولى [امرأةٌ] والتعبير القرآني يُطلق عليها (امرأة) من ذلك قوله تعالى عن (بلقيس ملكة سبأ) على لسان الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ..﴾ [النمل: ٢٣]. وقوله تعالى عن [صَبورا وغَبرا] ابنتي سيدنا شُعيب عليه السلام: ﴿.. وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ..﴾ [القصص: ٢٣]. [وقيل: المرأتان: ابنتا أخي شعيب].

ومن ذلك قوله تعالى عن [أم شريك] التي وهبت نفسها لرسول الله ﷺ ليتزوجها إنْ أراد: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا...﴾ [الأحزاب: ٥٠]. بل وإنْ كانت الأنثى متزوجة وبدأ حبل المودة والرحمة بينهما يتقطع، وأخذ بعلها يترفع عليها أو يُعرِض عنها كرهاً لها لدمامتها أو لكبر سنها أو لغير ذلك فهي في هذه الحال [امرأة] من ذلك قوله تعالى في [خولة بنت محمد بن مسلمة] ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا...﴾ [النساء: ١٢٨].

إخوتي المسلمين.. وفي آيات التشريع تتعلق الأحكام [بالزوج والأزواج] حين تكون الزوجية قائمة واقعاً أو حكماً كأحكام المواريث، وعدة اللاتي توفي أزواجهن من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم..﴾ [البقرة: ٢٤٠]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

أما حين تنقطع العلاقة الزوجية بإيلاء أو بطلاق أو بظهار - فالأحكام هنا متعلقة [بالنساء] لا بالأزواج.. من ذلك قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: ٢٢٦]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ

النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لعدَّتِهِنَّ...﴾ [الطلاق: ١]، وقوله تعالى: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً...﴾ [البقرة: ٢٣٦]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ...﴾ [المجادلة: ٢].

وهكذا أيها الإخوة نجد أنَّ التعبير القرآني قد بلغ الغاية في الدقة في التفريق بين: [المرأة والزوجة] وبين [النساء والأزواج].. ولم يقتصر هذا التفريق على الحياة الدنيا بل شمل الحياة الآخرة أيضاً، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ...﴾ [البقرة: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس].

أما قوله تعالى في [الصافات ٢٢، ٢٣]: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾..

(فأزواجهم) هنا معناه: أشباههم ونظراؤهم من العصاة والمجرمين الفجرة والكافرين كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه [تفسير القرطبي ١٥/ ٧٣ بتصرف].

هذا وإذا أعدنا النظر في كتاب الله العزيز لوجدنا أن حكمة الزوجية هي: اتصال الحياة بالتوالد وبالتكاثر، وليس ذلك مقتصراً على الإنسان بل يشمل سائر الكائنات الحية من حيوان ونبات ومالانعلم..

وفي هذا السياق يكون الاختيار في التعبير القرآني لكلمة [زوج، وزوجين، وأزواج].. من ذلك قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]. وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ..﴾ [الأنعام: ١٤٣]. ﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]

هذا وكلمة [زوج] مفردة لم تُطلَق في القرآن الكريم على [الرجل] إلا في آيتين هما:

الأولى: في سورة المجادلة قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. نزلت في [خولة بنت ثعلبة]امرأة [أوس بن الصامت] رضي الله عنهما.. وقد أرادها فامتنعتْ فغضب عليها فظاهر منها على عادة أهل الجاهلية في تحريم الزوجة بقوله: (أنتِ علي كظهر أمِّي) ثم خرج مِن البيت وغاب ساعة ثم عاد إلى زوجه وهو يريدها فقالت: كلاَّ والذي نفس خويلة بيده لا تخلُص إليّ ياأوس وقد قلتَ ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه.

فأتتْ رسول الله ﷺ تشكو إليه ظلم زوجها قائلة: يارسول الله إنَّ أوساً تزوجني وأنا شابة فأكل مالي وأفنى شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبرتْ سني، وانقطع ولدي ظاهر مني وجعلني عليه كأمه؟!!

فقال ﷺ: (ماأراكِ إلا قد حرمت عليه).. فأخذتْ خولة تجادل الرسول ﷺ في (زوجها) وتقول: ما طلَّقني ولكنه ظاهر مني، وإنَّ لي منه صبياناً صغاراً إنْ ضممتهم إليه ضاعوا، وإنْ ضممتهم إلي جاعوا!!

فقال لها عليه الصلاة والسلام: ما عندي مِن أمرك شيء وأنت قد حرمت عليه).

فقالت: اللهم إني أشكو إليك حالي.. فاستجاب الله دعاءها وفرَّج كربتها وما برحتْ مِن مجلسها حتى نزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ بهذه الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا..﴾ [المجادلة: ١ – ٤].

والتعبير القرآني الدقيق قال هنا: [زوجها] ولم يقل: [بعلها ولا رَجُلها] وذلك لأنَّ الزوجية بين [خولة وأوس] لم تنقطع بكلمة قالها لها: [أنت علي كظهر أمي].. فالزوجة في الحقيقة ليست أُمَّ الرجل، بل أمُّه هي التي ولدته مِن بطنها.. والظهار قولٌ منكر وزُور وكَذِب وبهتان وعدَّه الإسلام ذنباً كبيراً..

وأوجب على من ارتكبه ثم ندم ورغب في إعادة زوجته إليه أوجب عليه كفارة الظهار قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة: ٣ - ٤].

والمرة الثانية التي أطلق فيها القرآن الكريم كلمة [زوج] على الرجل هي في قوله تعالى في (سورة البقرة ٢٣٠): ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾..

أي: فإنْ طلق الرجل امرأته ثالث مرة فإنها لا تحل له (حتى تنكح زوجاً غيره) ثم يطلِّقها هذا الزوج باختياره (فإن طلقها فلا جناح عليهما أنْ يتراجعا إنْ ظنَّا أن يقيما حدود الله...)

والتعبير القرآني اختار هنا [زوجاً غيره] دون [بَعلاً أو رَجُلاً] وذلك ليؤكِّد على ضرورة قيام الزوجية فعلاً بين المطلقة طلاقاً بائناً والمحلِّل..

فلابدَّ من إتمام الزواج الفعلي بينهما ولا تحلُّ للأول إنْ طلقها الثاني إلاَّ (بعد أنْ يذوق عُسَيلَتها وتذوقَ عسيلته) كما صرَّح بذلك الحديث النبويُّ الشريف..

أما إجراء عقْد صوريٍّ بينهما بلا دخول ولا تذوُّق للعسيلة فإنَّ هذا العقد لا يُسمَّى [زواجاً]، وإنَّ هذا المحلِّل لا يُسمَّى [زوجاً]. من أجل هذا التلاعب الذي قد يفعله بعض الناس وسَدّاً لهذا العبث جاء التعبير القرآني [حتى تنكح زوجاً غيره].

فما أعظم هذا القرآنَ وما أدَقَّ التعبير القرآني!. فتح الله عليَّ وعليكم في القرآن وبالقرآن ومع القرآن ومن القرآن وللقرآن فُتوح العارفين ورفعَنا ونفعَنا بالقرآن العظيم آمين آمين والحمد لله رب العالمين.

خاتمة المطاف:

هذا وفي خاتمة المطاف حول اللمحات اللغوية، واللطائف التعبيرية التي فتح الله بها عليَّ ويسَّرها لي من الآيات القرآنية الواردة في سيرة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، ومَن وما يتصل به في كتاب الله العزيز.. أُسطِّر هذه الآيات الكريمات الناطقة بحقيقة ملة أبي الأنبياء، والتي تُبرِّئه من اليهودية ومن النصرانية ومن الشِّرك، وتُثبت أنه كان حنيفاً مسلماً، وتشهد أنَّ سيدنا محمداً ﷺ هو وأُمَّته المسلمة هم أولَى بإبراهيم وبالانتساب إليه وباتِّباع ملته، وبالاعتزاز به بعد الذين آمنوا به واتبعوه في حياته وبعد مماته..

(أ) قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران].

(ب) وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

(ج) وقال تعالى: ﴿..هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ..﴾ [الحج: ٧٨].

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى إبراهيم في العالمين إنك حميدٌ مجيد.. والحمد لله رب العالمين.